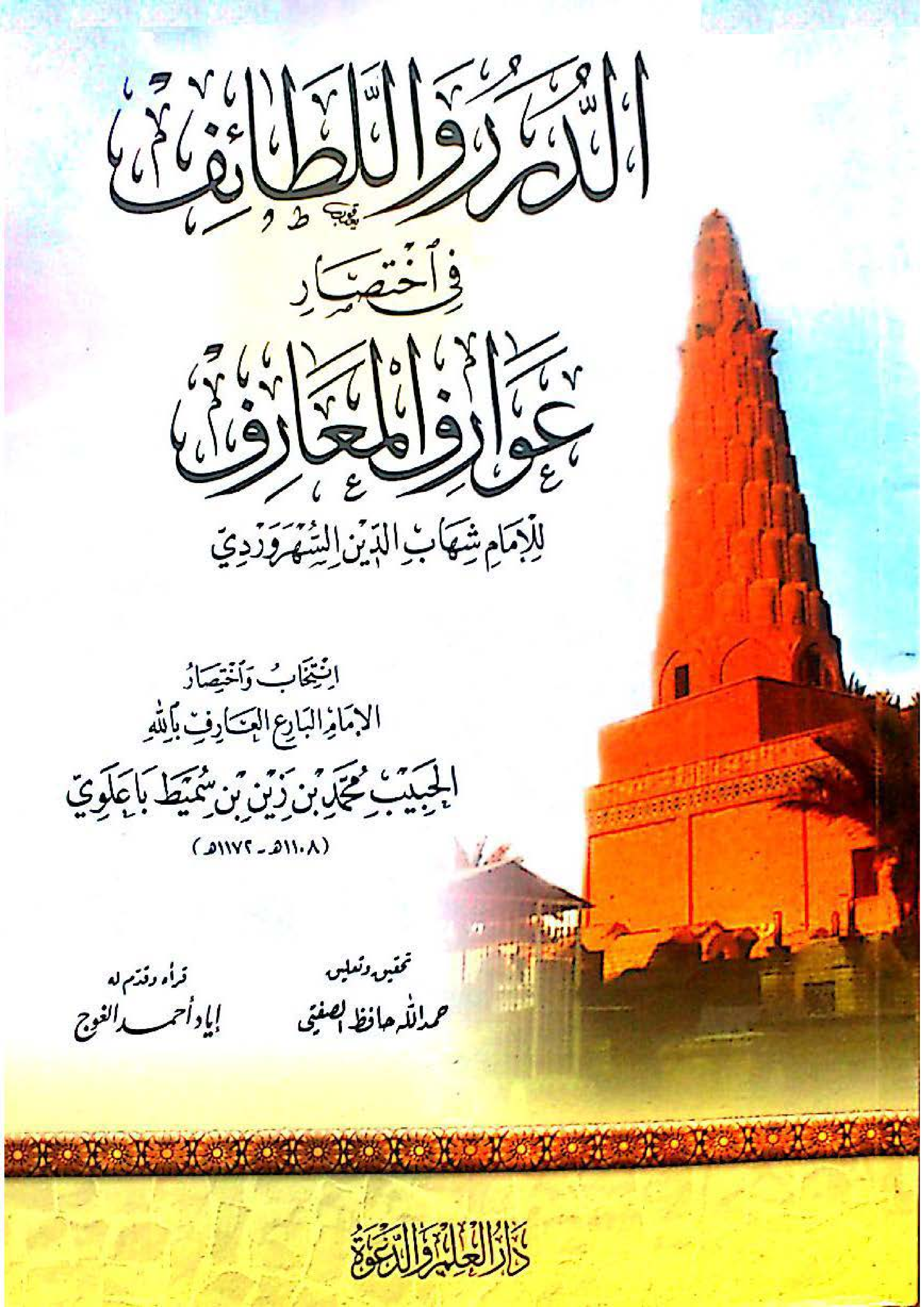

الدُّرُّ واللطائف
في اختصار
عوارف المعارف
للإمام شهاب الدين السهروردي
انتخاب واختصار
الإمام البارع العارف بالله
الحبيب محمد بن زين بن سميط باعلوي
(١١٠٨هـ - ١١٧٢هـ)
تحقيق وتعليق
حمد الله حافظ الصفتي
قرأه وقدم له
إياد أحمد الغوج
دار العلم والدعوة


الدرر واللطائف

الدرر واللطائف

في اختصار

عوارف المعارف

للإمام شهاب الدين السهروردي

انتخاب واختصار

الإمام البارع العارف بالله

الحبيب محمد بن زين بن سميط باعلوي

(١١٠٨هـ - ١١٧٢هـ)

تحقيق وتعليق

حمد الله حافظ الصفتي

قرأه وقدم له

إياد أحمد الغوج



رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٦/٧/١٨٩٧)

٢١٩
ابن سميط، محمد بن زين بن علوي بن عبدالرحمن
(١١٠٠-١١٧٢)
الدرر واللطائف في اختصار عوارف المعارف
محمد بن زين بن سميط
عمان: دار الفتح للدراسات والنشر، ٢٠٠٦
ر.إ: (٢٠٠٦/٧/١٨٩٧)
الواصفات: التصوف الإسلامي // الصوفيون// مصادر التصوف
* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

(رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر ٢٠٠٦/٧/٢١٤٥)

الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

قياس القطع: ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي: ISBN 9957-23-061-1



الجمهورية اليمنية، تريم (حضرموت)
تلفاكس ٤١٩٣٣٦ (٠٠٩٦٧٥)، ص.ب ٥٨٠٧٦
الموقع على شبكة الإنترنت : http://www.dar-alilm.com

كلمة الناشر

الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ سيّدنا ومولانا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فهذا مختصَـرٌ لطيفٌ نافع، لكتاب «عـوارف المعارف» للإمام شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي رحمه اللّه تعالىٰ، اختصره عَلَمٌ من رجالات حضرموت في القرن الثاني عشر الهجري، وواحدٌ من أبرز تلامذة الإمام الكبير قطب الإرشاد، عبد اللّه بن علـوي الحدّاد، وهو الإمـام العلاّمة، العارف الوليُّ الزاهد، الحبيب جمال الدين محمد بن زين بن سميط، رحمة اللّه عليه.

وهو مختصَرٌ حوىٰ نفائسَ مما شُحِنَ به «العوارف» من معارف القوم ومعانيهم، حَرِصَ مختَصِرُه علىٰ التقاط ما ينشّط همةَ السالك ويقوّي عزمَه، ويرشده في طريقه، نقدُمـه اليوم في حُلّةٍ متقنةٍ بإذن اللّه، وقد صدّرنـاه بتراجم ثلاثة، للأئمة: الشهاب السهروردي مؤلف الأصل، وعمّه وشيخه أبي النجيب السـهروردي الذي ورد ذكره كثيرًا في الأصل والمختصَر، والإمام محمد بن زين بن سميط صاحب هذا الاختصـار المسمّىٰ: «الدرر واللطائف».

ضارعينَ إلىٰ المولىٰ تعالى أنْ يجعـلَ فيما صَنَعْنا النفعَ في الداريـن، ويعيننا علىٰ إخراج تراثنا السَّنِيّ الهادي، واللّه مِنَ وراء القصد، وهو يهدي السـبيل.

الإمامُ شِهَابُ الدِّينِ السُّهْرَوَرْدِيّ[١]
(٥٣٩ ــ ٦٣٢هـ)
صاحبُ «عَوَارِفِ المَعارف»

الإمامُ العالم، القدوةُ الزاهد، العارفُ المربّي، شيخُ الإسلام، شهابُ الدين أبو حفص، عمرُ بنُ محمد بن عبد الله البَكْري السُّهْرَوَرْدي ثم البغدادي.

وُلِدَ في رجب، سنةَ ٥٣٩، بسُهْرَوَرْد[٢]، وقَدِمَ بغداد يافعاً قريباً من ست عشرة سنةً، فصحِبَ عمَّه الشيخَ أبا النجيب ولازمَه وسلكَ علىٰ يديه، وصحبَ قليلاً الشيخَ عبدَ القادر الجيلاني، وغيره. وسمعَ الحديثَ علىٰ جماعة، منهم: أبو زُرْعةَ المقدسي، وأبو الفتح ابنُ البَطِّي، ومَعْمَر بن الفاخر، وعمُّه أبو النجيب، وغيرهم[٣].

---

(١) من مصادر ترجمته:
«معجم البلدان» لياقوت (٣: ٢٩٠ سهرورد)، «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٣: ٤٤٦ ــ ٤٤٨)، «ذيل الروضتين» لأبي شامة (ص ١٦٣)، «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢٢: ٣٧٣ ــ ٣٧٧)، «طبقات الشافعية الكبرىٰ» للتاج السبكي (٨: ٣٣٨ ــ ٣٤١)، «البداية والنهاية» لابن كثير (١٧: ٢٠٩ ــ ٢١٠ سنة ٦٣٠، ط. هجر)، «طبقات الأولياء» لابن الملقِّن (ص ٢٦٢ ــ ٢٦٥)، «الأعلام» للزركلي (٥: ٦٢)، وغيرها.

(٢) وقُتل أبوه بها وللشهاب ستةُ أشهر من العمر. «ذيل تاريخ بغداد» لابن النجّار.

(٣) وجمع طائفةً ممن سمع عليهم الحديث في «مشيخة»، وصلتنا منها نسخةٌ تحتفظ بها مكتبة (تشستربيتي) برقم (٩ / ٣٤٩٥). وقد طبعت مؤخراً بتحقيق الدكتور عامر حسن صبري.

وقرأ الفقهَ والخلافَ والعربية، وتفقّه بعمِّه ولزمه إلىٰ أنْ تُوفيَ[١]، ثم صحبَ بعدَه أبا القاسم ابنَ فَضْلان إلىٰ أنْ بَرَعَ في الفقهِ، ثم أقبلَ علىٰ الاشتغالِ باللّه وسلوكِ طريق الآخرة، واستغرقَ أوقاتَه بالعبادات والأوراد، ولَزِمَ بابَ اللّه تعالىٰ، ففَتَحَ اللّه عزَّ وجلَّ عليه حتىٰ صارَ أوحدَ زمانه[٢].

دعا الخَلْقَ إلىٰ اللّه، وظهرَ للناس في علوِّ سِنّه وتكلَّم ووعظ، وكان كلامُهُ آخِذًا بمجامع القلوب، صادراً عن معاملةٍ ورياضة، خَلِيّاً عن التزويق والتكلُّف، وظهرت بركاتُ أنفاسِه علىٰ خَلْقٍ مِنَ العصاة فتابوا، ووصلَ به خَلْقٌ إلىٰ اللّه، وصار أصحابُه كالنجوم.

أقبلَ عليه الخليفةُ الناصرُ لدين اللّه أحمد، واستنهضه رسولاً إلىٰ عدة مواضع، فما توجَّه في أمرٍ إلا وتَمَّ ببركته، ورأىٰ منَ الجاه والحُرمةِ ما لم يَرَهُ أحد.

قال الحافظ ابنُ النجّار: وكان تامَّ المروءة، كبير النفس، ليس للمال عنده قدر، لقد حصل له ألوفٌ كثيرة فلم يدَّخِر شيئًا، وماتَ ولم يُخلِّف كَفَنًا! وكان مليحَ الخَلْق والخُلُق، متواضعًا، كاملَ الأوصافِ الجميلة، قرأتُ عليه كثيرًا، وصحبتُه مدةً، وكان صدوقًا نبيلاً.

وقال الحافظ ابن نُقْطة: كان شيخَ العراق في وقته، صاحب مجاهدةٍ وإيثار، وطريقٍ حميدة، ومروءةٍ تامة، وأورادٍ علىٰ كِبَر سِنّه.

قال ابن كثير: «كان من كبار الصالحين وسادات المسلمين. . . وكانت فيه مروءةٌ وإغاثةٌ للملهوفين، وإعانةٌ للمحتاجين، وأمرٌ بمعروفٍ ونهيٌ عن منكر»[٣].

---

(١) وعاش بعد عمه أبي النجيب دهراً، نحو سبعين عاماً، لأنه عُمِّر.

(٢) «طبقات الشافعية الوسطىٰ» عن هامش «الكبرىٰ» (٨: ٣٣٩)، نقلاً من كلام ابن باطيش تلميذ المترجَم.

(٣) «البداية والنهاية» (١٧: ٢٠٩ ط. دار هجر).

وممن حدَّث عنه: الحفّاظُ: ابنُ نُقْطة، وابنُ الدُّبَيْثي، وابنُ النجار، والضياءُ المقدسي، وغيرُهم من المحدِّثين والنقَلة.

أمّا الذين تربَّوا به وسلكوا علىٰ يديه فخَلْقٌ كثيرون.

وكان أربابُ الطريق مِن أهل عصره يكتبون إليه يسألونه عن بعض أحوالهم، وقد كتبَ إليه أحدهم مرةً: يا سيِّدي، إنْ تركتُ العملَ أخلدتُ إلىٰ البَطالة، وإنْ عملتُ داخلني العُجب، فأيُّهما أولىٰ؟ فكتب جوابَه: اعملْ واستغفرِ اللّهَ مِنَ العُجب. وأخبارُه في ذلك كثيرة.

انتهت إليه الرياسةُ في تربية المريدين والتسليكِ ودعاءِ الخَلْقِ إلىٰ اللّه، وحصلَ له القبولُ التام، وقُصِدَ مِنَ الآفاق. ثم أضرَّ في آخر عمره، وأُقعِد، ومع هذا فما أخَلَّ بالأورادِ ودوام الذِّكْر، وحضورِ الجُمَعِ في مَحَفَّتِه، والمضيِّ إلىٰ الحج، إلىٰ أنْ دخلَ في عشر المئة وضَعُفَ فانقطع.

وفي أوّل ليلةٍ من سنة ٦٣٢ لَحِقَ الإمام عمر بن محمد السهروردي بدار الحق، ودُفِنَ بمسجده ببغداد، الواقع اليوم بمنطقة تُعرَف بـ «مَحَلّة الشيخ عمر»، وله منارةٌ مميَّزة[١].

* * *

ترك الإمام السهروردي رحمه اللّه عدداً من المؤلفات، منها:

١ ــ «عوارف المعارف»، وهو أشهرُ كتبه وبه يُعرَف، وهو من أصول كتب التصوُّف. طُبع طبعاتٍ عدة كانت آخرُها طبعةَ دار البحوث بدُبي، ولا يزال بحاجة إلىٰ تحقيق علمي وثيق.

٢ ــ «نغبة البيان في تفسير القرآن»، مخطوط[٢].

---

(١) وقد جعلنا علىٰ الغلاف صورةً لذلك المسجد ومنارته، إحياءً لذلك المشهد المبارك.

(٢) وله نسخةٌ نفيسة بمكتبة المدرسة العثمانية بحلب، مقروءة علىٰ مؤلفها وعليها خطه. أفاده =

٣ ــ «جذب القلوب إلىٰ مواصلة المحبوب»، رسالة، مطبوعة.

٤ ــ «السَّيْر والطَّيْر»، رسالة، مخطوطة.

٥ ــ كناشٌ فيه شعر، مخطوط.

٦ ــ «مشيخة» ذكر فيها عدداً من شيوخه، مطبوعة.

٧ ــ «رشف النصائح الإيمانية وكشف الفضائح اليونانية»، مطبوع[١].

٨ ــ «أعلام الهدىٰ وعقيدة أرباب التقىٰ»، مخطوط.

٩ ــ وصيةٌ لبعض تلاميذه، مخطوطة.

وله شعرٌ كثير حسن. رحمه اللّٰه تعالىٰ، وأجزل مثوبتَه.

* * *

= الزركلي في «الأعلام» (٥: ٦٢)، ومن تلك النسخة نقل الزركلي نموذج خطه.

(١) بدار السلام بالقاهرة سنة ١٩٩٩م، بتحقيق الدكتورة عائشة يوسف المناعي.

الإمامُ أبو النَّجِيبِ السُّهْرَوَرْدِيّ[1]
(٤٩٠ ـــ ٥٦٣هـ)
عَمُّ صاحبِ «العَوَارِف» وشَيْخُه

الإمـام الجليـل، الصوفـي الزاهد العابـد، الفقيـه المتفنـن، أبو النجيـب، عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عَمُّويَه البكري السهروردي الشافعي، أحدُ أئمة المسلمين ومشايخ الطريقة.

مولـده بسُهْرَوَرد، سنة ٤٩٠، ثم قدم بغداد نحو سنة ٥١٠، فتفقَّه بالمدرسة النظامية علىٰ أسعـد المِيْهَني، وبرع في المذهب، وتأدَّبَ علىٰ الفصيحي، وسمـع الحديث من جماعة.

ثم هبَّ له نسيـمُ التوفيق، ودلَّه علىٰ سواء الطريق، فآثر الانقطاع، وتجرَّد، ودخل البرّيّـةَ حافياً، وحجَّ، وجرت له قِصَصٌ، وسلك طريقاً وَعِراً في المجاهدة. وصحبَ في تربيته الشيخَ أحمد الغزالي، والشيخ حمّاداً الدبّاس.

---

(١) من مصادر ترجمته:
«الأنساب» للسمعاني (٧: ١٩٧)، «الكامل» لابن الأثير (١١: ٣٣٣)، «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٣: ٢٠٤ ـــ ٢٠٥)، «معجم البلدان» لياقوت (٣: ٢٨٩ ـــ ٢٩٠ سهرورد)، «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢٠: ٤٧٥ ـــ ٤٧٨)، «طبقات الشافعية الكبرىٰ» للتاج السبكي (٧: ١٧٣ ـــ ١٧٥)، «البداية والنهاية» لابن كثير (١٦: ٤٢٦ ـــ ٤٢٧ سنة ٥٦٣، ط. هجر)، «الأعلام» للزركلي (٤: ٤٩)، وغيرها.

ثم شرعَ في دعاءِ الخَلْق إلىٰ الله، فأقبلَ الناسُ عليه، وصار له قبولٌ عظيم، وأفلح بسببه أُمّةٌ صاروا سُرُجًا، وبنىٰ مدرسةً ورباطَين، ودرَّس وأفتىٰ، وولِيَ تدريس النظامية.

قال الحافظُ ابنُ النجّار: كان مطَّرِحاً للتكلُّف في وعظِه بلا سجع، وبقيَ سنين يستقي بالقِرْبة بالأُجرة، ويتقوَّت، ويُؤْثِرُ مَنْ عندَه. . .، ثم اشتهر، وصار له القبول عند الملوك، وزاره السلطان. . .، وصار [رباطُه] حمىً لمن لجأ إليه من الخائفين، يُجِير من الخليفة والسلطان. . .، أملىٰ مجالسَ وصنَّف مصنَّفات.

وحدَّث عن المترجَم كثيرون، منهم الحافظ الكبير أبو القاسم ابْن عساكر، وولده القاسم، والسمعاني، وأبو نصر ابنُ الشيرازي، وابنُ أخيه الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي المتقدمة ترجمته، وغيرهم.

قال ياقوت في «معجمه»: قدم ــ المترجَمُ ــ دمشق سنةَ ٥٥٨ عازماً علىٰ زيارة بيت المقدس، فلم يتفق له ذلك لانفساخ الهدنة بين المسلمين والعدوّ، فأكرم نور الدين محمود بن زنكي[١] مَقْدَمَه، واحترمه وأكرمه، وأقام بدمشق يسيراً وعاد إلىٰ بغداد.

وفي جمادىٰ الآخرة، من سنة ٥٦٣، تُوفِّيَ المترجَمُ إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، ودفن بمدرسته.

وخلَّف تصانيف، منها:

١ ــ «آداب المريدين»، مطبوع.

٢ ــ «شرح الأسماء الحسنىٰ»، مخطوط.

٣ ــ «غريب المصابيح»، مخطوط.

وغيرها. رحمه الله وأكرم مثواه.

---

(١) ذاك الخليفة الذي كانت تعتقد رعيتُه ولايته في حياته، فرضيَ الله عنه وأرضاه.

العَلاَّمة الحبيب
محمَّدُ بنُ زَيْنِ بْنِ سُمَيط باعَلَوي[1]
(١١٠٠ ــ ١١٧٢هـ)
مُختَصرُ «عَوَارف المَعَارف»

الإمامُ القدوة، العالمُ العامل، الورعُ الزاهدُ العارفُ بالله، الحبيبُ جمال الدين محمد بن زين بن علوي بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد سُمَيط[2]، باعلوي الحسيني الحضرمي الشافعي.

وُلد الحبيب محمد في مدينة (تَرِيم) الغَنَّاء، فاتح شهر شعبان سنة ١١٠٠هـ، ونشأ في رعاية والده الصالح المبارك: السيِّد زين بن علوي.

---

(١) من مصادر ترجمته:
«مجمع البحرين في مناقب الحبيب محمد بن زين» لتلميذه الشيخ معروف بن محمد باجمَال (مخطوط)، «تاريخ الشعراء الحضرميين» للسقاف (٢: ١٢٧)، «إدام القوت» لابن عُبيد الله السقاف (ص ٥١١) (ط. دار المنهاج)، «الأعلام» للزركلي (٦: ١٣٣)، «القلادة: مقالات الأستاذ عمر باذيب» (ص ٧١ ــ ٩٥)، وغيرها.

(٢) آل (بن سميط) أسرةٌ كريمة، مشهورة بفحول العلماء وسادات الأتقياء، وهم منتشرون في (تريم) و(شبام) بحضرموت، وفي جاوة بإندونيسيا، وفي الحجاز من الديار السعودية، وغيرها. و(سُمَيط) أول مَنْ لُقب به: جدهم السيد محمد بن علي بن عبد الرحمن حين سقط عن سميطه وهو طفل، فلُقِّب به. انتهى من «القلادة» للأستاذ عمر باذيب (ص ٧٤) باختصار.

حفظ القرآن الكريم، وقرأ المتون العلمية، من فقهٍ وحديث، وتفسيرٍ وعربية، وغيرها، وتلقىٰ عن علماء مِصْره، كالإمام عَمر بن عبد الرحمن البار، والإمام الحسين بن عمر بن عبد الرحمن العطّاس، والعلاّمة السيد عمر بن حامد المنفر، والعلاّمة الشيخ سالم بن عمر بلحاج بافضل، وغيرهم.

أمّا أجلُّ شيوخه فهو الإمام قطب الإرشاد، عبد الله بن علوي الحدّاد، صحبه الحبيب محمد بن زين وانقطع إليه انقطاعاً تاماً. وصحب بعده تلميذَه العلامةَ الحبيب أحمد بن زين الحبشي، وعن هذين العَلَمَين جُلُّ أخذه وملازمته، وفي ذلك يقول الحبيب ابن سميط من شعره:

أحمَدُ اللّهَ إذ مَنَّ عليَّ	بالجميلِ المَحْضِ أسداهُ إليّ
نعمةٌ ما مثلُها مِنْ نعمةٍ	نعمةٌ عظمىٰ لقد جَلَّتْ لدَيّ
نسبتي للقوم ساداتِ الورىٰ	وهُداةِ الخَلْقِ مِنْ جهلٍ وغيّ
وهما الحدّادُ والحَبْشي اللذا	نِ هما كنزي إذا كَلَّتْ يدَيّ
أيُّ شيءٍ فاتَ مَنْ أدرَكَهُما	والذي فاتاه أدرَكْ أيَّ شيّ؟!

* * *

في سنة ١١٣٥هـ، انتقل الإمام محمد بن زين مع والده وأسرته إلىٰ مدينة (شِبام)، بعد وفاة شيخه الحدّاد، فكانت مستقرَّه، ومنطلَقَ دعوته، فتلقىٰ عنه خَلْقٌ كثيرون، وعمَّ نَفْعُه، وانتشرَ ذكرُه.

كان الحبيب محمد رحمه الله فصيحَ العبارة، لطيفَ الإشارة، حسنَ المظهر، كريماً جواداً، ورعاً زاهداً، شجاعاً مجاهداً، ذا صدقاتٍ ومبرّات.

وإلىٰ جانب قيامه بأعباء التعليم والإرشاد والدعوة كتب الحبيبُ محمد عدةَ مؤلفات، منها:

١ ــ «غاية القصد والمراد في مناقب الإمام عبد الله بن علوي الحدّاد».

٢ ـ «بهجة الفؤاد»، مختصرٌ من«غاية القصد والمراد».

٣ ـ «قرة العين وجلاء الرَّين»، في مناقب الإمام أحمد بن زَين (الحبشي)»، مخطوط.

٤ ـ «بهجة الزمان وسَلْوة الأحزان»، ذكر فيه تراجمَ طائفةٍ من أشياخ شيخه الحدّاد وأقرانه وأصحابه، مطبوع.

٥ ـ «إتحاف المريدين، وإسعاف المسترشدين، بلُباب كتاب إحياء علوم الدين».

٦ ـ «لب اللباب خلاصة مجمع الأحباب (للواسطي)»، مخطوط.

٧ ـ «الدر المنضود، الملتقط من بحر العهود (للشعراني)»، مخطوط.

٨ ـ «الدرر واللطائف في اختصار عوارف المعارف»، كتابنا هذا.

٩ ـ «شرح قصيدة: يا رب يا عالم الحال (لشيخه الحدّاد)»، مخطوط.

وغيرها من التآليف المباركة.

وفي ليلة الثلاثاء، العشرين من ربيع الأول سنة ١١٧٢، انتقل العلاّمة الوليُّ الحبيب محمد بن زين بن سُمَيط إلىٰ دار الحق، ودُفِنَ بجوار والده في مقبرة شِبام المعروفة بـ (جرب هَيْصَم)، رحمه الله ورضيَ عنه وأكرم مثواه.



هذا الكتاب

يُعَدُّ كتابُ «عوارف المعارف» للإمام شهاب الدين السهروردي، من أجلِّ كتب التصوف الأصول، وهو مادةُ مذاكَرةٍ عاليةٍ للسائرين إلىٰ الله، لذا اعتنىٰ به العلماء والمشايخ، وأكثروا من مطالعته وإقرائه.

وللإمام محمد بن زين بن سميط عنايةٌ باختصار أمثال ذلك الكتاب الهام[١]، والتقاط نفائسها وفوائدها، بحيث تصبح مؤونةُ الاطّلاع عليها يسيرةً باختصار حجمها، مع اجتهاده في حسن الانتقاء لأهمِّ ما في تلك الكتب، قاصداً علىٰ الأخص نقلَ ما فيه شحذٌ لهمة السالك وتنشيطٌ لسَيْرِه، وقد صرَّح الإمام ابن سميط بهذا القصد في غير ما محلٍّ من مختصراته[٢].

ومن مراجعتي لتحقيق هذا المختصر: «الدرر واللطائف»، لاحظتُ الملاحِظَ المنهجيةَ الآتية:

---

(١) كـ«إحياء علوم الدين» لحجة الإسلام الغزالي، و«منهاج العابدين» له، و«مجمع الأحباب» للشمس الواسطي، و«العهود المحمدية» للشعراني، وغيرها، معبِّراً عن اختصاره لأمثال تلك الكتب بـ(خلاصة كذا) أو (لباب كذا) أو (الالتقاط من كذا)، وكل ذلك مُبِينٌ عن منهجه.

(٢) منها قوله في مقدمة كتابه «لب اللباب من مجمع الأحباب»: «.. وما نقلتُ منه إلا ما كان منشّطاً ومنعشاً للهمة في الاقتداء، وما يحصل به التأثر للقلوب، بحسب ما وجدتُ أنا من التأثر بذلك، والله أعلم بوجوده لغيري، ولعلَّ الناس يختلفون..». انتهىٰ من مقدمة «مجمع الأحباب» للشريف الواسطي (١ : ٥٧).
وانظر كلامَه في آخر هذا المختصَر ص ١٥٠.

١ ــ لم يلتزم المختَصِرُ التسلسلَ في التقاطه[1] من الكتاب الأصل، بل كان يلتقط تارةً من آخره فأوله، علىٰ غير ترتيب، لكنه مع ذلك راعىٰ في ما التقطه قسطاً لا بأسَ به من التسلسل الموضوعي.

٢ ــ في الأحاديث التي وقعت في «الدرر واللطائف»، لم يلتزم المختَصِرُ الاقتصارَ علىٰ الصحيح، بل ينقل ما اتفق له خلالَ الالتقاط، ولعلَّ ذلك يرجع أيضاً إلىٰ عدم شيوع النقد الحديثي في ذلك الإقليم آنذاك.

٣ ــ لم يلتزم المختَصِرُ في نقله للأقوال نقلَها بأسماء ناقليها، بل كان يجرِّد العبارة أحياناً من قائلها ويُدرجها في السِّياق.

٤ ــ يتصرَّف المختَصِرُ أحياناً في بعض الأقوال والعبارات، إما بالاختصار، أو بتغيير بعض الكلمات لأجل الإيضاح.

٥ ــ لم يلتزم المختَصِرُ وضعَ عناوين فرعيةٍ لكل ما بدأه بعنوان (فصل).

٦ ــ أضربَ المختَصِرُ عن نقل أيٍّ من الأسانيد التي وردت في الأصل، وهو منهج سديد، إذِ السالك لا همّةَ له ــ في مطالعة هذا الصنف من الكتب ــ لغير المعاني والمباحث الروحية، وللإسناد مجالٌ آخر.

٧ ــ لم يزد المختَصِرُ من نفسه أي عبارةٍ علىٰ الكتاب، سوىٰ كلمةٍ نفيسةٍ لشيخه الإمام الحدّاد، جعلها ختامَ اختصاره.

هذا جلُّ ما ظهر لي أثناءَ المراجعة لنص الكتاب.

ــ النسخة الخطّية المعتمدة:

كان الاعتمادُ في تحقيق «الدرر واللطائف» علىٰ نسخةٍ واحدة تحتفظ بها مكتبة

---

(١) مصطلح (الالتقاط) شائعٌ في تراث الحضارم في القرون المتأخِّرة، وهو بمعنى (الاختصار) الانتقائي، وهو لفظٌ حسنٌ دقيقُ الوصف.

الأحقـاف بتريـم، تحـت الرقم ٢٥٥٤ تصوُّف، عـدد ورقاتهـا ٥٨ ورقـة، كتبهـا: محمد بن عبد اللّه بن بو بكر (هكذا) بن عمـر بن محمـد بايوسف، بتاريخ ٢٤ رجب سنةَ ١٢٨٥ هجريـة، وهـي نسخـةٌ سقيمـةٌ كثيرة الأخطـاء، ولـولا العـودةُ إلىٰ الأصـل «عـوارفِ العـوارف» ــ في التحقيق والمراجعة ــ والاستنـارةُ الـدائمـةُ به؛ لكـان إخـراج نـصٍّ مقاربٍ ــ دون ذلك ــ متعذِّراً[1].

ــ العمل في هذا الكتاب:

انصبَّ جلُّ الجهد في هذا الكتاب علىٰ إقامة نصِّه والتأكد من سلامته بأكبر قدرٍ ممكن، وضبطه وترقيمه وتفقيره، بالإضافة إلىٰ عزو الآيات، وتخريج الأحاديث، والتعريف بالأعلام، وتعليقاتٍ طفيفةٍ عند الحاجة. ثم العناية بتصحيح التجارب، والتوثق منها مرات، رجاءَ أن يكونَ بين يدي القارئ بعد ذلك نصٌّ صحيحٌ سائغ.

* * *

وأخيراً..

فقد كانَ القصدُ من إخراج هذا المختصَر:

ــ تقريبَ أصله النفيس «عوارفِ المعارف» لأيدي القرّاء...

ــ وإبرازَ نموذجٍ من كتب التصوُّف العليم النقي، الذي هو أعمالٌ وآدابٌ من فرائضِ الشرع المطهَّر ومندوباتِه...

ــ وإحياءَ ذكر الصالحين من علماء الأمّة، أمثال الإمام السهروردي، وعمِّه أبي النجيب، ومِنْ بعدِهم العلاّمةُ ابنُ سُمَيط...

---

(١) بلغَنـا وجود نسخـةٍ أخرىٰ لهـذا الكتاب عند بعض أهل العلـم، فسعينـا لتحصيلها، وطال الطلب والانتظـار، حتىٰ أُعلمنا أنها مجرَّد وريقات التقطها ناسخُها من «الدرر»، وأنّ قسماً منها ضائع! فأضربنا عنها.

فاللهمَّ ربَّنا تقبَّل منا، وانفع بما صَنَعْنا، وأَنِلْنا من ثوابِ ذلك النصيبَ الأوفر، واجعَلْ خطأنا مغموراً في بحر عفوك وفضلك، إنك سميعٌ مجيب.

هذا وقد كانت كتابةُ هذه الكلمةِ والتراجمِ قبلَها، في سُويعاتٍ عَجْلَىٰ قُبيلَ السفَر، بطلبٍ من الفاضل الساعي في نشر هذا الكتاب، فأسأله تعالىٰ أن يجعلَ ما فيها رشيداً، ويستُرَ ما طغىٰ به القلم، والحمدُ لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

عمّان في ١٨ من جمادىٰ الآخرة ١٤٢٧هـ
الموافق ١٤ (تمّوز) ٢٠٠٦م

وكتبه العبدُ الضعيف
إياد أحمد الغوج

كتاب الدر واللآلي النفيسة في اختصار
عوارف المعارف انتخاب سيدنا ومولانا
جمال الدين وبركة المسلمين جمال
الدين أحمد العيدروس محمد بن حسين
بن علوي [illegible]
نفعنا الله به وبعلومه
آمين يا رب
العالمين

صورة طرة الأصل المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم قال الشيخ الإمام العارف
الكامل العامل شهاب الدين أبو حفص عمر بن السهروردي
رحمه الله ونفع به في كتابه عوارف المعارف الحمد لله العظيم
شانه القوي سلطانه الظاهر احسانه الباهر حجته
وبرهانه فسبحان من عزت معرفته لولا تعريفه وتعذر
على العقول تحديده وتكييفه البس قلوب الصفوة من
عباده ملابس العرفان وخصهم من بين عباده بخصائص
الاحسان فصارت ضمائرهم من مواهب الانس مملوة
ومرايا قلوبهم بنور القدس مجلوة فتهيأت
لقبول الامداد القدسية فاستعدت لورود الانوار
العلوية واتخذت من الانفاس العطرية بالاذكار
جلاسا واقامت على الباطن والظاهر من التقوى حراسا
واشتعلت في ظلم البشرية من اليقين نبراسا واستحقرت
فوائد الدنيا ولذاتها وانكرت عوائد الهوى وتبعاتها
وامتطت غوارب الرغبوت واستفرشت بعلو همتها
بساط الملكوت وامتدت الى المعالي اعناقها وطمحت
الى النور اللامع العلوي احداقها واتخذت من الملإ
الاعلا مسامرا وسميرا ومجاورا ومن النور الاعز الاقصا
مزاورا ومحاورا اجسادا ارضية بقلوب سماوية
واشباح فرشية بارواح عرشية نفوسهم في منازل
الخدمة سيارة وارواحهم في فضا القرب طيارة

مزاهبهم

الصفحة الأولى من الأصل المخطوط

لوجهه الكريم ومقربا الى رضوانه انه هو الجواد الكريم ولا حول
ولا قوة الا بالله العلي العظيم وما توفيقي الا بالله عليه
توكلت واليه انيب قال سيدنا الحبيب عبدالله بن علوي الحداد
نفع الله به الطريق الى الله ظاهرها علم وباطنها فهم
وحاصلها اسرار وغايتها ذهاب في الله انتهى
تم الكتاب وكان الفراغ من نساخته عصر يوم الاثنين ٢٤
شهر رجب الله الاصب سنة ١٢٨٥ سنه والحمد لله الذي
بنعمته تتم الصالحات بقلم الفقير الى
مولاه محمد بن عبدالله بن ابوبكر بن
عمر بن محمد بايوسف غفر الله
له ولوالديه واحبابه
والمشائخ ولجميع
المسلمين
امين
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا والحمد لله رب العالمين

الصفحة الأخيرة من الأصل المخطوط

الدرر واللطائف

في اختصار

عوارف المعارف

للإمام شهاب الدين السهروردي

انتخاب واختصار

الإمام البارع العارف بالله

الحبيب محمد بن زين بن سميط باعلوي

(١١٠٨هـ - ١١٧٢هـ)

تحقيق وتعليق

حمد الله حافظ الصفتي

قرأه وقدم له

إياد أحمد الغوج



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[مقدِّمةُ المؤلِّفِ السُّهْرَوَرْديّ]

قالَ الشَّيخُ الإمامُ العارفُ الكاملُ العاملُ: شهابُ الدِّينِ أبو حفصٍ عمرُ ابنُ السُّهْرَوَرْدِيِّ ـ رحمهُ اللّهُ ونفعَ بهِ ـ في كتابِهِ «عَوَارِفِ المَعَارِفِ»:

الحمدُ للّهِ العظيمِ شانُه، القويِّ سلطانُه، الظَّاهرِ إحسانُه، الباهرِ حُجَّتُهُ وبرهانُه، فسبحانَ مَنْ عزَّتْ معرفتُه لولا تعريفُه، وتعذَّرَ علىٰ العقولِ تحديدُه وتكييفُه، أَلْبَسَ قلوبَ الصَّفْوةِ منْ عبادِهِ ملابسَ العِرفانِ، وخَصَّهمْ منْ بينِ عبادِهِ بخصائصِ الإحسانِ؛ فصارتْ ضَمائرُهمْ منْ مواهبِ الأُنسِ مَمْلُوَّةً، ومرايا[1] قلوبِهمْ بنورِ القُدسِ مَجْلُوَّةً؛ فتهيَّأَتْ لقَبولِ الأَمْدادِ القُدُسيَّةِ، فاستعدَّت لورودِ الأنوارِ العُلْويَّةِ، واتَّخذتْ منَ الأنفاسِ العَطِرةِ[2] بالأذكارِ جُلَّاساً، وأقامتْ علىٰ الباطنِ والظَّاهرِ منَ التَّقوىٰ حُرَّاساً، وأشْعَلَتْ في ظُلَمِ البشريَّةِ منَ اليقينِ نِبْراساً، واسْتَحْقَرَتْ فوائدَ الدُّنيا ولَذَّاتِها، وأنكرَتْ عوائدَ الهوىٰ وتَبِعاتِها، وامْتَطَتْ غَوارِبَ الرَّغَبُوت، واسْتَفْرَشَتْ ـ بِعُلوِّ هِمَّتِها ـ بِساطَ

---

(١) في أصل «عوارف المعارف»: (مرائي). قال في «مختار الصحاح» (رأى): والمِرْآة، بكسر الميم: التي يُنظَرُ فيها، وثلاث (مَرَاءٍ)، والكثيرُ (مَرَايا).

(٢) في الأصل: (العطرية)، والمثبت من «عوارف المعارف».

المَلَكوت، وامتدَّتْ إلىٰ المَعالي أعناقُها، وطمَحَتْ إلىٰ النُّورِ اللامِعِ العُلْويِّ أحْداقُها، واتَّخذَتْ من الملإِ الأعلىٰ مُسامِراً ومُحاوِراً، ومنَ النُّورِ الأعَزِّ الأقْصىٰ مُزاوِراً ومُجاوِراً. أجسادٌ أرضِيَّةٌ بِقلوبٍ سَماوِيَّة، وأشْباحٌ فَرْشِيَّةٌ[١] بأرْواحٍ عَرْشِيَّة، نُفوسُهمْ في منازلِ الخِدمَةِ سيَّارَة، وأرواحُهمْ في فَضاءِ القُرْبِ طيَّارَة [١/٢] مذاهِبُهُمْ في العُبوديَّةِ مَشْهورَة، وأعلامُهُمْ في أقْطارِ الأرضِ مَنْشورَة، يقولُ الجاهِلُ بهمْ: فُقِدوا، وما فُقِدوا؛ ولكنْ سَمَتْ أحوالُهُم فلَمْ يُدرَكوا، وعلا مَقامُهُم فلم يُمْلَكوا، كائنينَ بالجُثمان، بائِنينَ بقُلوبِهِم عنْ أوطانِ الحَدَثان، لأرواحِهِمْ حولَ العَرشِ تَطْواف، ولقلوبِهِمْ من خَزائِنِ السِّرِّ إسْعاف، يَتَنَعَّمونَ بالخِدمَةِ في الدَّياجِر، ويتلَذَّذونَ من وَهَجِ الطَّلَبِ بظَمَإِ الهَواجِر، تسلَّوْا بالصَّلَواتِ عنِ الشَّهَوات، وتَعوَّضوا بحَلاوةِ التِّلاوَةِ عنِ اللَّذَّات، يَلوحُ مِن صفَحاتِ وجوهِهِم بِشْرُ الوِجْدان، ويَنُمُّ عن مَكنونِ سَرائِرِهِم نَضارةُ العِرْفان، لا يَزالُ في كُلِّ زَمانٍ وعَصْرٍ مِنهمْ قائمونَ بالحَق، داعُونَ للخَلْق، مُنِحوا بحُسْنِ المُتابَعةِ رُتبةَ الدَّعوة، وجُعِلوا للمُتَّقينَ قُدْوة، فلا يَزالُ تَظْهَرُ في الخَلْقِ آثارُهُم، وتَزْهَرُ في الآفاقِ أنوارُهُم؛ مَنِ اقتدَىٰ بهِمُ اهتدَىٰ، ومَن أنكرَهُم ضَلَّ واعْتَدَىٰ.

فلَهُ الحمدُ علىٰ مَا هيَّأ للعبادِ مِن برَكَةِ خَواصِّ حضْرَتِهِ مِن أهْلِ الوِداد. والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ نبيِّهِ ورَسُولِهِ محَمَّدٍ وآلِه وصحْبِهِ الأكرَمينَ الأمْجاد.

قال: ومِمّا حضَرَني فيهِ منَ النِّيَّةِ ـ يعني: تصنيفَ الكتابِ ـ أنْ أُكثِّرَ سَوادَ القومِ بالاعتِزاءِ إلىٰ طريقَتِهِم، والإشارَةِ إلىٰ أحْوالِهِم. وقد وَرَدَ: «مَنْ كَثَّرَ سَوادَ قَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[٢].

---

(١) يعني: أرضية، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

(٢) أخرجه أبو يعلىٰ الموصلي في «مسنده»، وعليّ بن معبد في «كتاب الطاعة والمعصية»=

وأرجُو منَ اللّهِ الكريمِ صِحَّةَ [٢/ب] النِّيَّةِ فيه، وتَخْليصَها من شَوائبِ النَّفْس. وكُلُّ ما فَتَحَ اللّهُ عليَّ فيهِ فَتْحٌ منَ اللّهِ الكريمِ وعَوارِف، [وَ] مِنْ أجَلِّ المِنَحِ «عوارفُ المَعارِف». والكِتابُ يشْتمِلُ علىٰ نيِّفٍ وسِتِّينَ باباً، واللّهُ المُعين، وهُوَ الموَفِّقُ للصَّواب.

ثُمَّ إنَّ الشيخَ نفعَ اللّهُ بهِ تَرْجَمَ هذهِ الأبوابَ وسرَدَها عدداً، ثُمَّ قال[1]:

فهذهِ الأبوابُ تحرَّرَتْ بعونِ اللّهِ مُشْتَمِلَةً علىٰ بعضِ عُلومِهِم وأحْوالِهِم، ومَقاماتِهِم وأخْلاقِهِم، ودَقائقِ إشاراتِهِم، ولطِيفِ اصْطِلاحاتِهِم.

فعلومُهُم كلُّها إنْباءٌ عن وِجْدان، واعتِزاءٌ إلىٰ عِرْفان، وذَوْقٌ تَحقَّقَ بصِدْقِ الحال، ولمْ يَفِ باستيفاءِ كُنْهِها صَريحُ المَقال؛ لأنَّها مواهِبُ رَبّانِيَّة، ومَنائِحُ حَقّانيّة، اسْتَنْزَلَها صَفاءُ السَّرائر، وخُلوصُ الضَّمائر، واستَغْصَتْ بِكُنْهِها عنِ الإشارَة، وطَفَحتْ علىٰ العِبارَة، وتَهادَتْها الأرْواحُ بدِلالةِ البشارَةِ والائتِلاف، وكَرَعَتْ في حقائقِها مِن بَحْرِ الألْطاف، وقَدِ اندرَسَ كثيرٌ من دَقيقِ عُلومِهِم، كَما انْطمَسَ كثيرٌ مِن حَقائِقِ رُسومِهِم.

واللّهُ المَأمُول، أنْ يُقابِلَ جهْدَ المُقلِّ بحسنِ القَبول؛ إنَّهُ خيرُ مَسؤول، والسَّلام.

والحمدُ للّهِ ربِّ العالَمين.

* * *

= من حديث ابن مسعود مرفوعاً، وأخرجه ابن المبارك في «كتاب الزهد والرقائق» موقوفاً على أبي ذر. كما في «نصب الراية» للزيلعي (٤ : ٣٤٦).

(١) هذه العبارة من كلام المنتخب الإمام ابن سميط رحمه اللّه.

بابٌ
[في ذِكْرِ شيءٍ منَ البداياتِ والنِّهايات]

واعلَمْ أنَّ الشيخَ صاحبَ «العوارِف» ختَمَ كِتابَهُ ببابٍ ــ وهُوَ البابُ الثالثُ والسِّتون ــ: في ذكْرِ شيءٍ منَ البِداياتِ والنِّهايات؛ فرأيتُ أنْ أُقَدِّمَ حاصِلَ [٣/أ] ما ذَكَرَهُ فيهِ في أوَّلِ هـذهِ الأوْراقِ التـي [هِـيَ] مُنْتخَبَةٌ منَ الكِتابِ ومُلْتقَطةٌ مِنه، وهِيَ كالاختِصارِ لَه، معَ الحَذفِ مِنْه، ونَقْلَ المقصُودِ فيهِ مِن عُيونِ ما ذَكرَه، والغُرَرِ والجَواهِرِ مِمَّا حَرَّرَه، والدُّرَرِ منَ النُّكَتِ الغَريبَة، والمَنازِعِ العَجيبَة، مِن غيرِ ترتيبٍ ونِظام؛ بَل علىٰ حَسْبِ ما جَرَتْ بِهِ الأقْلام.

وجَعَلْتُ ما نَقَلْتُ فُصولاً يُعرَفُ بكلِّ فَصلٍ الجُملَةُ التي احْتَوىٰ عليها مِنَ العِلْم، وقَصدِي ــ إن شاءَ اللّه ــ حِفظُ الفَائِدةِ لنَفْسي ولِغيرِي، ولعلَّ الفُصولَ تَزيدُ علىٰ السَّبعينَ فَصْلاً، وخَاتِمةً نَخْتِمُ بها هَذا الالتِقَاط.

فصلٌ
[في النِّيَة]

قال رسولُ اللّه ﷺ: «إنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ، وإنَّما لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوىٰ، فَمَنْ كَانَتْ هِجرَتُهُ إلىٰ اللّهِ وَرَسُولِهِ؛ فَهِجْرَتُهُ إلىٰ اللّهِ وَرَسُولِهِ، ومَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلىٰ دُنْيا يُصِيبُها، وَامْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا؛ فَهِجْرَتُهُ إلىٰ مَا

هَاجَرَ إِلَيْهِ»[١].

النِّيَّةُ أَوَّلُ العَمَلِ، وبحَسْبِها يكونُ العَمل، وأهمُّ ما لِلمُريدِ ــ في ابتداءِ أمرِهِ في طريقِ القَوم ــ: أنْ تَدخُلَ طريقَ الصُّوفِيَّة، وتَتَزَيَّا بِزِيِّهم، وتُجالِسَ طائِفَتَهُم للّهِ تَعالىٰ؛ فإنَّ في دُخولِهِ في طَريقِهِم هِجْرةَ حَالِهِ وَوَقْتِه.

وقد وَرَدَ: «الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَىٰ اللّهُ عَنْهُ»[٢].

وقَال تَعالىٰ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ [٣/ ب] فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

فالمُريدُ يَنْبَغـي لهُ أنْ يَخـرُجُ إلىٰ طريـقِ القـومِ، [فإن وَصَـلَ] فقدْ لَحِقَ بالمَنْزِلِ، وإنْ أدرَكهُ الموتُ قَبْلَ الوصُولِ إلىٰ نِهاياتِ القَوْمِ فقدْ وَقَعَ أجرُهُ علىٰ اللّه، وكلُّ مَن كَانَتْ بِدايَـتُـهُ أَحْكَمَ؛ كانَتْ نِهايتُـهُ أَتَمّ.

قَال الجُنَيْد[٣]: أكثرُ العوائقِ والحَوائِلِ والمَوانِـعِ: من فَسادِ الابْتِداء.

---

(١) أخرجه البخاري في صدر «صحيحه»، وكذلك في مواطـن عديدة منه، منها: كتاب الإيمـان، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرىء ما نوىٰ (رقم ٥٤)، وأخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب الإمارة، باب: قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية» (رقم ١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»، كتاب الإيمان، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (رقم ١٠) من حديث عبد اللّه بن عمرو رضي اللّه عنهما.

(٣) الجنيد: الإمام الكبير الناطق بالحكمة، إمام الطائفتين (أهل الشريعة وأهل الحقيقة): أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز القواريري، ولد سنة ٢١٥هـ ببغداد، وأصله من نهاوند، كان تلميذاً للسرِيِّ السقطي وهو ابن أخته. إمامٌ مقبول على جميع الألسنة، وهـو من أئمة القوم وسادتهم، توفـي سنةَ ٢٩٧هـ. ترك عـدداً من الرسائـل طبعت قديماً، وأقواله منتشرة حتى لا يكاد يخلو منها كتاب، وترجمته مشهورة.
انظر: «طبقات الصوفية» للسلمي ص ١٥٥، «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠: ٢٥٥).

فالمريدُ في أوَّلِ سلُوكِهِ هذي الطَّريقَ يَحْتاجُ إلىٰ إحْكامِ النِّـيَّـةِ، وإحكَامُ النِّـيَّـةِ: تَنْزيهُها عن دَواعي الهَوىٰ وكلِّ ما كانَ للنَّـفْسِ فيهِ حظٌّ عاجِل، حتَّىٰ يكونَ خروجُهُ خالِصاً للّهِ تعالىٰ.

وكتَبَ سالمُ بنُ عبدِ اللّه بنِ عُمَرَ[١] إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيز[٢]: يا عُمَرُ، إنَّ عَوْنَ اللّهِ للعبدِ بقَدْرِ النِّـيَّـةِ، فمَن تَمَّتْ نِيَّـتُـهُ تَمَّ عَوْنُ اللّهِ لَه، ومَن قَصُرَتْ عَنْهُ نِيَّـتُـهُ قَصُرَ [عَنْهُ] عَوْنُ اللّهِ بقَدْرِ ذلك.

وكتَبَ بعضُ الصَّالحينَ إلىٰ أخِيه: أَخْلِصِ النِّـيَّـةَ للّهِ تعالىٰ في أعْمَالِك، يكْفِكَ قَليلٌ مِنَ العَمَل. ومَن لَمْ يَهتَدِ إلىٰ النِّـيَّـةِ بنَفْسِه؛ يَصْحَبُ مَن يُعَلِّمُهُ حُسْنَ النِّـيَّـة.

قَالَ سَهْـلُ بنُ عَبْدِ اللّهِ التُسْتَرِيُّ[٣] نفَعَ اللّهُ بـه: أوَّلُ ما يُؤمَـرُ بـهِ المُريدُ

---

(١) سالم بن عبد اللّه: بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي، أبو عبد اللّه، المدني، أحد الفقهاء السبعة، كان ثبتاً عدلاً فاضلاً، يشبه أباه في الهدي والسمت، مات في آخر سنة ست على الصحيح. انظر: «تقريب التهذيب» لابن حجر ص ٢٧٠.

(٢) عمر بن عبد العزيز: هو أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، الخليفة الأموي الملقَّب بخامس الخلفاء الراشدين لعدله وورعه وزهده، تولى الخلافة لإمارة المسلمين بعد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩هـ، ولم تطل مدة إقامته فيها، وتوفي رضي اللّه عنه سنة ١٠١هـ، روى الأحاديث الكثيرة، أخباره كثيرة في كتب التاريخ والسير. انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٥: ٢٥٣)، و«سير النبلاء» للذهبي (٥: ١١٤)، وغيرهما.

(٣) سهل بن عبد اللّه التستري: هو أبو محمد سهل بن عبد اللّه التستري، أحد أئمة الصوفية الكبار المشاهير، صاحب المؤلفات الصوفية الهامة والأقوال المشهورة، من مؤلفاته: «تفسيره للقرآن الكريم»، وكان صاحب كرامات، لقيَ ذا النون المصري بمكة سنة خروجه إلى الحج، وتوفي على المشهور سنة ٢٨٣هـ، وقيل: سنة ٢٩٣هـ، انظر ترجمته في: «طبقات الصوفية» للسلمي ص ٢٠٦، «حلية الأولياء» =

المُبتَدِئ: التَّبَرِّي مِنَ الحركاتِ المَذْمومَة، ثمّ التَّنقُّلُ إلىٰ الحركاتِ المحْمُودَة، ثمّ التَّفرُّدُ لأمرِ اللّهِ تَعالىٰ، ثمّ التَّوَقُّفُ في الرَّشاد، ثُمَّ الثَّباتُ [في النِّيَّات][1]، ثمّ البَيان، ثمّ القُرْب، ثُم المُناجَاة، ثمّ المُصَافَاة، ثمّ المُوالاة، ويكونُ الرِّضا والتَّسْليمُ مُرادَه، والتَّفويضُ [٤/أ] والتوَكُّلُ حَالَه، ثمّ يَمُنُّ اللّه عليهِ بعدَ هذهِ بالمَعْرِفَة؛ فيكونُ مقامُهُ عندَ اللّهِ مقامَ المُتَبَرِّينَ منَ الحَوْلِ والقُوَّة، وهذا مقامُ حَمَلَةِ العَرْشِ، وليسَ بعدَهُ مَقام. هَذا مِن كَلامِ سَهْل، جمَعَ فيهِ ما في البِدايَةِ والنِّهايَة.

ومتىٰ تَمسَّكَ المُريدُ بالصِّدقِ والإخلاص بلَغَ مَبلَغَ الرِّجال، ولا يُحَقِّقُ صِدقَه وإخلاصَه كتَبَيُّنِ مُتابعةِ أمرِ الشَّرْع، وقَطْعِ النَّظَرِ عنِ الخَلْق؛ فكلُّ الآفاتِ التي دخَلَتْ علىٰ أهلِ البِداياتِ لِمَوْضعِ نظَرِهم إلىٰ الخَلْق.

وبَلَغَنا أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ حَدَّثَ أنَّهُ: «لاَ يَكْمُلُ إِيمَانُ الْمَرْءِ حَتَّىٰ يَكُونَ النَّاسُ عِنْدَهُ كَالأَبَاعِرِ»[2]، إشارةً إلىٰ قطعِ النَّظرِ عنِ الخَلْق، والخروجِ منهُم، وتَرْكِ التَّقَيُّدِ بعاداتِهِم.

وقَالَ أحمدُ بنُ خِضْرَوَيْهِ[3] رحمهُ اللّهُ تعالىٰ: مَن أحَبَّ أن يكونَ اللّهُ معَهُ

= لأبي نعيم (١٠ : ١٨٩) وغيرهما.

(١) زيادة من المخطوط ليست في «العوارف»!

(٢) قال أبو الفيض الغماري: «غريب جداً، وبعيدٌ أن يكون مرفوعاً من كلام النبي ﷺ، وفي معناه قول أبي الدرداء: لن تفقه كل الفقه حتى تمقُتَ الناس في ذات اللّه، ثم تقبل على نفسك فتكون لها أشد مقتاً. [أخرجه أبو نعيم في «الحلية»، ترجمة أبي الدرداء ١ : ٢١١]، وهو عند عبد الرزاق في «المصنف» (رقم ٢٠٤٧٣). انتهىٰ.

(٣) أحمد بن خضرويه: أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخي، كان من أكابر مشايخ خراسان، صحب أبا تراب النخشبي، وحاتماً الأصم، ورحل إلى أبي يزيد، وزار أبا حفص الحداد، وهو من المشهورين بالفتوة، توفي رضيَ اللّه عنه سنة أربعين =

علىٰ كلِّ حال: فَلْيَلْزَم الصِّدق؛ فإنَّ اللّهَ تعالىٰ مَعَ الصادقين.

وفي الحَديث: «الصِّدْقُ يَهْدِي إِلىٰ الْبِرِّ»[١].

ولا بُدَّ لِلمُريدِ منَ الخروجِ منَ المالِ والجَاه، والخروجِ منَ الخَلْقِ: بقَطْعِ النَّظرِ إليهم، إلىٰ أن يَتحكَّمَ أساسُه، فيَعْلَمَ دَقائِقَ الهَوىٰ وخَفايا شَهَواتِ النَّفْس؛ فأنْفَعُ شيءٍ للمُريدِ: معرفةُ النَّفْس، ولا يقـومُ بواجِـبِ حقِّ مَعْرفَةِ النَّفْسِ مَنْ لهُ في الدُّنيا حاجَةٌ مِن طَلَبِ الفُضول، أَوْ غَلَبَهُ الهَوىٰ بِنَفْسِه.

قالَ زَيدُ بنُ أَسْلَمَ[٢]: خَصْلتانِ هُما كمالُ أمْرِك: تُصْبِحُ لا تَهُمُّ بِمَعْصِيةِ للّه، [٤/ب] وتُمْسي لا تَهُمُّ للّه بِمعصِيَة.

فإذا أحكَمَ الزُّهدَ والتَّقْوىٰ انكشَفَتْ لهُ النَّفْس، وخرَجَتْ مِن حُجُبِها، وعَلِمَ طريـقَ حرَكاتِها، وخَفِيَّ شَهَواتِها، ودَسائِسَها وتَلبيساتِها. ومَن تمسَّكَ بالصِّدقِ فقَد تَمسَّكَ بالعُروةِ الوُثْقىٰ.

قـالَ ذو النُّون[٣]: للّهِ في أرضِهِ سَيفٌ ما وُضِعَ علىٰ شـيءٍ إلا قَطَعَه؛

= ومئتين. انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني (١ : ١٨٤) وغيرها.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»، كتاب الأدب، باب: قول اللّه تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، وما ينهىٰ عن الكذب (رقم ٦٠٩٤)، ومسلم في «الصحيح»، كتاب البر والصلة والآداب، باب: قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (رقم ٢٦٠٧)، من حديث عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه.

(٢) زيد بن أسلم: العدوي، مولىٰ عمر بن الخطاب، أبو عبد اللّه المدني، ثقة عالم، مات سنة ستٍّ وثلاثين. انظر: «تقريب التهذيب» لابن حجر ص ٢٦٥.

(٣) ذو النون المصري: هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الإخميصي المصري، ذو النون (ت ٢٤٥هـ)، من كبار الصوفية الذين أسسوا علم التصوف وأطلقوا عليه هذا الاسم. كان يقول: إياكَ أن تكون بالمعرفة مدّعياً، أو تكون بالزهد محترِفاً، أو تكون بالعبادة متعلِّقاً. وسُئل: ما أخفىٰ الحجاب وأشدُّه؟ فقال: رؤية النفس وتدبيرها.

وهُوَ الصِّدق.

ورُوِيَ أنَّ إبليسَ يَقُول: ليسَ لي سُلْطانٌ علىٰ مَن خالَفَ هَواه، وبذَلَ نفْسَهُ للّهِ تعالىٰ.

ويَنبغِي للمُريدِ أنْ يكونَ لهُ في كلِّ شيءٍ نِيَّـةٌ للّهِ عزَّ وجَلَّ؛ حتَّىٰ في أكْلِهِ وشُرْبِهِ ومَلْبوسِه: فلا يَلبَسُ إلا للّه، ولا يأكُلُ إلا للّه، ولا يَشْرَبُ إلا للّه، ولا يَنـامُ إلا للّه؛ لأنَّ هـذهِ أرْفـاقٌ أدخَلَهـا اللّهُ علىٰ النَّـفْـس، فَإذا كانَـت للّهِ لا تَسْتَعْصي النَّـفْسُ، وتُجيبُ إلىٰ ما يُرادُ مِنها: إلى المُعامَلَةِ والإخْلاص، فإذا دَخَلَ في شيءٍ مِن رِفْقِ النَّـفْسِ لا للّه، ولا لِنِيَّـةٍ صالِحَة، صارَ ذلكَ وَبالاً علَيْه.

وقد وَرَدَ في الخبَر: «مَنْ [تَطَيَّبَ للّهِ تَعَالىٰ] جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وريحُهُ أَطْيَبُ مِن ريح المِسْكِ الأذْفَرِ[1]، وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيْرِ اللّهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَـةِ وريحُهُ أَنْـتَنُ مِنَ الجِيْفَةِ»[2].

وقَد كانُوا يُحسِنونَ اللِّباسَ، مُتقَرِّبينَ بذلكَ إلىٰ اللّهِ تَعالىٰ بِنِيَّتِهِم.

فالمريدُ يَنبغي أنْ يتفَقَّدَ جميعَ أحوالِهِ وأقوَالِهِ وأفْعَالِه، ولا يُسامِحُ نَفْسَهُ أنْ يَتحرَّكَ بحرَكةٍ أو يتكلَّمَ بكَلِمَةٍ إلا للّهِ تعالىٰ. ولا يَنفَعُ القَولُ إذا لَمْ تكُنِ

= تُنظَر ترجمته في: «طبقات الصوفية» للسلمي ص ١٥، «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٩ : ٣٣١).

(١) الأذفر: صفة، يقال: ذَفِرَ الشيءُ ذَفَراً: اشتدت رائحته، طيبةً كانت كالمسك، أو خبيثةً كالصنان، فهو: أذفر وهي: ذَفْراء.

(٢) رواه أبو الوليد الصفّار في «كتاب الصلاة» من حديث أبي طلحة مرسلاً، كما في «تخريج أحاديث الإحياء» للعراقي (٤ : ٣٥٣)، وهو عند عبد الرزاق في «المصنف» (رقم ٧٩٣٣) من حديث أبي طلحة مرسلاً أيضاً. وقد جاء في حديث عن أنس رضي اللّه عنه النهي عن التطيب لغير الزوج، كما في «مجمع الزوائد» (٥ : ١٧٢).

النِّيَّةُ في القَلْب؛ لأنَّ النِّيَّةَ: عَمَلُ القَلْب، وإنَّما اللِّسانُ تَرْجُمان، فَمَهْما لَم تَشْتَمِلْ علَيْها [٥/أ] عَزِيمَةُ القَلْبِ للّهِ لا تكونُ نِيَّة.

وكلُّ مُرِيدٍ لا يُحكِمُ أساسَ بِدايَتِهِ بمُهاجَرةِ الأُلّافِ[(١)] والأصْدِقاءِ والمَعارِفِ، و[لا][(٢)] يَتمسَّكُ بالوِحدَةِ، لا تَستَقِرُّ بِدايتُه. وقَد قِيل: مِن قِلَّةِ الصِّدقِ: كثرةُ الخُلَطاء، وأنفَعُ ما لَهُ: لزومُ الصَّمت، وأنْ لا يَطرُقَ سمْعَهُ كلامُ النَّاس؛ فإنَّ باطِنَهُ يَتغيَّرُ ويتأثَّرُ بالأقْوالِ المُختلِفَة، وكلُّ مَن لا يُعلِّمُ كمالُ زُهدِهِ في الدُّنيا وتَمَسُّكِه بِحَقائِقِ التَّقوىٰ لا يَقْبَلُهُ أبداً؛ فإنَّ معرِفتَهُ لَهُ لا تُنْتِجُ لَهُ خَيْراً.

وبَواطِنُ أهلِ الابتِداءِ كالشَّمعِ: يَقبَلُ كلَّ نَقْشٍ، ورُبَّما اسْتَضَرَّ المُبتدِئُ بمُجرَّدِ النَّظرِ إلىٰ النَّاس، ويَستَضِرُّ بِفُضولِ النَّظرِ أيضاً وفضُولِ المَشي، ويقفُ مِنَ الأشياءِ كلِّها علىٰ الضَّرُورَة؛ فينظُرُ ضَرورةً، حتىٰ لو مَشىٰ في بعضِ الطريقِ يجتهِدُ أن يكونَ نظرُهُ إلىٰ الطريقِ الذي يسلُكُهُ [لا يلتفتُ يُمنةً ويَسْرَةً، ثُمَّ يَتَّقِي موضعَ نظرِ][(٣)] الناسِ وإحساسَهُم منه بالرِّعايَةِ والاحتِراز؛ فإنَّ عِلْمَ النـاسِ فيهِ بذلكَ أضَرُّ عليهِ مِن فِعْلِه، ولا يَسْتحْقِرُ فُضولَ المَشي؛ فإنَّ كلَّ شيءٍ: مِن قَولٍ أو فعلٍ ونظرٍ وسماعٍ خرَجَ عن حَدِّ الضرُورةِ، جَرَّ إلىٰ الفُضول، ثمَّ يَجُرُّ إلىٰ تَضييعِ الأُصول.

قالَ سُفيانُ[(٤)]: إنَّما حُرِموا الوُصولَ بتَضييعِ الأُصول.

---

(١) جمع (إلْف)، أي: صاحب.

(٢) زيادة اقتضاها السياق.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من المخطوط، واستدركناه من «عوارف المعارف» ليتسق المعنى.

(٤) سفيان الثوري: الإمام القدوة، أمير المؤمنين في الحديث، شيخ الإسلام، هو سفيان =

فكلُّ مَن لا يتمَسَّكُ بالضرُورةِ في القَولِ والفِعلِ والعمَلِ، لا يَقدِرُ أن يَقِفَ علىٰ قَدْرِ الحاجةِ منَ الطعامِ والشرابِ والنَّوم، ومتىٰ تَعدَّىٰ الضرورةَ تَداعَتْ عَزائمُ قَلبِه، وانحَلَّتْ شيئاً شَيئاً.

وقَد قالَ سَهلٌ رحمَهُ اللّه: مَن لَمْ يَعبُدِ اللّهَ اختياراً، عَبَدَ الخَلْقَ اضطِراراً.

وتَنفتِحُ علىٰ العبدِ أبوابُ [٥/ب] الرُّخَصِ والاتِّساع، ويَهلِكُ معَ الهالِكين.

ولا ينبَغي للمُريدِ أن يعرفَ أحداً مِن أربابِ الدُّنيا، فإنَّ معرفتَهُ لَهُمْ سُمٌّ قاتِل، ووَرَدَ: «الدُّنيَا مَبْغُوضَةُ اللّهِ، مَنْ تَمَسَّكَ بِحَبْلٍ مِنْهَا قَادَتْهُ إلىٰ النَّارِ»(١).

وما حَبْلٌ مِن حِبالِها كأبنائها والطَّالِبينَ لها! فمَن عَرَفَهُمُ انجَذَبَ إليها شاءَ أمْ أبىٰ.

ويحْتَرِزُ المُبتدِىءُ مِن مُجالَسةِ الفُقراءِ الذينَ لا يَقولونَ بقيامِ اللَّيلِ وصِيامِ النَّهار؛ فإنَّهُ يدخُلُ عليهِ ــ منهُمْ ــ أشَرُّ مِمَّا يدخُلُ عليهِ مِن مُجالَسةِ أبناءِ الدُّنيا، ورُبَّما يُشيرونَ إلىٰ أنَّ الأعمالَ شُغْلُ المُتعبِّد، وأنَّ أربابَ الأحوالِ ارتَقَوْا عن ذلِك، ويَنبغي للفقيرِ أن يقتَصِرَ علىٰ الفرائِضِ وصوْمِ رمَضان فحَسْب! لا ينبغي أنْ يَدخُلَ هذا الكلامُ سَمْعَهُ رأساً؛ فإنَّا جرَّبْنا ومارَسْنا الأمُورَ كلَّها، وجالَسْنا الفُقَراءَ والصَّالِحين، ورأينا أنَّ الذينَ يقولونَ هذا القَول، ويَرَوْنَ الفرائِضَ دونَ

= ابن سعيد بن مسروق، الثوري، أبو عبد اللّه، الكوفي، قال عنه عبد الرحمن بن مهدي: ما رأت عيناي أحفظَ للحديث من الثوري. قيل: إنه توفي بالبصرة سنة ١٦١هـ.

انظر ترجمته في: «تهذيب الكمال» للمزي (٧: ٣٥٣) ترجمة رقم (٢٣٨٩)، «حلية الأولياء» (٦: ٣٥٦)، (٧: ٣ــ١٤٣).

(١) قال أبو الفيض الغماري: «لم أجده» يعني بهذا اللفظ، والأحاديث في معناه كثيرة مشهورة، راجع: «إتحاف السادة المتقين» (٨: ١٤٦).

النَّوافِلِ والزِّيادات: تحتَ القُصور، معَ كونِهم أصِحَّاءَ في أحوالِهِم. فعلىٰ العبدِ التَّمسُّكُ بكلِّ فريضةٍ وفَضِيلَةٍ؛ فبذلكَ يَثبُتُ قدمُهُ في بِدايتِهِ، ويُراعي يومَ الجُمُعةِ خاصَّةً، ويجعَلُهُ للّهِ خالِصاً لا يَمزُجُهُ بشيءٍ من أحوالِ نفسِهِ ومآربِها، ويُبكِّرُ إلىٰ الجامعِ قبلَ طلوعِ الشَّمسِ بعدَ الغُسْلِ للجُمُعَةِ، وإنِ اغتَسلَ قريباً مِن وَقتِ الصَّلاةِ ـ إذا أمْكَنَهُ ذلكَ ـ فَحَسَنٌ، ويَهُمُّ بالصَّلاةِ والتضرُّعِ والدُّعاءِ والتِّلاوَةِ وأنواعِ الأذكارِ مِن غيرِ فُتورٍ إلىٰ أن يُصَلِّيَ الجُمُعَةَ، ويَجلسُ مُعتكِفاً في الجامِعِ إلىٰ أن يُصَلِّيَ الفَرضَ [٦/أ] مِن صَلاةِ العَصْرِ، وبَقِيَّةُ النَّهارِ يَشْغَلُهُ بالتَّسبيحِ والاستغفارِ والصَّلاةِ علىٰ النبيِّ ﷺ؛ فإنَّهُ يجدُ بركَةَ ذلكَ في أسبُوعِهِ.

وقد كانَ منَ الصَّالحينَ مَن يَضبِطُ أحوالَهُ وأقوالَهُ وأفعالَهُ في جميعِ الأسبُوعِ؛ حتَّىٰ يَجِدَ ثمرةَ ذلكَ يومَ الجُمُعَةِ؛ لأنَّهُ يومُ المزيدِ لِكُلِّ صادِقٍ، ويكونُ ما يَجِدُهُ يومَ الجُمُعَةِ مِحَكًّا يَعتبِرُ بِهِ سائرَ الأسبوعِ الذي مَضىٰ؛ فإنَّهُ إذا كانَ الأسبوعُ سليماً يكونُ الجُمُعَةُ فيهِ مزيدُ الأنوارِ والبركَات، وما يَجِدُ يومَ الجُمُعَةِ: مِن ظُلْمةٍ وسآمَةِ النَّفْسِ وقِلَّةِ الانشِراحِ؛ فَلِما ضَيَّعَ في الأسبُوعِ، يَعرِفُ ذلكَ ويعتبِرُه.

ولا بُدَّ للمُبتدىءِ أن يكونَ لَهُ حظٌّ مِن تلاوةِ القُرآنِ، ومِن حِفْظِه، ولا يُصْغِ إلىٰ قَولِ مَن يَقول: مُلازَمةُ ذكرٍ واحدٍ أفضَلُ مِن تِلاوةِ القُرآنِ؛ لأنه يَجِدُ بالقُرآنِ وتِلاوتِهِ، في الصَّلاةِ وغيرِ الصَّلاةِ، جميعَ ما يتَمَنَّاهُ بتوفيقِ اللّهِ عزَّ وجَلَّ. وإنَّما اختارُوا أن يُديمَ ذِكْراً واحداً لِيَجتَمِعَ الهَمّ.

ومَن لازَمَ التِّلاوةَ في الخَلْوَةِ، وتَمسَّكَ بالوِحدَةِ؛ تُفيدُهُ التِّلاوةُ والصَّلاةُ أوفىٰ ما يُفيدُهُ الذِّكر، فإذا سَئِمَ في بعضِ الأحايينِ صانَعَ النفسَ علىٰ الذكرِ مُصَانَعةً، ونَزَلَ مِنَ التِّلاوةِ إلىٰ الذِّكر؛ فإنَّه أخَفُّ علىٰ النَّفْس.

ويَنبغي أن يَعلَمَ الاعتِبارَ بالقَلْب؛ فكلُّ عمَلٍ: مِن تِلاوةٍ وصَلاةٍ وذِكْرٍ لا

يُجْمَعُ فيه بينَ القَلْبِ واللِّسانِ، لا يُعتَدُّ بِهِ كلَّ الاعتِداد؛ فإنَّهُ عمَلٌ ناقِص.

ولا يَحْقِرُ الوَساوِسَ وحديثَ النَّفْس؛ فإنَّـهُ مُضِرٌّ ودَاءٌ عُضَال، بَل يَنبغي أن يُطالِبَ نَفْسَهُ أن يَصيرَ ـ في تلاوتِهِ ـ معنىٰ[1] القُرآنِ مكانَ حديثِ النَّفس مِن باطِنِه، كَما أنَّ التِّلاوةَ [٦/ب] علىٰ اللِّسانِ هو مشغُولٌ بها لا يَمزُجُها بكلامٍ آخَرَ. هكَذا يكونُ مَعنىٰ القُرآنِ في القَلبِ لا يَمْزُجُهُ حديثُ النَّفس.

وإن كانَ أعْجَمِياً لا يَعلَمُ معنىٰ القُرآنِ يكونُ المُراقَبةُ حِلْيَـةَ باطِنه، فيُشْغِلُ باطِنَهُ بمُطالَعةِ نظَرِ اللّهِ إليهِ مكانَ حديثِ النَّفْس؛ فإنَّ بالدَّوامِ علىٰ ذلكَ يصيرُ مِن أربابِ المُشاهدَة.

قالَ مالِك[2]: قلوبُ الصِّدِّيقينَ إذا سمِعَتِ القُرآنَ طرِبَتْ إلىٰ الآخِرة.

فلْيتمَسَّكِ المُريدُ بهذهِ الأصُول، ولْيَسْتَعِنْ بدوامِ الافتقارِ إلىٰ اللّهِ تَعالىٰ؛ فبذلكَ ثباتُ قَدَمِه.

قالَ سَهْل: علىٰ قَدْرِ لزومِ الالتجاءِ والافتقارِ يُعْرَفُ البَلاء، وعلىٰ قَدْرِ مَعرفَتِهِ بالبلاءِ يكونُ افتقارُهُ إلىٰ اللّهِ عزَّ وجَلّ.

فدوامُ افتقارِهِ إلىٰ اللّهِ: أصْلُ كلِّ خَيْر، ومِفتاحُ كلِّ عِلْم دقيقٍ في طريقِ القَوم، وهَذا الافتقارُ معَ الأنفاس: لا يتشَبَّثُ بِحرَكَة، ولا يَسْتَقِلُّ بكَلِمَةٍ دُونَ اللّهِ ودُونَ الافتقـارِ إلىٰ اللّهِ فيها، وكلُّ كَلمـةٍ وحركـةٍ خَلَـتْ عن مُراجعةِ اللّهِ

---

(١) اسم (يصير).

(٢) مالك: ابن أنس: الإمام صاحبُ المذهب، أحدُ المجتهدين (٩٣ ـ ١٧٩هـ). أخذ عن ثلاثمئة من التابعين، وكان إذا جلس للحديث تبخّر وتطيّب، ومنعَ الناس من رفع الصوت، وكان إذا دخل بيته لم يكن له شاغلٌ إلا المصحف. وفاته بالمدينة ودفن بالبقيع. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١ : ١٢٨).

والافتقارِ فيها لا تُعَقِّبُ خيراً قَطْعاً، عَلِمْنا ذلكَ وتَحَقَّقْناه.

وقالَ سَهْل: مَنِ انتقَلَ مِن نَفَسَ إلىٰ نَفَس، مِن غيرِ ذكْرٍ، فقَد ضيَّعَ حَالَه، وأدنىٰ ما يَدخُلُ علىٰ مَن ضيَّعَ حَالَهُ: دُخولُهُ فيما لا يَعنيهِ، وتَرْكُهُ ما يَعنِيه. فبالصِّدقِ نالُوا ما نالُوا، وبقوَّةِ العزائِم: عزائمِ الرِّجالِ، بَلغُوا ما بلَغُوا.

قالَ الجُنَيْد: لو أقبَلَ صادقٌ علىٰ اللّهِ ألفَ سنةٍ ثمَّ أعرَضَ عنهُ لحظةً، لكانَ ما فَاتهُ مِنَ اللّهِ أكثرَ مِمَّا نالَه.

وهذهِ الجُملةُ يحتاجُ المبتدىءُ أنْ [٧/أ] يُحكِمَها، والمُنتَهِي عالِمٌ بِها عامِلٌ بحقَائِقِها.

قالَ أبو سعيدٍ القُرَشِيُّ[١]: الصادقُ: الذي ظاهِرُهُ مُستَقِيم، وباطِنهُ يَميلُ أحيَاناً إلىٰ حَظِّ النَّفْس، وعلامَتُهُ: أن يَجدَ الحَلاوةَ في بعضِ الطَّاعاتِ ولا يَجدَ في بَعض، وإذا اشتَغَلَ بالذِّكرِ نَوَّرَ الرُّوح، وإذا اشتَغَلَ بحظوظِ النَّفْس يَنْحَجِبُ عَنِ الأذكَار، والصدِّيقُ: [الذي استَقَامَ] ظاهِرُهُ وباطِنُه، يعبُدُ اللّهَ بتلوينِ الأحْوال، لا يَحْجُبُهُ عن اللّهِ ولا عن الأذكارِ أكلٌ ولا نَومٌ ولا شُربٌ ولا طَعام، والصدِّيقُ يريدُ نفْسَهُ للّهِ تعالىٰ، وأقرَبُ الأحوالِ إلىٰ النُّبُوَّةِ: الصِّدِّيقِيَّة.

قالَ أبو يَزيد[٢]: آخِرُ نهاياتِ الصدِّيقينَ أوَّلُ دَرَجاتِ الأنبياء.

واعلَمْ أنَّ أربابَ النِّهاياتِ استقامَتْ بَواطِنُهُم وظَواهِرُهُم للّه، وأرْواحُهُم

---

(١) أبو سعيد القرشي: لم أقف علىٰ ترجمته فيما بين يدي من المصادر.

(٢) أبو يزيد البسطامي: طيفور بن عيسىٰ رضي اللّه عنه، أحد أكابر الأولياء، كان يقول: السنة ترك الدنيا بأسرها، والفريضة صحبة اللّه عز وجل، وكان يقول: اختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد، توفي سنة إحدىٰ وستين ومئتين. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١ : ١٧٤).

خَلَصَت عَن ظُلْمَةِ النُّفوس، وَوَطِئَتْ بِسَاطَ القُرْب، ونفوسُهُم مُنْقَادَةٌ مِطْوَاعةٌ مُصَالِحَةٌ معَ القُلوب، مُجيبةٌ إلىٰ كلِّ ما تُجيبُ إليهِ القُلوب؛ فأرواحُهُم مُتعلِّقةٌ بالمَقامِ الأعلىٰ، انطَفأَتْ فيهِم نِيرانُ الهَوىٰ، وتَخَمَّرَ في بَواطِنِهم صَريحُ العِلم، وانكشَفَتْ لهُمُ الآخِرَةُ، كما قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ في حَقِّ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضيَ اللّهُ عَنه: «مَنْ أرَادَ أنْ يَنْظُرَ إلىٰ ميِّتٍ يَمْشِي عَلىٰ الأرْضِ فَلْيَنْظُرْ إلىٰ أبي بَكْرٍ»[1]، إشارةً إلىٰ ما كُوشِفَ بِهِ من صَريحِ العلمِ الذِي لا يَصِلُ إليهِ عوامُّ المُؤمنينَ [إلَّا] بعدَ المَوت؛ حيثُ يُقال: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

فأربابُ النِّهاياتِ ماتَتْ أَهْوِيَتُهُم، وخَلَصَتْ أرواحُهُم، [٧/ب] [وهم] عِندَ اللّهِ بحقيقَتِهِم، مُعوَّقينَ بتوقيتِ الأجَل، جَعَلَهُم مِن جنودِهِ في خَلْقِه، بِهِمْ يَهدِي، [وَ] بِهِم يُرشِد، وبِهِمْ يَجْذِبُ أهلَ الإرادةَ. كلامُهُم دَواء، ونَظَرُهُم دَواء، ظاهِرُهُم محفوظٌ بالحُكْم، وباطِنُهُم معمورٌ بالعِلْم، كلَّما ازدادُوا نِعمةً ازدَادُوا عُبُوديَّة، وكلَّما ازدادُوا دِيناً ازدادُوا قُرْباً، وكلَّما ازدادُوا جاهاً ورِفْعةً[2] ازدادُوا تواضُعاً وذِلَّة، وكلَّما تناوَلُوا شهوةً مِن شَهَواتِ النُّفوس استخرَجَتْ منهُم شكراً صافِياً، يتَناولُونَ الشَّهَواتِ تارَةً رِفْقاً بالنُّفوس؛ لأنَّها معَهُم كالطِّفلِ الذِي يُلاطَفُ بالشَّيء، ويُهدَىٰ لهُ الشَّيءُ؛ لأنَّه مقهورٌ تحتَ السِّياسَة، مَرحومٌ بِه، مَلْطُوفٌ بِه، وتارَةً يَمنَعونَ نُفوسَهُم تأَسِّياً بالأنبياءِ واختيارِهِمُ التَّقَلُّلَ مِنَ

---

(١) المعروف: «من أراد أن ينظر إلى عتيق من النار؛ فلينظر إلى أبي بكر»، أخرجه أبو يعلى في «المسند» (رقم ٤٨٩٩)، والطبراني في «الكبير» (رقم ١٩)، والحاكم في «المستدرك» من حديث عائشة (٣: ٦١) وقال: صحيح الإسناد، وتعقبه الذهبي بأن في سنده صالحَ بن موسى الطلحي ضعفوه، قال: والسند مظلم.

(٢) زاد في المخطوط بعد هذه الكلمة: (ورفعاً)، وليست في «العوارف»، ولا وجه لها.

الشَّهَـواتِ الدُّنيويَّـة. واعلَمْ أنَّ المُنتَهيَ معَ كمـالِ حالِـهِ لا يَستغنـي أيضاً عَن سياسَةِ النَّـفْسِ ومَنعِها الشَّهَوات، وأخْذِ الحَظِّ مِن زيادَةِ الصِّيامِ والقِيامِ وأنواعِ البِر.

ومَن تَخلَّـصَ مِن نورُ الحالِ إلىٰ نُـورِ الحَقِّ يَذهَـبُ عنْهُ بَقايـا السُّكْر، ويُوقِـفُ نَفْسهُ مَقـامَ العبيد، كآحادِ عَوامِّ المُؤمنينَ: يَتقَرَّبُ بالصَّـلاةِ والصَّومِ وأنواعِ البِرِّ، حتىٰ بإماطَةِ الأذَىٰ عَن الطَّريق، ولا يَسْتَنكِفُ أنْ يَعُودَ في صُوَرِ عَوامِّ المؤمِنينَ: مِن إظهارِ الإرادَةِ بكُلِّ بِرٍّ وَصِلَةٍ؛ فيتناوَلُ الشَّهواتِ وَقْتاً؛ رِفقاً بالنَّـفْسِ المُطَهَّرةِ المُزكَّـاةِ المُنْقَادَةِ المِطْواعَـة؛ لأنَّهـا أسِيرتُه، [١/٨] ويَمنَعُها الشَّهَواتِ وقتاً؛ لأنَّ في ذلكَ صَلاحَها، واعتَبِرْ هذا سواءً بحالِ الصَّبِيِّ، فإنَّـهُ إنْ جاوزَ حَدَّ الاعتِدالِ ــ من إعطاءِ المُرادِ وقتاً ومَنْعِهِ وقتاً ــ انفَسَدَ طَبعُه؛ لأنَّ الجِبِلَّةَ لا بُدَّ مِن قَمْعِها بِسياسَةِ العِلْم، وما دَامَتِ الجِبِلَّةُ باقِيةً لا بُدَّ مِن سياسةِ العِلْم.

فصلٌ

[في مَنْشَأ عُلومِ الصُّوفية]

قـالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إنَّما مَثَلـي ومَثَلُ ما بَعَثَنِي اللّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتىٰ قَوْماً، فَقَالَ: يا قَوْم، إنِّي رَأيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنِي، فَأنا النَّـذِيرُ العُرْيَانُ، فَالنَّجاءَ النَّجاءَ؛ فَأطاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأدْلَجُوا[١]، فَانْطَلَقُوا عَلىٰ مَهْلِهِمْ فَـنَجَوْا»[٢].

---

(١) الإدلاج: السير في الليـل كما هو معروف، وفي الحديث: «عليكم بالدُّلْجة، فإن الأرض تُطوىٰ بالليل».

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»، كتاب الرقـاق، باب: الانتهاء عن المعاصي (رقم ٦٤٨٢)، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسنن رسول اللّه ﷺ (رقم ٧٢٨٣)، ومسلم في «الصحيح»، كتاب الفضائل، باب: شفقته ﷺ على أمته =

أعدَّ اللَّهُ لقَبولِ ما جاءَ بِهِ رسولُ اللّهِ ﷺ أَصْفىٰ القُلوب، وأزكَىٰ النُّفوس، وظهَرَ تفـاوتُ الصَّفـاءِ والتَّزكِيَةِ في تفاوُتِ الفائِـدَةِ والنَّـفْع، فنفُوسُ العُلماءِ الزَّاهدينَ منَ الصُّوفيَّـةِ والشُّيوخِ تَزَكَّت، وقُلوبُهُم صَفَت، واختَصَّتْ بمزيدِ الفائدَة؛ فصارُوا إخَاذَات[1].

قالَ مَسرُوق[2]: صَحِبتُ أصحابَ رسُولِ اللّهِ ﷺ فوَجَدْتُهُم كالإخَاذَات، لأنَّ قلوبَهُم كانَت واعِيَة، فصارَتْ أوعِيَةَ العُلومِ بما رُزِقَتْ مِن صَفاءِ الفُهوم. حتَّىٰ نزَلَ قولُه تعالىٰ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢].

قالَ رسـولُ اللّهِ ﷺ لعلـيٍّ كرَّمَ اللّهُ وجْهَه: «سَأَلْتُ اللّهَ أَنْ يَجْعَلَهَا أُذُنَكَ يَا عَلِيُّ»[3]. قال عليٌّ رضيَ اللّهُ عنـه: فَمَـا نَسِيتُ شَيْئاً[٨/ب] وَمَا كَانَ لي أَنْ أَنسىٰ.

قالَ الوَاسِطِيُّ[4]: (آذانٌ) وَعَتْ عَنِ اللّهِ أَسْرارَهُ.

= ومبالغتـه في تحـذيرهم مما يضـرهم (رقم ٢٢٨٣) من حـديث أبي موسى الأشعـري رضي اللّه عنه.

(١) أي: أوعيةً، كما يدل عليه السطرُ الآتي.

(٢) مسروق: ابن الأجدع بن مالك الهمداني الوادعي، أبو عائشة الكوفي، فقيه ثقة عابد، توفي سنة اثنتين وستين. انظر: «تقريب التهذيب» لابن حجر ص ٦١٤.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١: ٦٧) من وجهين عن عليّ رضي اللّه عنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وابن مردويه، جميعاً في التفسير عن مكحول مرسلاً، وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عساكر وابن النجار من حديث بريدة، والبزار في «المسند» من حديث أبي رافع، وراجع «الدر المنثور» للسيوطي (٨: ٢٦٧).

(٤) الواسطي: هو أبو بكر الواسطي، واسمه محمد بن موسى، أصله من فرغانه، وكان يعرف بابن الفرغاني، من قدماء أصحاب الجنيد، وأبي الحسين النوري، وهو من علماء مشايخ القوم، لم يتكلم أحد في أصول التصوف مثلُه، وكان عالماً بالأصول =

وقال أيضاً: ﴿وَٰعِيَةٞ﴾ في مَعادِنِها[1]، ليسَ فيها غيرُ ما أشهَدَها[2]؛ فَهِيَ الخَاليةُ عمَّا سِواه، فَما اضطِرابُ الطَّبائِعِ إلا ضَرْبٌ مِنَ الجَهْلِ.

فقلوبُ الصُّوفِيَّةِ وَعَت؛ لأنَّهُم زَهِدُوا في الدُّنيا بعدَ أنْ أحكَمُوا أساسَ التَّقوىٰ، فبالتَّقوىٰ تزكَّتْ نُفوسُهُم، وبالزُّهدِ صَفَتْ قُلوبُهُم، فلمَّا عُدِمُوا شَواغِلَ الدُّنيا بِتحقِيقِ الزُّهد؛ انفتَحَتْ مَسَامُّ بَواطِنِهم، وسمِعَت آذانُ قلوبِهِم، وأعانَهُم علىٰ ذلكَ زُهدُهُم في الدُّنيا.

قالَ الوَاسِطِيّ: خَلَق اللَّهُ دُرَّةً صافِيَة، فلاحَظَها بعينِ الجَلال؛ فذابَتْ حياءً مِنهُ فَسالَت، فقال: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، فصفاءُ القُلوبِ من صَفاءِ ذلكَ الماءِ [الواصلِ] إليها.

قالَ ابنُ عَطاء[3]: هذَا مثلٌ ضربَهُ اللّه، فإنَّهُ إذا سالَ السَّيْلُ في الأودِيَةِ لا يَبْقَىٰ فيها نَجاسَةٌ إلا كَنَسَها وذهَبَ بِها، كذلكَ إذا نَزَلَ النُّورُ الذي قَسَمَ اللَّهُ للعبدِ في نفْسِهِ لا يَبْقَىٰ فيها جَفْوة، تذهَبُ الأباطيلُ وتَبقىٰ الحقائِق. فمَن كانَ في باطِنِهِ لونٌ مَحبَّةِ الدُّنيا مِن فُضولِ المالِ والجاهِ وطَلَبِ المَناصِبِ والرِّفعَة؛ سالَ وادِي قلبِه بِقَدَرِه، فأخذَ منَ العِلْمِ طَرَفاً صَالِحاً، ولَمْ يُحِطْ بدَقائِقِ العُلوم،

= وعلوم الظاهر، استوطن كورة مرو، ومات بها بعد العشرين وثلاثمئة.
انظر ترجمته في: «طبقات الصوفية» للسلمي ص ٢٠٣، «حلية الأولياء» (١٠: ٣٤٩).

(١) في المخطوط: معانيها، والمثبت من «العوارف».

(٢) في «العوارف»: (ليس فيها غير ما شهدته شيء).

(٣) ابن عطاء: هو أحمد بن عطاء بن أحمد الروذباري، أبو عبد الله، ابن أخت أبي علي الروذباري، شيخ الشام في وقته، يرجع إلى أحوال يختص بها وأنواع من العلوم شتى، كان يقول: أقبح من كل قبيح صوفي شحيح، توفي سنة تسع وستين وثلاثمئة. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١: ٢٨٢).

ومَن زَهِدَ في الدُّنيا اتَّسَعَ وادِي قَلبِه؛ فسالَتْ فيهِ مِياهُ العُلومِ واجتَمعَتْ وصارَتْ إخاذات.

قالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ[1]: هَلْ رأيْتَ فقِيهاً قَط؟! إنَّما الفقيهُ: الزَّاهدُ في الدُّنيا. فالصُّوفيَّةُ أخَذُوا حظّاً مِن [٩/أ] عِلمِ الدِّراسَة، فَأفادَهُمُ العَمَلَ بالعِلْم، فلمَّا عمِلُوا بما علِمُوا أفادَهُم عِلمَ الوِراثَة، فهُم معَ سائِرِ العُلماءِ في عُلومِهِم، وتَمَيَّزُوا عنهُم بعلومٍ زائِدَة: هيَ عُلومُ الوِراثَة.

وعلمُ الوِراثَةِ هُوَ: الفِقهُ في الدِّين، قالَ تعالىٰ: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فالإنذارُ مُستفادٌ مِنَ الفقهِ عنهُـم، وهُو: إحياءُ المُنذَرِ بماءِ العِلْم، والإحياءُ بالعِلْمِ رُتبةُ الفِقهِ في الدِّين؛ فصارَ الفِقهُ في الدِّين مِن أكملِ الرُّتَبِ وأعلاها، وهُوَ علمُ العالِمِ الزَّاهِدِ في الدُّنيا، المُتَّقِي الذِي يبلغُ رُتبةَ الإنذارِ بعلمِه.

فمَوردُ الهُدىٰ والعِلمِ رسولُ اللّهِ ﷺ أوّلاً، وردَ عليهِ العلمُ والهُدَىٰ مِنَ اللّهِ فارْتَوىٰ بذلكَ باطِناً وظاهِراً، وظَهَرَ مِن أنوارِ ظاهِرِهِ الدِّين، والدِّينُ هُوَ الانقيادُ والخُضوع، وهُو: أن يضَعَ الإنسانُ نفسَهُ لرَبِّه. والقَلبُ في ارتوائِهِ بالعلمِ بمثابَةِ البَحْر، فصارَ قلبُ رسُولِ اللّهِ ﷺ بالعلمِ والهُدىٰ بحراً مَوَّاجاً، ثمَّ وصَلَ مِن بحرِ قلبِهِ إلىٰ النَّفْس، فظهَرَ علىٰ نفْسهِ الشَّريفَةِ نَضارَةُ العِلمِ وريُّهُ؛ فتبدَّلَتْ نُعوتُ النَّفْسِ وأخلاقُها [الذَّميمة]، ثمَّ وصَلَ إلىٰ الجَوارِحِ جَدْوَلٌ

(١) الحسن البصري: أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن بن يسار البصري، من سادات التابعين وكبرائهم، كان إمام أهل البصرة، حبر الأمة في زمانه، كان عالماً، جامعاً، رفيعاً، فقيهاً، ناسكاً، أقواله كثيرة متناثرة مشهورة، توفي بالبصرة في مستهل رجب سنة مئة وعشر. انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (٥: ٩: ٣٠١)، «الكواكب الدرية» للمناوي (١: ١٨١).

فصارَتْ رَيَّانَةً [٩/ب] ناضِرَةً، فلمَّا استتمَّ نضَارَةً وامتلأَ رِيّاً: بَعثَهُ اللّهُ إلىٰ الخَلْقِ، وأقبَلَ علىٰ الخَلْقِ بقلبٍ مَوّاجٍ بمياهِ العُلوم، واستَقبلَهُ جداولُ الفُهوم، وجرَىٰ مِن بحرِهِ في كلِّ جدولٍ قِسْطٌ ونَصيب، وذلكَ القسطُ الواصلُ إلىٰ الفهومِ هوَ الفقهُ في الدِّين. وإذا وصَلَ ماءُ العلمِ إلىٰ الفَهمِ، انفتَحَ بصَرُ القَلْب؛ فأبصَرَ الحقَّ والباطِل. وتبيَّنَ لَهُ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ.

وكانتْ ذَرّةُ رسُولِ اللّهِ ﷺ مَوضِعَ نظرِ اللّه؛ فلمْ يُصِبْهُ حَظُّ الجَهْل، بلْ صارَ منزوعاً[1]، مُوَفَّراً حظُّهُ منَ العِلم، فبعَثَهُ اللّهُ بالهُدىٰ والعِلمْ، وانتقَلَ مِن قلبِهِ الكريمِ إلىٰ القُلوب، ومِن نَفْسِهِ إلىٰ النُّفوس؛ فأخذَتْ مِنَ العِلْمِ حظّاً وافِراً، فصارَتْ بَواطِنُهُم إخَاذات، فعلِمُوا وعمِلُوا وعلَّمُوا.

ولمَّا تزَكَّتِ النُّفوسُ انجلَتْ مَرائي قُلوبِهِم بما صَقَلَها مِنَ التَّقوىٰ؛ فانجَلىٰ فِيها صُوَرُ الأشياءِ علىٰ هيئَتِها وماهِيَّتِها، فبانَتِ الدُّنيا بقُبحِها فرفَضُوها، وظهرَتِ الآخِرَةُ بحُسْنِها فطلَبُوها، فلمّا زهِدُوا في الدُّنيا فانصبَّتْ إلىٰ بَواطِنِهِم أقسامُ العلومِ انصِبَاباً، وانضافَ إلىٰ علمِ الدِّراسَةِ علمُ الوِراثَة.

فصلٌ

[حالُ الصُّوفيِّ المُنقطِع]

لمَّا صَحَّ حالُ الصُّوفيِّ وانقَطَعَتْ أطماعُه، وسكَنَتْ عَن كلِّ تشرُّفٍ وتطلُّعِ نفْسِه؛ خدَمَتْهُ الدُّنيا، وصَلَحتْ [١٠/أ] لهُ الدُّنيا خادِمَةً، وما رَضِيَها مخدُومَةً، فصاحِبُ الفُتوحِ يرىٰ حركةَ النَّفسِ بالشَّرَفِ جنايَةً وذَنباً، [و] أربابُ الصِّدقِ إن سألُوا سألُوا بعِلْم، وإنْ أمسَكُوا عَنِ السُّؤالِ أمسَكُوا بحال، وإنْ قَبِلُوا قَبِلُوا بعِلْم، فمَن لم يُرْزَقْ حالَ الفُتوحِ فلهُ حالُ السُّؤالِ والكَسبِ بشرطِ

---

(١) أي: الجهل.

العِلْم، فأمّا السائِلُ مُستكثِراً فوقَ الحاجةِ ولا في وقتِ الضَّرورَة، فليسَ مِنَ الصُّوفيّةِ في شَيء.

فحالُ الصُّوفيَّةِ: حُسنُ الأدبِ في السؤالِ والفُتوح، والصِّدقُ معَ اللّهِ في كلِّ حالٍ كيفَ تَقَلَّب.

فصلٌ

[حالُ الصُّوفيِّ المُتَجرِّد]

يَصْلُحُ للفقيرِ في ابتداءِ أمرِهِ قطعُ العلائِق، ومَحْوُ العوائِق، والتَنَقُّلُ في الأسْفار، وركوبُ الأخْطار، والتَّجرُّدُ عَنِ الأسْباب، والخروجُ عَن كلِّ ما يكونُ حِجاباً.

وقَدْ قِيل: النَّفْسُ إذا لَمْ تَشْغَلْها شَغَلَتْك.

فإذا أدامَ الشَّابُ المُريدُ العَمَلَ، وأَذْأَبَ نَفْسَهُ في العِبادَة، تَقِلُّ عليهِ خواطرُ النَّفس. وأيضاً، شُغْلُهُ بالعبادَةِ يُثْمِرُ لهُ حلاوةَ المُعامَلَة، ومَحَبَّةَ الإكثارِ مِنها، وينفتحُ لهُ بابُ السُّهولَةِ واليُسْرِ في العَمَل؛ فيَغارُ علىٰ حالِهِ ووقتِهِ أن يتكدَّرَ بِهَمّ.

فصلٌ

[حالُ الصُّوفيِّ المُتأهِّل]

للقلوبِ إقبالٌ وإدْبار، فإذا أدبَرَتْ رُوِّحَتْ بالإرفاق [١٠/ب] وإذا أقبَلَتْ رُدَّتْ إلىٰ المَساق؛ فتبقىٰ قلوبُهُم دائمةَ الإقبالِ إلا اليَسير، ولا يدومُ إقبالُها إلا لِطُمأنينَةِ النُّفوس، فإذا اطمَأنَّتِ النُّفوسُ واستَقَرَّتْ عَن طَيْشِها ونفُورِها وشَراسَتِها؛ توفَّرَتْ علَيها حقُوقُها، ورُبَّما يصيرُ مِن حقوقِها حظُوظُها؛ لأنَّ في أداءِ الحقوقِ إقناعًا، وفي أخذِ الحظِّ اتِّساعاً، وهذا مِن دقيقِ عِلمِ الصُّوفيَّة،

فإنَّهم يَتَّسِعُونَ بالنِّكاحِ المُباحِ إيصالاً إلىٰ النَّفسِ حَظَّها؛ لأنَّها ما زالَتْ تُخالِفُ هَواها حتَّىٰ صارَ داؤُها دَواءَها، فصارَتِ الشَّهَواتُ المُباحَةُ واللَّذاتُ المشروعةُ لا تضرُّها ولا تُفتِّرُ عَليها عزائِمَها، بل كلَّما وصَلَتِ النُّفوسُ الزَّكيَّةُ إلىٰ حُظوظِها ازدادَ القلبُ انشراحاً وانفساحاً، ويصيرُ بينَ القَلْبِ والنَّفْسِ موافقةٌ بعَطْفِ أحدِهما علىٰ الآخرِ، ويَزْدادُ كلُّ واحدٍ فيهما بما يدْخُلُ علىٰ الآخَرِ منَ الحظِّ: كلَّما أخذَ القلبُ حظَّهُ منَ اللهِ خَلَعَ علىٰ النَّفسِ خِلْعَةَ الطُّمأنينَة، فيكونُ مزيدُ السَّكينةِ لِلْقَلبِ مزيدَ الطُّمأنينةِ للنَّفسِ.

وأنشَدُوا: [كامل]

إنَّ السَّمَاءَ إذَا اكْتَسَتْ كَسَتِ الثَّرَىٰ ... حُلَلاً يُدَبِّجُهَا الْغَمَامُ الدَّاهِمُ

وكلَّما أخذَتِ النَّفسُ حظَّها تَرَوَّحَ القَلبُ تَرَوُّحَ الجارِ المُشْفِقِ [١١/ب] براحَةِ الجَار، وهذا مِنَ الأحوالِ العزيزَة، لا تَصلُحُ إلا لِعالمٍ ربَّاني، فكمْ مِن مُدَّعٍ هلَكَ بتوَهُّمِهِ هذَا في نَفْسِه، والعبدُ إذا كَمُلَ يأخذُ منَ الأشْياء، ولا تأْخُذُ الأشْياءُ مِنْه.

فصلٌ

[نَصِيحةٌ لِلصُّوفيِّ المُتأهِّل]

مَن أُعطِيَ الطَّهارَةَ في باطِنِه، لا يُدَنِّسُ باطِنَهُ بُخَواطِرِ الشَّهوَة، وإذا سَنَحَ لَهُ الخاطِرُ يَمْحُوهُ بِحُسْنِ الإنابَةِ واللِّيَاذِ بالهَرَب، ومَتىٰ سامَرَ الفِكْرَ كثَّفَ الخاطِر، وخرَجَ منَ القلبِ إلىٰ الصَّدرِ، فعندَ ذلكَ يُحْذَرُ إحساسُ العضوِ بالخاطِرِ؛ فيصيرُ ذلكَ عملاً خفيّاً، وما أقبحَ مثلَ هذا بالصَّادِقِ والمُتطلِّعِ إلىٰ الحُضورِ واليَقَظَة؛ فيكونُ ذلكَ فاحِشةَ الحال.

وقَد قِيل: مرورُ الفَاحِشةِ بقلبِ العارفِ كفعلِ الفاعلينَ لَها. انتهىٰ.

[القولُ في السَّمَاع]

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اغْتَنِمُوا الدُّعَاءَ عِنْدَ الرِّقَّةِ؛ فَإِنَّهَا رَحْمَةٌ»[١].

وقَد يُنكِرُ السَّماعَ جامِدُ الطَّبعِ، عَديمُ الذَّوقِ؛ فيقالُ لَه: العِنِّينُ لا يَعلَمُ لذَّةَ الوِقاعِ، والمَكفوفُ ليسَ لَهُ بالجَمالِ البارعِ استِمْتاعٍ، وغيرُ المُصابِ لا يتكلَّمُ بالاسْتِرْجاعِ، فَماذا تُنكِرُ من مُحبٍّ تَربَّىٰ بَاطِنُهُ بالشَّوقِ والمَحبَّةِ، ويَرىٰ انخِناسَ رُوحِهِ الطَّيَّارَةِ، في مَضيقِ قَفَصِ النَّفْسِ الأمَّارَةِ، ثُمَّ تَمُرُّ برُوحِهِ تِنسِيمُ أُنْسِ الأوطانِ، وتمُرُّ [١١/ب] وتَلوحُ لهُ طَوالِعُ نجومِ جُنودِ العِرفانِ، وهُوَ بوجودِ النَّفْسِ في دارِ الغُربَةِ يتَجرَّعُ كأسَ الهِجرانِ، يَئِنُّ تحتَ أعباءِ المُجاهدَةِ، ولا تُحمَلُ عنهُ سَوانِحُ المُشاهدةِ، وكلَّما قطَعَ منازِلَ النَّفْسِ بكثرةِ الأعمالِ، لا يَقْرُبُ مِن كعبةِ الوِصالِ، ولا يُكْشَفُ لَهُ المُسْبَلُ مِنَ الحِجابِ فيستَريحُ بتنفُّسِ الصُّعَداءِ، ويرتاحُ باللائِحِ مِن شِدَّةِ البُرَحاءِ[٢]، ويقولُ مُخاطِباً [الشَّيطانَ] والنَّفسَ ــ وهُما المانِعانِ ــ شِعراً: [طويل]

أيـا جَبَلَـيْ نَعْمـانَ بـاللّـهِ خلِّيـا	نسيمَ الصَّبا يَخْلُصْ إليَّ نسيمُها
فإنَّ الصَّبا رِيحٌ إذا ما تَنَسَّمَتْ	عَلىٰ قَلْبِ محزونٍ تَجلَّتْ هُمومُها
اجِدْ بَرْدَها أوْ تَشْفِ مِنِّي حَرارةً	عَلـىٰ كَبِـدٍ لَـمْ يَبْـقَ إلاَّ صَمِيمُهـا
ألاَ إنَّ أدْوَائِـي بِلَيْلَـىٰ قَـديمَـةٌ	وَأَقْتَـلُ دَاءِ العَـاشِقِيـنَ قَـدِيمُهـا

---

(١) أخرجه ابن شاهين في «الترغيب» (رقم ١٥١)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (رقم ١٦٩٢)، من حديث زيد بن أسلم رضي الله عنه، والبزار في «المسند» (رقم ٣٢٣١ مع كشف الأستار) من حديث العباس رضي الله عنه.

(٢) البرحاء: تعني الشدة.

فصلٌ

[في أدَبِ زيارةِ الصَّالحِينَ]

يَستعِدُّ لِلقاءِ المَشايخِ والزِّياراتِ بِتَنْويرِ الباطِنِ، فإذا كانَ باطِنُهُ مُنوَّراً؛ يَسْتَوفي حظَّهُ منَ الخَيرِ مِن كُلِّ شَيخٍ وأخٍ يزُورُه.

وقد كُنتُ أسمعُ شيخَنا[١] يُوصي الأصحابَ ويقُول: لا تُكلِّمْ أهلَ هذِهِ الطَّريقِ إلاَّ في أصْفَىٰ أوقاتِك.

وهذا فيهِ فائدةٌ كبيرَة؛ فإنَّ نُورَ الكلامِ عَلىٰ قَدْرِ نورِ القَلب، ونُورُ السَّمعِ عَلىٰ قدرِ [١٢/أ] نورِ القَلْب. انتهى.

فصلٌ

[في تحقيق التوكُّل الباطِن وتَرْكِ التدبِير]

إذا كَمُلَ شُغلُ الصُّوفيِّ باللّه، وكَمُلَ زُهدُهُ بكمالِ تَقْواه، يَحْكُمُ الوقتُ عليـهِ بترْكِ التَّسَبُّـب، وينكشِـفُ لهُ صَريـحُ التَّوحيـدِ وصِحَّـةُ الكَفالَـةِ مِنَ اللّهِ الكريم، فيزولُ عن باطِنِهِ الاهتمامُ بالأقْسام، ويكونُ مقدِّمَةَ هذا أن يفتحَ اللّهُ لهُ باطِناً مِنَ التَّعريفِ بطريقِ المُقابَلةِ [عَلىٰ كلِّ فعلٍ] يَصدُرُ فيه، حتىٰ لَوْ جَرىٰ عليه يسيرٌ مِن ذنبٍ [بِحَسْبِ] حالِه، أو الذَّنبِ مطلقاً مِما هوَ مَنهيٌّ عنهُ في الشَّرع؛ يَجِدُ غِبَّ ذلكَ في وقتِه أو يَوْمِه.

فلا تزالُ بهِ المُقابَلاتُ مُتضمِّنَةً بالتَّعرِيفاتِ الإلهيَّـة، حتىٰ يتحصَّنَ بصدقِ المُحاسَبَةِ وصَفاءِ المُراقَبَةِ عَن تضييعِ حقوقِ العُبودِيَّـة، ومخالفةِ حُكمِ الوَقت، ويتجرَّدَ لهُ فعلُ اللّه، ويَنْمحيَ عندَهُ أفعالُ غيرِ اللّه؛ فَيرىٰ المُعطِيَ والمانعَ هُوَ

---

(١) (شيخنا): يعني به عمَّه أبا النجيب السهروردي.

اللّهَ ذوقاً وحالاً، لا عِلماً وإيماناً، ثمَّ يَتداركُهُ الحَقُّ بالمعُونَة، ويوقِفُهُ علىٰ صَريحِ التَّوحِيد، وتَجريدِ فعلِ اللّهِ تعالىٰ.

فإذا وَفَّقَ الحَقُّ عبدَهُ في هذَا المَقام، يُزيلُ عن باطِنِه الاهتمامَ بالأقسام، ويَرىٰ الدخولَ في التَّسبُّبِ والتكسُّبِ بالسُّؤالِ وغيرِهِ رُتبةَ العَوام، ويصيرُ مسلوبَ الاختيار، غيرَ متطلِّعٍ إلىٰ الأغيار، ناظراً إلىٰ فعلِ اللّه، مُنتظِراً لأمرِ اللّه؛ فتُساقُ إليهِ الأقسام، ويُفتَحُ عليهِ بابُ الإنعام، [١٢/ب] ويكونُ ـ بدوام ملاحظتِهِ لفعلِ اللّه، وتَرَصُّدِهِ ما يحدُثُ مِن أمرِ اللّه ـ مُكاشَفاً، لهُ تجلِّياتٌ مِنَ اللّهِ الكريم بطريقِ الأفعال، والتجلِّي بطريقِ الأفعالِ رُتبةٌ في القُرْب، ومِنهُ يترَقىٰ بطريقِ الصِّفات، ومن ذلكَ يترَقىٰ إلى تجلِّي الذَّات.

والإشارَةُ في هذهِ التجلِّياتِ إلىٰ رُتَبٍ في اليَقين، ومقاماتٍ في التَّوحيدِ، شيءٌ فوقَ شَيء، وشيءٌ أصفَىٰ مِن شَيء.

فالتجلِّي بطريقِ الأفعالِ يُحْدِثُ صَفْوَ الزمَنِ والتَّسليمَ، والتجلِّي بطريقِ الصِّفاتِ يُكْسِبُ الهَيبَةَ والأُنس، والتجلِّي بالذَّاتِ يُكْسِبُ الفَناءَ والبَقاء.

وقد يُسَمَّىٰ تركُ الاختيارِ والوقوفُ معَ فعلِ اللّهِ: فناءً، يَعْنُونَ بهِ الإرادَةَ والهَوىٰ، والإرادةُ أَلطَفُ أقسامِ الهَوىٰ، وهذا الفناءُ هوَ الفناءُ الظَّاهِر، فأمّا الفناءُ الباطِنُ فهُوَ: محوُ آثارِ الوجودِ عندَ لمَعانِ نُورِ الشُّهود، يكونُ في تجلِّي الذَّات، وهوَ أكمَلُ أقسام اليَقينِ في الدُّنيا، فأمّا تجلِّي حُكْم الذَّاتِ لا يكونُ إلا في الآخِرَة، وهُوَ المقامُ الذي حَظِيَ بِهِ رسُولُ اللّهِ ﷺ ليلةَ المِعراج، ومُنِعَ عنهُ موسَىٰ بـ ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فَلْيُعْلَمْ أنَّ قولَنا في التَّجلِّي إشارةٌ إلىٰ رُتَبِ الحَظِّ مِنَ اليقينِ ورؤيةِ البَصيرَة، فإذا وصَلَ العبدُ إلىٰ مَبادِىءِ أقسامِ التَّجلِّي، وهُوَ مطالَعةُ [١٣/ب] الفِعلِ الإلهيِّ مُجَرَّداً عَن فعلِ ما سِوَىٰ اللّه، يكونُ تناوُلُهُ الأقسامَ مِنَ الفُتُوح.

فصلٌ

سُئِلَ سهلُ بنُ عبد اللّهِ التُّسْتَرِيُّ رضيَ اللّهُ عنه عَن علمِ الحال؟ قال: هُوَ تركُ التَّدبِير، ولَوْ كانَ هذا في واحدٍ لكانَ مِن أوتادِ الأرض. ومِن أهلِ الفُتوح مَن يأخذُ غيرَ مُتَطلِّعٍ إلىٰ تَقَدُّمِ العلمِ حيثُ تجرَّدَ لهُ الفِعل، ومَن لا يَنتظِرُ تقدِمَةَ العِلمِ فوقَ مَن ينتظِرُ تقدِمَةَ العِلم؛ لتمامِ صِحَّتِهِ معَ اللّهِ تعالىٰ وانسِلاخِهِ مِن إرادَتِهِ وعلمِ حالِهِ في تركِ الاختِيار.

قالَ الواسِطِيُّ: الافتقارُ إلىٰ اللّهِ أعلىٰ درَجةِ المُريدين، والاستغناءُ باللّهِ أعلىٰ درَجةِ الصَّادقِين.

فصلٌ

العبدُ إذا صَحَّ حالُهُ معَ اللّهِ، وأفنىٰ هواهُ مُتطلِّباً رِضا اللّه، يرفَعُ اللّهُ عَن باطِنِه هُمومَ الدُّنيا، ويجعلُ الغِنىٰ في قَلبِه، ويفتَحُ عليهِ أبوابَ الرِّفق، وكلُّ الهمومِ المُتسلِّطَةِ علىٰ بعضِ الفُقراء؛ لكونِ قلوبِهِم ما استكمَلَتِ الشُّغُلَ باللّه، والاهتمامَ برعايةِ حقائقِ العُبودِيَّة.

فعلىٰ قدْرِ ما خَلَتْ مِن هَمِّ اللّهِ ما عُذِّبَتْ بهمومِ الدُّنيا ووقَفَتْ وارتفَعَت.

فصلٌ

المعلومُ إذا أقامَهُ الحَقُّ للنَّاظِرِ إلىٰ اللّهِ، الكاملِ توحيدُهُ، يكونُ نِعمةً هَنِيئَة.

جاءَ رجلٌ إلىٰ الشَّيخِ أبي السُّعود، وكانَ مِن أربابِ الأحوالِ السَّنِيَّةِ والواقِفينَ في الأشياءِ معَ فِعلِ اللّه، مُتمكِّناً في حالِه، تاركاً لاختيارِه، لَعلَّه سَبَقَ [١٣/ب] كثيراً مِنَ المُتقدِّمينَ في تحقيقِ تركِ الاختِيار، رَأينا مِنهُ وشاهَدْنا أحوالاً صَحيحَةً عَن قوَّةٍ وتمكِين، فقالَ لهُ الرَّجُل: أريدُ أنْ أُعَيِّنَ لكَ شيئاً كلَّ يومٍ مِنَ

الخُبزِ أحمِلُهُ إليك، ولكنّي قُلت: الصُوفيَّةُ يقولون: المعلومُ شُؤم، قالَ الشَّيخ: نحنُ ما نقولُ: المعلومُ شُؤم، فإنَّ الحقَّ يَصْفَىٰ لَنا، وفِعلَهُ نَرىٰ، وكلُّ ما يُقسَمُ لَنا نراهُ مُباركاً، ولا نَراهُ مَشؤُوماً.

فصلٌ

[في فضيلةِ عِلم الحَقائق]

قالَ شيخُنا: التأدُّبُ بآدابِ الرُّوحانيِّينَ: حَبسُ النُّفوس عَن تقاضِي جِبلّاتِها، وقَمعُها بِصَريحِ العِلمِ في كلِّ قولٍ وفِعلٍ، ولا يَصِحُّ ذلكَ إلا لِمَن عَلِمَ وَقَرُب، وتطرَّقَ إلى الحُضورِ بينَ يدَي الله، فيتَحَفَّظُ بالحَقِّ لِلْحَق.

وقَد يكونُ العَبدُ عالِماً باللهِ، ذا يقينٍ كامِلٍ، وليسَ عندَهُ عِلمٌ من فُروضِ الكِفايات. وقَد كانَ أصحابُ رسُولِ اللهِ ﷺ أعلمَ مِن عُلماءِ التَّابِعينَ بِحَقائِقِ اليَقِين ودَقائِقِ المَعرِفَة، [وقد كان علماءُ التّابعينَ فيهم مَن هُوَ أقْوَمُ بِعِلم الفَتْوىٰ والأحكامِ مِن بعضِهم، رُوِيَ أنّ عبدَ اللهِ بنَ عمرَ رضيَ الله عنهما كان إذا سُئِلَ عن شيءٍ يقولُ: سَلُوا سعيدَ بْنَ المسيِّب. فكانوا يرُدّونَ الناسَ إليهم في عِلم الفتْوىٰ والأحكام، ويُعلِّمونَهم حقائقَ اليقينِ ودقائقِ المعرِفة]؛ وكانُوا أقوَمَ بذلكَ مِنَ التَّابِعين، صَادفَتْهم طَراوةُ الوحيِ المنزَّل، وغَمَرَهُم غزيرُ العِلم: المُجْمَلُ والمُفَصَّل، فتلقَّىٰ طَائفةٌ مِنهُم مجمَلَهُ دونَ مُفَصَّلِه. والمجملُ أصلُ العِلمِ ومُطلَقُه، المُكتسَبُ بطهارةِ القُلوب، وقوَّةِ الغَريزَة، وكمالِ الاستِعداد، وهو خاصٌ بالخَوص.

فصلٌ

[في إجابةِ الدعوةِ إلىٰ اللهِ تعالىٰ]

قولُهُ تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف: ١٠٨] فإجابَةُ الصُّوفيَّةِ إلىٰ الدَّعوةِ إجابَةُ المُحِبِّ للمَحبُوبِ علىٰ اللَّذاذَةِ وذَهابِ

العُسر، وإجابةُ غيرِهم علىٰ المُكابَدَةِ والمُجاهَدَة، وهذهِ [١٤/أ] الإجابةُ يَظهرُ معَ الساعاتِ أثرُها في القيامِ بحقائقِ الاستقامَةِ والعُبوديَّة. قالَ اللّهُ تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٧].

قالَ بعضُهم: ﴿أَعْطَىٰ﴾ الدَّارينِ ولَمْ يرَ شيئاً، ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ اللَّغوَ والشُّبُهات، ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾: أقـامَ على طلبِ الزُّلفىٰ. قيلَ: نزلَـتِ الآيـةُ في أبِي بكرٍ الصِّديقِ رضيَ اللّهُ عَنه.

ويَلُـوحُ في الآيةِ وجـهٌ آخَر: وهُوَ: ﴿أَعْطَىٰ﴾ بالمواظَبـةِ علىٰ الطَّاعَـة، ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ الوَسْواسَ والهَواجِس، ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾: لازمَ الباطِنَ بتصفيةِ مَواردِ الشَّهـواتِ عَن مُزاحَمَـةِ لَـوْثِ الوُجـود، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾: نفتحُ عليهِ بابَ السُّهولَةِ في العملِ والعيشِ والأُنس.

فلَمّا أجابَت نفوسُ الصُّوفيَّـةِ وقلوبُهم وأرواحُهمُ الدَّعوةَ إلىٰ اللّهِ ظاهراً وباطنـاً؛ كانَ حظُّهـم مِنَ العِلمِ أوْفَـرَ، ونصيبُهُم في المَعرِفَـةِ أكْمَل، فكانَـت أعمالُهُم أزكىٰ وأفضَل، فكانَ اليقينُ أفضلَ العلم، لأنَّـهُ أدْعَىٰ إلىٰ العمَل، وما كانَ أدعىٰ إلىٰ العملِ كانَ أدعىٰ إلى العبُودِيَّـة، وما كانَ أدعىٰ إلىٰ العُبوديَّـةِ كانَ أدعىٰ إلىٰ القيامِ بحقِّ الربُوبيَّـة، وكمالُ الحَظِّ مِنَ اليقينِ والعِلمِ باللّه: للصُّوفيَّـةِ والعُلماءِ الزَّاهِدين، فبانَ بذلكَ فضلُهُم وَفضلُ عِلمِهم. انتهىٰ.

فصلٌ

[في تواضُعِ أهلِ التصَوُّف]

الصُّوفيُّ العالِمُ الزَّاهدُ لا يُمَيِّزُ نَفسَهُ بشيءٍ دونَ المُسْلِمين، ولا يَرىٰ نفسَهُ في مقـامِ تمييـزٍ يُميِّـزُها بمجلسٍ مخصوصٍ مُمَيِّـز، [١٤/ب] ولَو تقدَّمَ وترفَّعَ عليهِ غيرُه [لا] يَتَنَقَّصُ مِن ذلك، ويرىٰ النَّـفسَ وظهورَها وأنَّ هذا داء، وأنَّه

[إذا] استرسَلَ فيهِ بالإصغاءِ إلىٰ النَّفسِ وانعصارِها صارَ ذلكَ ذنبَ حالِه، فيرفَعُ في الحالِ داءَهُ إلىٰ اللّه، ويشكو إليهِ ظهورَ نَفْسِه، ويُحْسِنُ الإنابةَ، [ويقطعُ] دابرَ ظهورِ النَّفس، ويرفَعُ القلبَ إلىٰ اللّهِ مُستغيثاً منَ النَّفس، ويَشْغَلُهُ اشتِغالُهُ برؤيةِ داءِ النَّفسِ في طلبِ دَوائِها عَنِ المُنكرِ فيمَن قَعدَ فوقَهُ، وربَّما أقبَلَ عليهِ بمزيدِ التَّواضُعِ والانكِسار، تكفيراً لذنبِهِ المَوجُود، وتداوياً لِدائِهِ الحاصِل.

وهذا مِن أوائِلِ علومِ الصُّوفيَّةِ، فما ظنُّكَ بنفائِسِ علومِهِم وشريفِ أحوالِهِم؟ انتهىٰ.

فصلٌ

[في مُجانَبةِ الصُّوفيةِ للغِشِّ والحسَد]

قال أنسُ بنُ مالِك: قالَ لي رسولُ اللّهِ ﷺ: «يا بُنَيَّ، إنْ قَدِرتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتمْشِيَ وَلَيْسَ في قَلْبِكَ غِشٌّ لأَحَدٍ فافْعَلْ، وَذَلِكَ مِنْ سُنَّتي، وَمَنْ أحيا سُنَّتي فَقَدْ أَحيَاني، ومَن أَحيَاني كَانَ مَعي في الْجَنَّةِ»[1]، وهَذا أَتمُّ شرَفاً وأكمَلُ فضلاً، أخبرَ بهِ رسُولُ اللّهِ ﷺ في حقِّ مَن أحيا سُنَّتَه.

والصُّوفيَّةُ همُ الذِّينَ أحيَوُا السُّنَّة. وطَهارَةُ الصُّدورِ منَ الغِلِّ والغِشِّ عمادُ أمرِهم، وبذلكَ ظهرَ جَوهَرُهم، [١٥/أ] وبانَ فضلُهم، وإنَّما قَدِروا علىٰ إحياءِ السُّنَّة، ونَهضُوا بواجبِ حقِّها، لزُهدِهم في الدُّنيا، وترْكِها علىٰ أربابِها وطُلَّابِها، لأنَّ مثارَ الغِلِّ والغِشِّ محبةُ الدُّنيا والرِّفعةِ عندَ النَّاس.

والصُّوفيَّةُ زهِدوا في ذلكَ كلِّه، كما قالَ بعضُهم: طريقَتُنا هذهِ لا تَصلُحُ

---

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع»، كتاب العلم، باب: ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة، (رقم ٢٦٧٨)، بسندٍ ضعيف.

إلا لأقوامٍ كُنِسَتْ بأرواحِهِمُ المَزابِل. إشارةً إلىٰ غايةِ التَّواضُع، وأن لا يَرىٰ نَفسَهُ يتميَّزُ علىٰ أحدٍ من المُسلمينَ لحقارَتِهِ عندَ نَفسِه، وعندَ هذا يَسُدُّ بابَ الغِشِّ والغِلِّ.

وقيلَ: المَزابِل: إشارةٌ إلىٰ النُّفوس، لأنَّها مأوىٰ كلِّ رِجسٍ ونَجَس، وكَنْسُها بنورِ الرُّوحِ الواصِلِ إليها؛ لأنَّ الصُّوفيَّةَ أرواحُهم في مجالِ القُرب، ونورُها سَرىٰ إلىٰ النُّفوس، وبوصلِ نورِ الرُّوحِ إلىٰ النَّفسِ تطمئنُّ النُّفوس، ويَذهَبُ عنها المَذمُومُ من الغلِّ والغشِّ والحقدِ والحسَدِ، فكأنَّها تُكنَس.

فصلٌ

قولُه تعالىٰ في وصفِ أهلِ الجنَّة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

قالَ أبو جَعفَر[1]: كيفَ يَبقىٰ الغلُّ في قلوبٍ ائتلفَت باللّه، واتَّفقَت مَحبَّةً للّه، واجتمَعتْ علىٰ مودَّتِه، وأَنِسَتْ بذكرِه؟ إنَّ تلكَ قلوبٌ صافِيَةٌ مِن هواجِسِ النُّفوسِ وظُلُماتِ الطَّبائعِ، بَل كُحِلَتْ بنورِ التَّوفيق، فصارَت إخواناً.

فصلٌ

[في أنّ الصوفيّةَ هم أهلُ الاتِّباع]

الخَلْق حِجابُهم عن القِيامِ بإحياءِ سُنَّةِ رسولِ اللّهِ ﷺ قولاً وفِعلاً وحالاً: صفاتُ نفُوسِهم، فإذا تبدَّلَتْ نُعوتُ النُّفوسِ [١٥/ب] ارتفعَ الحِجاب،

---

(١) أبو جعفر: محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنهم، سميَ باقراً لأنه بقرَ العلم أي: شقه، فعرف أصله وحقيقته، كان يقول: ما من عبادةٍ أفضلُ من عفة بطن أو فرج، توفي رضي اللّه عنه سنة سبعَ عشرة ومئة. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١: ٩٠).

وصَحَّت المُتابَعة، ووقَعَتِ المُوافَقَةُ في كلِّ شيءٍ معَ رسولِ اللّهِ ﷺ، ووجَبَتِ المَحبَّةُ مِنَ اللّهِ عزَّ وجَلَّ عندَ ذَلك.

والصُّوفيَّةُ ــ من بينِ طوائِفِ الإسلامِ ــ ظَفِروا بحُسنِ المُتابَعَة؛ لأنَّهُم اتَّبَعُوا أقوالَه، فَقامُوا بِما أمَرَهُم، ووقَفُوا عَمَّا نَهاهُم، ثمَّ اتَّبعُوه في أفعالِهِ مِنَ الجِدِّ والاجتِهادِ في العِبادَة والتَهجُّدِ والنَّوافِلِ: منَ الصَّومِ والصَّلاةِ وغيرِ ذَلك، ورُزِقُوا ــ ببركةِ المُتابعَةِ في الأقوالِ والأفعالِ ــ التَّخلُّقَ بأخلاقِه: منَ الحَياءِ والحِلم، والصَّفحِ والعَفْو، والرَّأفةِ والشَّفَقَة، والمُداراةِ والنَّصيحَةِ والتَّواضُع، ورُزقوا قسطاً مِن أحوالِه مِنَ الخَشيَةِ والسَّكينَةِ، والهَيبَةِ والتَّعظِيم، والرِّضا والصَّبْر، والزُّهدِ والتَّوكُّل؛ فاستَوْفَوا جميعَ أقسامِ المُتابَعَة، وأحْيَوْا سُنَّتَهُ بأقصَىٰ الغايات.

[قيلَ لعبدِ الواحِد بْنِ زيد[1]: مَنِ الصُّوفيَّةُ عندَكَ؟ قال]: القائمونَ بعقُولِهم عَلىٰ هِمَمِهِم، والعاكِفُونَ عَلَيْها بقلوبِهِم، والمُعتصِمُونَ بسيِّدِهم مِن شرِّ نفُوسِهِم.

فصلٌ

[في ماهيّة التصُّوف وعلاماتِ الصُّوفيّ]

الصُّوفيُّ مُتَّهِمٌ لنفسِهِ، مُسْتَقِلٌّ لعِلمِه، غيرُ راكنٍ إلىٰ معلومِهِ، قائِمٌ بمرادِ ربِّهِ لا بمرادِ نفسِه.

---

(١) عبد الواحد بن زيد: أدرك الحسن البصري وغيره. كان يقول: مثل المؤمن مثل الولد في الرحم: لا يحب الخروج، فإذا خرج لم يحب أن يرجع. قيل: إنه صلىٰ الغداة بوضوء العشاء أربعين سنة. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١ : ٣٩).

قالَ ذو النُّون: الصُّوفيُّ مَن لا ينفَعُهُ[1] طَلَب، ولا يُزعِجُهُ سَلَب. وقالَ أيضاً: الصُّوفيَّـةُ آثَروا اللّهَ علىٰ كلِّ شيءٍ؛ فآثرَهُم علىٰ كلِّ شيءٍ. وكانَ مِن إيثارِهم أنْ آثَروا عِلمَ اللّهِ علىٰ علمِ نُفوسِهِم، وإرادةَ اللّهِ علىٰ إرادَةِ نُفوسِهم.

والصُّوفـيُّ هُوَ المُستَبِينُ الأحسنَ مِن عندِ اللّه، بصِدقِ الالتِجاءِ بهِ، وحُسنِ الإنابَة، وحظُّ قُرْبِهِ من مُحادثَتِهِ ومُكالَمَتِه [١٦/أ]. قـالَ رُوَيْـمٌ[2]: التَّصـوُّفُ: استِرسالُ النَّـفس [معَ اللّه تعالىٰ] علىٰ ما يُريـد. وقـالَ عمرُو بنُ عثمانَ المَكّي[3]: التَّصوُّفُ: أن يكونَ العبدُ في كلِّ وقتٍ مُشتَغِلاً بما هُوَ أوْلىٰ في الوَقت. وقالَ بعضُهم: أوَّلُ التصوُّفِ عِلم، وأوْسَطُهُ عمَل، وآخِرُهُ مَوهِبَـةٌ مِنَ اللّهِ تَعالىٰ.

وَقِيل: التصوُّفُ: تركُ التصرُّف، وبذلُ الرُّوح. وقالَ الجُنَيْد: الصُّوفيُّ كالأرضِ: يُطرَحُ عليها كلُّ قَبيح، ويَخرُجُ منها كلُّ مَليح، وكالأرضِ يَطَؤُها البَرُّ والفاجِر، وكالسَّحابِ يُظِلُّ كلَّ شيءٍ، وكالمَطَرِ يسقِي. ونذكرُ ضابِطاً؛ فنقُول:

---

(١) في «العوارف»: يُتعبه.

(٢) رويم: بن أحمد بن يزيد البغدادي، ويكنى: أبا محمد، وقد حدَّث عن ليث بن سعد وغيره، كان فقيهاً على مذهب داود الظاهري، وكان مُقرِئاً على إدريس بن عبد الكريم الحدَّاد. توفي سنة ٣٠٣هـ، وكان يقول: مِن حكم الحكيم أن يوسّع على إخوانه في الأحكام، ويضيّق على نفسه فيها؛ فإن التوسعة عليهم اتباع العلم، والتضييق على نفسه من حكم الورع. انظر ترجمته في: «طبقات الصوفية» للسلمي ص ١٨٠، «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠ : ٢٩٦).

(٣) عمرو بن عثمان المكي: أبو عبد اللّه، صاحب الجنيد، ولقي الناجيَ وأبا سعيد الخراز وغيرهما، كان شيخ القوم في وقته، وإمام الطائفة في الأصول والطريقة، وله كلام حسن، روى عن البخاري وغيره، وتوفي سنة إحدى وتسعين ومئتين. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١ : ١٩٨).

الصُّوفيُّ يكونُ دائمَ التَّصفِيَة، لا يَزالُ يُصَفِّي الأوقاتِ عن شَوْبِ الأكدَار؛ بتصفيةِ القلبِ عَن شَوْبِ النَّفس، ويُعِينُهُ علىٰ هذهِ التَّصفِيَة دوامُ افتقارِهِ إلىٰ مولاه، فبدوامِ الافتقارِ يتفطَّنُ لِلكَدَر، وكلَّما تحرَّكتِ النَّفسُ وظهَرَتْ صِفاتُها، أدرَكها ببصيرتِهِ النَّافِذَة، وفَرَّ مِنها إلىٰ ربِّه، فبدوامِ تصفيتِهِ: جَمعِيَّتُهُ، [وبحركةِ نفسِه:] تفرقَتُه وكدَرُه، فهُوَ قائِمٌ بربِّهِ علىٰ قلبِه، وقائمٌ بقلبِهِ علىٰ نَفسِه، وهذهِ القِوَامِيَّةُ علىٰ النَّفس هيَ التحقُّق بالتَّصوُّف.

ولا بُدَّ للصُّوفيِّ من دَوامِ الحرَكةِ بدَوامِ الافتِقَار، ودوامِ الفِرار، وحُسنِ التفقُّدِ لمواقعِ إصاباتِ النُّفوس. ومَن وقَفَ علىٰ هذا المعنىٰ؛ يجدُ في الصُّوفيِّ جميعَ المُتفرِّقِ في الإشارات. قال بعضُهم: صِدْقُ الإخلاصِ: نِسْيانُ رؤيةِ الخَلْقِ، بدَوامِ النَّظَرِ [١٦/ب] إلىٰ الحَقِّ. فالمَلاَمَتِيُّ وإن كان مُتمسِّكاً بعُروةِ الإخلاص، مُستَفرِشاً بِساطَ الصِّدق، ولكنْ عليهِ بقِيَّةُ رؤيةِ الخَلْقِ والصِّدق. والصُّوفيُّ صَفا عَن هذهِ البَقِيَّةِ في طرفَيِ العملِ والتَّركِ لِلخَلْق، وعزَلَهُم بالكُلِّيَّة، ورآهُم بعينِ الفَناءِ والزَّوال، ولاحَ لَهُ ناصيةُ التَّوحِيد، وعايَنَ سِرَّ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

الصُّوفيُّ يضعُ الأشياءَ موضِعَها، ويُدَبِّرُ الأوقاتِ والأحوالَ كلَّها بالعِلْم، يقيمُ الخلْقَ مقامَهُم، ويقيمُ الحَقَّ مقامَه، ويَسْتُرُ ما ينبغي أن يُستَر، ويُظهِرُ ما يَنبغي أن يُظْهَر، ويأتي بالأمُورِ في موضِعِها، بحضُورِ عقلٍ، وصِحَّةِ تَوحِيد، وكمالِ مَعرِفَة، ورِعايَةِ صدقٍ وإخلاص.

فصلٌ

[في أنَّ الظاهرَ دليلُ الباطِن]

الشَّريعَةُ: حقُّ العبودِيَّة، والحقيقَةُ: حقيقَةُ العُبوديَّة، ومَن صارَ مِن أهلِ الحقيقَةِ تَقيَّدَ بحقوقِ العُبوديَّةِ وحقيقَةِ العُبوديَّة، وصارَ مُطالباً بأمورٍ

وزيـاداتٍ لا يُطالَـبُ بها مَن لَم يصِـلْ إلىٰ ذَلك؛ لا أنَّهُ يَخلَـعُ عن عنُقِـهِ رُتبَةَ التكليفِ! ويخامِرُ باطِنَهُ الزَّيغُ والتَّحريفُ!

عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللّٰهُ عَنهُ يقـول: إنَّ أُناساً كانوا يأخُذونَ بالوحيِ علىٰ عهدِ رسولِ اللّٰهِ ﷺ، وإنَّ الوحيَ قدِ انقطَع، وإنَّما نأخذُكُمُ الآنَ بما ظهَرَ مِن أعمالِكُم، فَمَنْ أظهرَ لنا خيراً أمَنَّـاهُ وقرَّبْناه، وليسَ لنا مِن سَريرَتِهِ شَيء، اللّٰهُ يُحاسِبُهُ في سَرِيرَتِـه، ومَن أظهرَ لنا سِوىٰ ذلكَ لَم نأمَنْهُ [١٧/أ] وإنْ قالَ: سريرَتي حسَنَـة.

فصلٌ

[في رُتبةِ المَشْيَخة]

ورَدَ عن رسولِ اللّٰهِ ﷺ: «والذي نفسُ محمَّدٍ بيدِه، لئِن شئتُم لأُقسِمَنَّ لكُم، إنَّ أحبَّ عبادِ اللّٰهِ إلىٰ اللّٰهِ الَّذينَ يُحَبِّبُونَ اللّٰهَ إلىٰ عِبادِه، ويحبِّبُونَ عبادَ اللّٰهِ إلىٰ اللّٰه، ويمشُونَ علىٰ الأرضِ بالنَّصيحَة»[1].

وهـذا الذي ذكرَهُ النَّبيُّ ﷺ هُوَ: رتبةُ المشيَخَـةِ والـدَّعوةِ إلىٰ اللّٰه؛ لأنَّ الشيخَ يُحَبِّبُ اللّٰهَ إلىٰ عبادِهِ حقيقَةً، ويُحَبِّبُ عبادَ اللّٰهِ إلىٰ اللّٰهِ شريعـةً. ورتبةُ المشيخةِ هيَ مِن أعلىٰ الرُّتَبِ في طريقِ الصُّوفيَّـة، ونيابةُ النُّبوَّةِ في الدُّعاءِ إلىٰ اللّٰه.

يَسْلُكُ الشيخُ بالمريدِ طريقَ التزكيةِ والتَّخلِيَة، وإذا تزكَّتِ النفسُ انجلَتْ مِرآةُ القلـبِ، وانعكـسَ فيه أنوارُ العظَمةِ الإلَهِيَّـة، ولاحَ فيهِ جمالُ التَّوحيد، وانجَذبَـتْ أحداقُ البصيـرةِ إلىٰ مُطالَعَـةِ أنوارِ جَلالِ القِـدَم، ورؤيـةِ الكمالِ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «كتاب الأولياء» (رقم ٣٦)، وأبو الشيخ في «كتاب التوبيخ» (رقم ١٤) من حديث الحسن البصري مرسلاً.

الأزليّ، فأحبَّ العبدُ ربَّـهُ لا مَحالَةَ، وذلكَ ميراثُ التزكيَـة. قالَ تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، وفلاحُها: بالظَّفَرِ بمعرفةِ اللّه.

وأيضاً، فإنَّ مرآةَ القلبِ إذا انجَلَتْ لاحَتْ فيها الدُّنيا بقُبْحِها وحقيقَتِها وماهِيَّتِهـا، ولاحَتْ فيها الآخِرَةُ ونَفاسَتُهـا وغايتُها؛ فينكشفُ للسَّريرَةِ حقيقةُ الدَّارَيْـن، وحاصلُ المَنزِلَيْن، فيحـبُّ العبدُ الباقيَ ويَزهَدُ في الفاني، فتظهَرُ فائـدةُ التزكيَة، وجَدْوَىٰ المَشيَخَةِ والتَّربيَـة، فعلىٰ المشايـخ وقـارُ اللّه، فهُم أُهِّلُوا للاقتِداءِ بهِم، وجُعِلوا [١٧/ب] أئمَّـةَ المُتَّـقين.

فصلٌ

[في دوامِ الافتقارِ إلى اللّهِ تعالىٰ]

كانَ رسُولُ اللّهِ ﷺ دائمَ الافتقارِ إلىٰ مولاهُ حتَّىٰ يقولَ: «لا تَـكِلْني إلىٰ نَفْسي طَرْفَةَ عَيْنٍ، اكْلأْني كلاءَةَ الوَليد»[1].

ومِنْ أشرفِ ما ظَفِرَ بِهِ الصُّوفيُّ مِن متابعةِ رسُولِ اللّه ﷺ: دوامُ الافتقارِ والالتجاءِ، ولا يتحقَّقُ بهذا الوصفِ مِن صِدْقِ الافتقارِ إلا عبدٌ كوشِفَ باطنُهُ بصفـاءِ المعرِفَة، وأشرقَ صدرُهُ بنورِ اليقين، وخلَصَ قلبُهُ إلىٰ بساطِ القُرب، وخَلا سِرُّهُ بلذيذِ المُسامَرَة؛ فبقِيَتْ نفسُهُ بينَ هذهِ الأشياءِ أسيرَةً مأمُورَة، ومعَ ذلكَ كلِّهِ يراها مأوىٰ كلِّ شَر، وهيَ بمثابةِ النارِ: لَو بقِيَتْ مِنها شَرَارةٌ أحرَقَتْ عالَماً، وهِـي وَشيكـةُ الرُّجوع، سريعـةُ الانقِـلابِ والانفِـلات، فاللّهُ تعالىٰ لِكمالِ لُطفِهِ عرَّفَها الصُّوفيَّةَ وكشَفَها لَهُم علىٰ شيءٍ من مَعنىٰ ما كشَفَها لرسولِ اللّهِ ﷺ، فهـوَ دائمُ الاستغاثَـةِ إلىٰ مولاهُ مِن شرِّهـا، فكأنَّهـا جُعِلَـتْ سَوْطاً

---

(١) رواه البزار في «المسند» (رقم ٣١٩٠ مع كشف الأستـار)، وفي إسناده إبراهيم بن يزيد الخوزي: متروك. قاله الهيثمي في «المجمع» (١٠ : ١٨١).

للعبدِ، تَسُوقُه معرِفتُه بِشرُها معَ اللَّحظاتِ إلىٰ جنابِ الالتِجاء، وصِدْقِ الافتقَارِ والدُّعاء، فلا يخلُو الصُّوفيُّ عَن مُطالَعَتِها أدنىٰ ساعَة، كَما لا يخلُو عَن ربِّهِ أدنىٰ ساعَة، وربطُ معرِفَتِها بمعرفتِهِ، كربطِ معرفةِ اللَّيْلِ بمعرِفَةِ النَّهار.

ومَنِ الذي يقومُ بإحياءِ هذهِ السُّنَّةِ من سُنَنِ رسولِ اللّهِ ﷺ غيرُ الصُّوفيِّ العالِمِ باللّه [١٨/أ] الزَّاهِدِ في الدُّنيا، المُتمسِّكِ من التَّقوىٰ بأوثقِ العُرىٰ؟! ومَن الذي يهتدِي إلىٰ فائدةِ هذا الحالِ غيرُ الصُّوفيِّ؟! فَدوامُ افتقارِهِ إلىٰ ربِّـهِ تَمَسُّكٌ بجنابِ الحَقِّ وَلِيَاذٌ به، وفي هذا اللِّيَاذِ استِغراقُ الرُّوحِ واستِتْباعُهُ القَلبَ إلىٰ محلِّ الدُّعاء، وفي انجذابِ القلبِ إلىٰ محلِّ الدُّعاءِ بلسانِ الحالِ والكَوْنِ فيهِ نُبُوُّ النَّفسِ عَن مُستقَرِّها مِنَ الأقسامِ العاجِلَة، ونُزولِها إليها في مَدرَجِ العِلم، محفوفةً بحراسةِ اللّهِ ورِعايَتِهِ، والنَّفسُ المدبَّرَةُ بهذا التدبيرِ مِن حُسْنِ تدبيرِ اللّهِ، مأمونةُ الغائلَةِ مِنَ الغِلِّ والغِشِّ والحِقدِ والحَسَدِ وسائرِ المذمُوماتِ، فهذا حالُ الصُّوفي.

فصلٌ

[الصُّوفيةُ صِنْفان: مُرادون، ومُريدون]

والمحبوبُ المرادُ يُبادِيهِ الحَقُّ بِمنَحِـهِ ومَواهِبِهِ، مِن غيرِ سابِقَةِ كسبٍ مِنه، تَسبِـقُ كشوفُهُ اجتهـادَه، وفي هـذِه الطَّريقَـةِ أُخِذَ بطائفـةٍ من الصُّوفيَّـة، ورُفِعَتِ الحُجُبُ عن قلُوبِهم، وباداهُم سطُوعُ نـورِ اليَقين؛ فأثارَ نازِلُ الحالِ فيهِم شهوةَ الاجتهادِ والأعمال، فأقبَلُوا علىٰ الأعمالِ باللَّذَّةِ، والعَيْشُ فيها قُرَّةُ أعيُنِهِم، فَسَهَّلَ الكشفُ عَلَيْهِمُ الاجتِهادَ.

قالَ أبو سعيدٍ الخرّاز[1]: المرادُونَ هُم أهلُ الخاصَّةِ تولاَّهُمُ اللّه، وأكمَلَ لهمُ النِّعمَةَ، وهيَّأَ لهمُ الكرامَةَ، فأسقَطَ عنْهم حرَكاتِ الطَّلَبِ، فصارَتْ [١٨/ب] حرَكاتُهُم في العمَلِ والخِدمَةِ علىٰ الأُلفَةِ والذِّكْرِ، والتنعُّم بمُناجاتِه، والانفرادِ بقُربِه، والمرادُ محمولٌ في حالِه، مُعانٌ علىٰ حركاتِهِ وسعيِهِ في الخِدمَة، مَكْفِيٌّ مَصُونٌ عنِ الشَّواهِدِ والنَّواظِرِ.

والمريدُونَ طُولِبوا بالاجتهادِ أوّلاً قبلَ الكُشوفِ. قالَ تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] يُدرِجُهمُ اللّهُ في مَدارجِ الكَسبِ، بأنواعِ الرِّياضاتِ والمُجاهدات، وسهَرِ الدَّياجِرِ وظمَإِ الهَواجِرِ، تتأجَّجُ فيهِم نيرانُ الطَّلَبِ، وتنحَجبُ دونَهُم لوامِعُ الأرَبِ، يتقلَّبونَ في رَمْضاءِ الإرادَة، ويتَخلَّفونَ عَن كلِّ مألوفٍ وعادَة، وهِيَ الإنابَةُ التي شرَطَها اللّهُ لَهم، وجَعَلَ الهِدايَةَ مقرونةً بِها.

وهذِه الهدايةُ أيضاً هدايةٌ خاصَّةٌ؛ لأنَّها هِدايةُ اللّهِ إليهِ، غيرُ الهدايةِ العامَّة، التي هيَ: التهدِّي إلىٰ أمرِهِ ونهيِهِ بمُقتَضىٰ المعرفةِ الأُولىٰ، وهذا حالُ السّالكِ المُحبِّ المُريدِ، فكانَتِ الإنابَةُ عينَ الهِدايَةِ العامَّةِ، فأثمرَتْ هِدايةً خاصَّةً، واهتَدَوْا إليهِ بعدَ أنِ اهتدَوا لهُ بالمُكابَدات: من مَضيقِ العُسرِ إلىٰ فضاءِ اليُسرِ، وبرَزُوا مِن وَهَجِ الاجتهادِ إلىٰ رَوْحِ الأحوال، فسَبقَ اجتهادُهُم كشوفَهُم، والمرادونَ يسبِقُ كشوفُهمُ اجتهادَهُم.

---

(١) أبو سعيد: أحمد بن عيسى الخراز، من أهل بغداد، صحب ذا النون المصري، وسَرِيّاً السقطي، وبشراً الحافي، وغيرهم، وهو من أئمة القوم وجلة المشايخ، قيل: إنه أول من تكلم في الفناء والبقاء، توفي رضي اللّه عنه سنة تسع وسبعين ومئتين. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١: ٢٠٣).

فصلٌ

[حقيقةُ التصُّوفِ والإرادة]

قالَ الجُنَيْد: ما أخذْنا التَّصوُّفَ مِنَ القيلِ والقالِ، ولكنْ عَنِ الجُوعِ، وتركِ الدُّنيا، وقطعِ المألوفاتِ والمُستَحسَناتِ.

وقال ابنُ خَفيف[1]: الإرادةُ: سُموُّ القَلبِ بطلبِ المُراد، وحقيقتُها [١٩/أ] استدامةُ الجِدِّ وتركُ الرَّاحَة. وقالَ أبو عُثمان[2]: المريدُ: الذِي ماتَ قلبُه عن كلِّ شيءٍ دونَ اللهِ، فيريدُ اللهَ وحدَه، ويريدُ قُربَهُ شوقاً، ويشتاقُ إليهِ حتَّىٰ تذهبَ شهَواتُ الدُّنيا عَن قلبهِ شوقاً إلىٰ ربِّه. وقالَ الجُنَيْد: التصوُّفُ: أن يكونَ معَ اللهِ بلا عِلاقَة. وقالَ معروفٌ الكَرْخِي[3]: التصوُّفُ: الأخْذُ

---

(١) ابن خفيف: هو أبو عبد الله محمد بن خفيف، المقيم بشيراز، كانت أمه نيسابورية، وكان شيخَ المشايخ في وقته، صحب رويماً، والجريري، وأبا العباس بن عطاء وغيرهم، وتوفي رحمه الله سنة ٣٧١هـ، كان يقول: الإيمان: تصديق القلب بما أعلمه الحق من الغيوب، ويقول: الخوف: اضطراب القلوب بما علمت من سطوة المعبود، انظر ترجمته في: «طبقات الصوفية» للسلمي ص ٤٦٢، «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠ : ٣٨٥).

(٢) أبو عثمان المغربي: هو سعيد بن سلام، من القيروان من قرية يقال لها: «كره كنت» على ساحل البحر في جزيرة صقلية، صحب أبا علي الكاتب، وأبا عمرو الزجاجي، وأبا يعقوب النهرجوري، لم يُرَ مثله في علو الحال، وصون الوقت، وصحة الحكم بالفراسة، ورد نيسابور، ومات بها سنة ٣٧٣هـ، كان يقول: العاصي خير من المدَّعي، لأن العاصي يطلب توبته، أمَّا المدعي يتخبط في حبال دعواه، انظر ترجمته في: «طبقات الصوفية» للسلمي ص ٤٧٩، «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١ : ١٠٤).

(٣) معروف الكرخي: هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي. ويقال: معروف بن الفيروزان، وقيل: ابن علي. من جلة المشايخ المشهورين والمذكورين بالورع =

بالحقائق، واليأسُ ممَّا في أيدي الخلائق. وقالَ الشِّبْلي[١]: حقيقةُ الفَقرِ: أنْ لا يَستغْنيَ بشيءٍ دونَ الحَق. وقالَ القِرْمِسِينيُّ[٢]: الفقيرُ: الذِي لا يكونُ لهُ إلىٰ اللّهِ حاجَة، يَعني: أنَّهُ مشغولٌ بوظائفِ عُبوديَّتِه، تامُّ الثقةِ بربِّه، عالمٌ بحُسنِ كلاءَتِهِ، لا يُحْوِجُهُ إلىٰ رفعِ الحاجَةِ؛ لعلمِهِ بعلمِ اللّهِ بحالِه، فيرَىٰ السُّؤالَ في ذلكَ نُقصاناً.

الصُّوفيُّ يترُكُ الأشياءَ لا للأعراضِ المَوعودَة، بَل للأحوالِ الموجُودَة، فإنَّـهُ ابنُ وقتِـه. والإرادةُ والاختيـارُ عِلَّـةٌ في حـالِ الصُّـوفي؛ لأنَّـهُ قائـمٌ في الأشياءِ بإرادةِ اللّهِ لا بإرادَةِ نفْسِه، فلا يَرىٰ فضيلةً في صورةِ فقرٍ ولا في صورةِ غنىٰ، وإنَّما يَرىٰ الفضيلةَ فيما يُوقِفُهُ الحقُّ فِيه، ويُدخِلُهُ علَيه، ويعلَمُ الإذنَ مَنَ

= والتقوى، كان أستاذ السريّ السقطي. وصحب داود الطائي، وقبره ببغداد، أسلم معروف على يد عليّ بن موسى الرضا، الذي توفي سنة ٢٠٣هـ مسموماً، وكان معروف بعد إسلامه يحجبه، فازدحم الشيعة يوماً على باب عليّ بن موسى، فكسروا أضلع معروف فمات. انظر ترجمته في: «طبقات الصوفية» للسلمي ص ٨٣، «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٨: ٣٦٠).

(١) الشبلي: هو أبو بكر الشبلي، وهو: دلف بن جحدر، ويقال: ابن جعفر، ويقال: اسمه جعفر بن يونس، والأول أشهر، خراساني الأصل، بغدادي المنشأ والمولد، تاب في مجلس خير النسّاج، صحب الجنيد ومَن في عصره من المشايخ، وصار أوحد وقته حالاً وعلماً، وكان عالماً فقيهاً على مذهب مالك. توفي رحمه الله سنة ٣٣٤هـ، ودفن في مقبرة الخيزران، انظر ترجمته في: «طبقات الصوفية» للسلمي ص ٣٣٧، «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠: ٣٦٦).

(٢) القرمسيني: هو مظفر القرمسيني، نسبة إلى قِرْمِسين، بلدة بجبال العراق، على ثلاثين فرسخاً من همذان، عند دينَوَر (قاله السمعاني في «الأنساب» ١٠: ١١٠). من كبار المشايخ وأجلتهم، ومن الفقراء الصادقين، صحب عبد الله الخراز ومن فوقه، وله كلام حسن. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١: ٢٤٤).

اللهِ في الدُّخـول في الشـيءِ، وقَد يدخُلُ في صورةِ سَعَةٍ مبايِنةٍ للفقرِ بإذنٍ منَ اللهِ، ويَـرىٰ الفضيلـةَ حينَئـذٍ في السَّعَةِ لمكـانِ الإذنِ، ولا يُفْسَحُ في السَّعةِ والدُّخولِ فيها للصَّادِقينَ إلا بعدَ إحكامِهِم عِلمَ الإذن، وفي هذا مزَلَّةُ القَدَم، وبابُ دَعوىٰ [١٩/ب] للمدَّعِين.

وما مِن حالٍ يتحقَّقُ بِهِ صاحبُ الحالِ إلا وقَد عكَسَهُ راكبُ المُحال.

فصلٌ

[في صُحبةِ الشيخِ]

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ حاكياً عَن ربِّهِ: «إذا كانَ الغالبُ علىٰ عبدِي الاشتغالَ بِي جعلتُ هِمَّتَـهُ ولذَّتَـهُ في ذكرِي، فإذَا جعلتُ هِمَّتَـهُ ولذَّتَـهُ في ذكرِي عَشِقَنِي وعشِقتُهُ، ورَفَعتُ الحجابَ فيما بيني وبينَهُ، لا يسهُو إذا سَها النَّاسُ، أولئكَ كلامُهُـم كلامُ الأنبياءِ، أولئكَ الأبطـالُ حقـاً، أولئـكَ الذينَ إذا أردتُ بأهلِ الأرضِ عقوبةً أو عذاباً ذكرتُهُم فصَرَفْتُهُ بهم عَنْهُم»[1].

المريدُ الصَّادِقُ إذا دخلَ تحتَ حكمِ الشيخِ وصُحبَتِه، وتأدَّبَ بآدابِه، سَرىٰ من باطنِ الشيخِ حالٌ إلىٰ باطنِ المُريد، كسراجٍ يَقتبِسُ مِن سِراجٍ، فكلامُ الشيخِ يُلقِّحُ باطنَ المُريد، ويكونُ مقالُ الشيخِ مستودَعَ نفائسِ الحال، وتَنتَقِلُ الحالُ إلىٰ المريدِ بواسطَةِ الصُّحبةِ وسماعِ المَقال، ولا يكونُ هذا إلا لمريدٍ حصَـرَ نفسَـهُ معَ الشَّيخ، وانسلخَ بينَ إرادةِ نفسِـه، وفَنِـيَ في الشيـخِ بتـركِ

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية»، ترجمة عبد الواحد بن زيد (٦ : ١٦٥)، من رواية محمد ابن الفضـل، وعبد الواحد بن زيد عن الحسـن مرسـلاً. قال أبو نُعيم عَقِبَه: وهذا الحديث خارج من جملة الأحاديث المراسيل المقبولة عن الحسن؛ لمكان محمد بن الفضل، وعبد الواحد وما يرجعان إليه من الضعف. انتهىٰ. فالحديث منكرٌ باطل.

اختيارِ نفسه.

فبالتآلُفِ الإلهيِّ يصيرُ بينَ الصَّاحِبِ والمصحُوبِ امتزاجٌ وارتباطٌ بالنسبةِ الرُّوحيَّةِ والظاهِرَةِ الفِطريَّة، ثمَّ لا يزالُ المريدُ معَ الشَّيخِ كذلكَ متأدِّباً بتركِ الاختيار، حتىٰ يرتقيَ: مِن تركِ الاختيارِ معَ الشيخِ إلىٰ تركِ الاختيارِ معَ اللّه، ويَفهَمَ [٢٠/أ] مِنَ اللّهِ ما كانَ يفهَمُ مِنَ الشَّيخ.

ومبدأُ هذا الخيرِ كلِّهِ: الصُّحبةُ والملازَمَةُ للشُّيوخ، فالشيخُ للمريدِ صورةٌ، يَستشِفُّ المريدُ مِن وراءِ هذهِ الصُّورَةِ المطالباتِ الإلهيَّة، والمراضِيَ النبَويَّة، ويعتقدُ المريدُ أنَّ الشيخَ بابٌ فتَحَهُ اللّهُ إلىٰ جنابِ كرَمِهِ، منهُ يَدخُل، وإليهِ يرجِع، ويُنْزِلُ بالشيخِ سَوانِحَهُ ومهامَّهُ الدينيَّةَ والدُّنيَويَّة، ويعتقدُ أنَّ الشيخَ يُنزِلُ باللّهِ الكريمِ كما يُنزِلُ المريدُ بِه، ويَرجِعُ في ذلكَ إلىٰ اللّهِ كما يَرجِعُ المُريدُ إلَيه.

وللشيخِ بابٌ مفتوحٌ مِنَ المُكالَمَةِ والمُحادثَةِ في النَّومِ واليَقَظَة، فلا يتصرَّفُ في المُريدِ بهَواه، فهوَ أمانةُ اللّهِ عندَه، ويستغيثُ إلىٰ اللّهِ بحوائجِ المُريد، كما يستغيثُ بحوائجِ نفسِهِ، ومُهِمَّاتِ دينِهِ ودُنياه. واستقلالُ المريدِ بنفسِهِ: أن ينفَتِحَ لهُ بابُ الفَهمِ مِنَ اللّه، فإذا بلَغَ المريدُ رتبةَ إنزالِ الحوائجِ والمهِمَّاتِ باللّه، والفهمِ منَ اللّهِ بتعرِيفاتِهِ وتنبيهاتِهِ لعبدِهِ السَّائِلِ المُحتاج، فقَد بلَغَ أوَانَ فِطامِه.

فصلٌ

[منهُ]

المريدُ الصادِقُ، المُلتَهِبُ باطِنُهُ بنارِ الإرادَةِ في بدءِ أمرِهِ وحِدَّةِ إرادَتِه، كالملسوعِ الحريصِ علىٰ مَن يُرقِيهِ ويُداويه، فإذا صادفَ شيخاً انبعَثَ مِن باطِنِ

الشيخِ صدقُ العِنايَةِ، وينبعثُ مِن باطنِ المريدِ صدقُ المحبَّةِ بتآلُفِ القُلوب وتَشَامُ الأرواحِ، وظهورِ [٢٠/ب] سِرُّ السَّابِقَةِ فيهما باجتماعِهِما [للّه و] في اللّهِ [و] باللّه.

فصلٌ

[في مَقاصِدِ السَّفَر]

ومن جُملةِ مقاصدِهِم في البِدايَةِ: لقاءُ المشايخِ والإخوانِ الصَّادقينَ؛ فللمُريدينَ بِلقاءِ كلِّ صادِقٍ مَزِيدٌ، وقَد ينفعُـهُ لحـظُ الرِّجال، كما ينفعُهُ لفظُ الرِّجال، ونورانيَّـةُ القَولِ علىٰ قَدرِ نورانيَّةِ القَلب، ونورانيَّـةُ القلبِ بحسْبِ الاستقامَةِ والقيامِ بواجبِ حقِّ الربوبيَّةِ وحقيقَتِها.

ونظَرُ العلماءِ الرَّاسخينَ في العِلم، والرِّجالِ البالغينَ، ترياقٌ نافِـع، يَنظُرُ أحدُهُـم إلى الرَّجلِ الصادقِ واستِئْهالِهِ لمَواهـبِ اللّهِ الخاصّةِ؛ فيقَعُ في قلبِهِ محبَّـةُ الصادِقِ المُريد، ويَنظُرُ إليهِ نظَرَ محبةٍ عن بصيرَة، وهُمُ مِن جنودِ اللّه، فيُكسِبـونَ بنَظَرِهِم أحوالاً سَنِيَّـة، ويَهَبـونَ آثاراً مَرضِيَّـة، وقد كانَ شيخُنا [رحمَه اللّهُ يَطوفُ] في مسجدِ الخَيفِ بمِنَىٰ، ويتَصفَّحُ وجُوهَ النَّاس، فقيلَ لَه في ذلك فقال: للّهِ عبادٌ إذا نظرُوا إلىٰ الشَّخصِ أكسَبُوهُ سعادةً، فأنا أتطلَّبُ ذلك. انتهىٰ.

فصِدقُ الصادقِ يَنُمُّ علىٰ حُسنِ الحال، ويُرزَقُ صاحبُهُ منَ الخُلُقِ حُسنَ الإقبال، وقَلَّما يكونُ صادِقٌ مُتمسِّكٌ بعُروةِ الإخلاص، ذو قلبٍ عامرٍ، إلا ويُرزَقُ قَبولَ الخَلق، فمَن رُزِقَ صُحبَةَ مَن يَندُبُهُ إلىٰ مثلِ هذهِ الأحوالِ السَّنِيَّـة، والعزائمِ القويَّـة [٢١/أ]، تحرُمُ عليهِ المُفارَقَةُ واختيارُ السَّفَر.

ثمَّ إذا أحْكَمَ أمرَهُ في الابتداءِ بلزومِ الصُّحبةِ والاقتداءِ، وارتَوىٰ منَ

الأحوال، وبلغَ مَبلغَ الرِّجال، وانبَجَسَ مِن قلبِه عيونُ ماءِ الحَياة، وصارَت نفسُهُ مكتسِبَةً للسَّعادات، تَستنشِقُ نَفَسَ الرحمٰنِ مِن صدُورِ الصَّادقينَ مِنَ الإخوانِ في أقطارِ الأرض وشاسِعِ البُلدان؛ يشرئِبُّ إلىٰ التآلُف، ويَنبعِثُ إلىٰ التَّطوافِ في الآفاق، يُسيِّرُهُ اللهُ في البلادِ لفائدةِ العِباد، ويستخرجُ بمغناطيسِ حالِهِ خَبْءَ أهلِ الصِّدقِ، والمتطلِّعينَ إلىٰ مَنْ يُخبِرُ عن الحَق، [ويَبْذُرُ] في أراضي القلوبِ نورَ الفَلاح، ويكثُرُ ببركتِهِ ونَفَسِهِ وصُحبتِه أهلُ الصَّلاح.

فصلٌ

[في أدبِ المُطالعة]

يحتاجُ المطالعُ للعلومِ والأخبار، وسِيَرِ أهلِ الصَّلاحِ وحِكاياتِهِم، وأنواعِ الحِكَمِ التي يكونُ [فيها] نجاتُهُ مِن عذابِ الآخِرَة، والأمثالِ، أن يكونَ في ذلكَ كلِّهِ متأدِّباً بآدابِ حُسنِ الاستِماع؛ لأنَّـهُ نوعٌ من ذلك. وكَما أنَّ القلبَ استعَدَّ لحُسنِ الاستماعِ بالزَّهادَةِ والتَّقوىٰ، حتَّىٰ أخَذَ مِن كلِّ ما سمِعَهُ أحسَنَه، فيكونُ آخِذاً بالمُطالعَةِ مِن كلِّ شيءٍ أحسَنَه. ومنَ الأدبِ في المُطالعَةِ: أنْ لا تكونَ بداعِيَةِ نَفْس، وقلَّةِ صبرِها علىٰ الذِّكرِ والتِّلاوَةِ والعَمَل، فيستريحَ بالمُطالعَةِ كَما يتَرَوَّحُ بمجالَسةِ النَّاسِ ومُكالَمتِهِم. فلْيتفقَّدِ المُتفطِّنُ حَالَ نفسِهِ في ذَلك، ولا يَسْتَحْل [٢١/ب] مطالَعةَ الكتُبِ إلىٰ حدٍّ مأخَذِ ذَلكَ مِن وقتِه، ويُراعِ الإفراطَ فِيه، ولا يبادِرْ إلىٰ ذلكَ إلا بعدَ التَّثبُّتِ والإنابَةِ والرُّجوعِ إلىٰ اللّه تَعالىٰ، وطلبِ التأييدِ من رحمةِ اللّهِ فِيه، فإنَّـهُ قَد يُرزَقُ بالمطالَعةِ ما يكونُ مَزيداً لحالِه، ولو قَدَّمَ الاستخارةَ لذلكَ لكان حسَناً، فإنَّ اللّهَ يفتحُ عليهِ بابَ الفهمِ والتَّـفهِيم، موهبةً منَ اللّه، زيادةً علىٰ ما يتبيَّنُ لهُ مِن صُورةِ العِلم.

فَلِلعلمِ صورةٌ ظاهِرَة، وسرٌّ باطِن، وهُوَ: الفَهم، واللّهُ نَبَّهَ علىٰ شرَفِ الفهمِ بقولِه: ﴿ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٩] إشارةً

إلىٰ الفهم بمزيدِ اختِصاص، وتمييزاً عنِ الحُكمِ والعِلم، قالَ اللّهُ تعَالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٢٢].

فإذا كانَ المُسمِـعُ هوَ اللّه، فتارةً يُسمِـعُ باللّسان، وتارةً بما يَرزُقُ مِن مطالعَةِ الكُتبِ منَ التبيان، فصارَ ما يُفتَحُ بمُطالعَةِ الكتُبِ علىٰ مَعنىٰ ما يُرزَقُ مِن مَسموعٍ ببركةِ حُسنِ الاستِماع.

ولْيَتَفَقَّدِ العبـدُ حالَهُ في ذَلك، ويتعلَّـمْ عِلمَهُ وآدَابَه، فإنَّهُ بابٌ كبيرٌ مِن أبوابِ الخَير، وعملٌ صالحٌ مِن أعمالِ المشايخِ والصُّوفيَّةِ والعُلماءِ الزَّاهِدِينَ المُتبتِّلِينَ لِاستِفتَاحِ أبوابِ الرَّحمَة، والمزيدُ من كلِّ شيءٍ ينفعُ لسلوكِ الآخِرَة. وباللّهِ التَّوفِيق.

فصلٌ
[في طلَبِ العلمِ الباطن]

قال رسُـولُ اللّهِ ﷺ: «اطلُبِ العلـمَ ولـو إلىٰ الصِّينِ، فإنَّ طلبَ العلم فريضَةٌ علىٰ كُلِّ مُسلِم»[1] قيلَ: هُوَ طلبُ العلم الباطِنِ[٢٢/أ]، وهُوَ: ما يزدَادُ العبـدُ بهِ يقينـاً. وهذَا هُوَ الذي يُـكتَسَبُ بالصُّحبـةِ ومُجالسةِ الصَّالحيـنَ منَ العلمـاءِ المُوقِنِين، والزُّهادِ المُقرَّبين، الذينَ جعَلَهُمُ اللّهُ من جنودِه، يَسُـوقُ الطالبينَ إليهم، ويُقَرِّبُهُم بطريقِهِم، ويُرشدُهُم بهِم؛ فهُم وُرّاثُ علمِ النبيِّ ﷺ، ومِنْهم يُـتَعَلَّمُ علمُ اليقِين. وقيلَ: طلبُ الإخلاص، ومعرفةُ آفاتِ النُّفوس، وما يُفسِدُ الأعمال، ثمَّ المشايخُ منَ الصُّوفيَّـةِ والعلماءُ الزَّاهِدونَ في الدُّنيا،

---

(١) رواه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٢: ١٥٦). وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١: ٣٠ رقم ٢٢)، والخطيب في «التاريخ» (٩: ٣٦٤)، وشطره الأول موضوع، وأما الشطر الأخير فهو صحيح إن شاء اللّه.

المُشمِّرُونَ عَن ساقِ الجِدِّ في طلبِ العِلمِ المُفترَضِ حتىٰ عَرَفُوه، وأقامُوا الأمرَ والنَّهيَ، وخرَجُوا عن عُهدَةِ ذلكَ بِحُسنِ توفيقِ اللّه.

فلمَّا استقامُوا في ذلكَ مُتابِعينَ لرسولِ اللّهِ ﷺ، حيثُ أمرَهُ اللّهُ بالاستِقامَةِ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هود: ١١٢] فتحَ اللّهُ عليهِم أبوابَ العلُومِ التي سبَقَ ذكرُها. قالَ الإمامُ جعفرٌ الصَّادِقُ[1] رَضِيَ اللّهُ عنهُ في قولِه تَعالىٰ: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾: افتقِرْ إلىٰ اللّهِ بهمَّـةِ العَزمِ، فكَما أنَّ النبيَّ ﷺ بعـدَ مقدِّمـاتِ المُشاهَـدة؛ خُوطِبَ بهـذَا الخِطـاب، وطُولِبَ بحقـائِقِ الاستِقامَة؛ فعلماءُ الآخرَةِ الزَّاهِدُون، ومشايخُ الصُّوفيَّـةِ المقرَّبُون، مَنَحَهُمُ اللّهُ مِن ذلكَ بِقسطٍ ونَصِيب، ثُمَّ ألهمَهُمُ اللّهُ طلَبَ النُّهوضِ بواجبِ حقِّ الاستِقامَة. ورُوِيَ: الاستقـامَةُ أفضلُ مَطلُوب، وأشرَفُ مأمُول. فسبيـلُ الصَّـادِقِ مُطالَبَةُ النَّفسِ بالاستِقامَة، فهِيَ كلُّ الكَرامَة.

ويُنبِئُـكَ عن شـرفِ علمِ الصُّوفيَّـةِ وزَهادَةِ العُلمـاء: أنَّ العلومَ كلَّها لا يَتعذَّرُ تحصيلُها معَ محبَّـةِ الدُّنيا، والإخلالِ بحقائِقِ التَّقوىٰ [٢٢/ب]، وربَّما كانَ محبَّـةُ الدُّنيا معيناً علىٰ اكتسابِها؛ لأنَّ الاشتغالَ بها شـاقٌّ على النُّـفوس، فجُبِلَـتِ النُّـفوسُ علىٰ محبَّـةِ الجاهِ والرِّياسَـةِ والرِّفعَـة، حتىٰ إذا استَشْعَرَت

---

(١) جعفر بن محمد: هو جعفـر بن محمد الصادق، الإمام: جعفر بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وأمه: فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين. كان إماماً نبيلاً، أخذ الحديث عن أبيه وجده، وله كرامات كثيرة، ومكاشفات شهيرة. ومن كلامه: لا يتم المعروف إلا بثلاث: أن تصغِّره في عينيك، وتستره، وتعجِّله. وقال: إذا أقبلـت الدنيـا على إنسان أعطته محاسـن غيره، وإذا أدبرت سلبتـه محاسـن نفسه. توفي رحمه الله سنة ١٤٨هـ، وقيل: ١٤٦هـ. انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٣: ١٩٢)، «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١: ٢٨).

حصولَ ذلكَ بحصولِ العِلم، أجابتْ إلىٰ تحمُّلِ الكُلَفِ وسهَرِ اللَّيل، والصَّبرِ علىٰ الغُربةِ والأسفار، وتركِ الملاذِّ والشَّهوات. وعلومُ هؤلاءِ القومِ مُتَعَسِّرَةٌ لا تحصُلُ معَ محبَّةِ الدُّنيا، ولا تنكشفُ إلا بمُجانَبةِ الهَوىٰ، ولا تُدرَّسُ إلا في مَدرسَةِ التَّـقوىٰ. قالَ تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]: جعلَ العلمَ ميراثَ التَّـقوىٰ، وغيرُ علومِ هؤلاءِ متيسِّرَةٌ مِن غيرِ ذلكَ بلا شَك.

فعُلِمَ فضلُ الآخرَةِ حيثُ لَم يكشِفِ النِّقابَ إلا لأولي الألبَاب، وأولُو الألبَابِ حقيقةً هُم: الزَّاهِدُونَ في الدُّنيا. ولاحَ لِعُلماءِ الآخِرَةِ أنَّ الطريقَ مسدودٌ إلىٰ أنصِبَةِ المَعارِف، ومقَاماتِ القُرْبِ، إلا بالزُّهدِ والتَّـقوىٰ.

قالَ شيخُنا: فبصفاءِ التَّـقوىٰ وكمالِ الزَّهادَةِ يصيرُ العبدُ راسِخاً في العِلم. والمتَّـقِي حقَّ التَّـقوىٰ، والزَّاهدُ حقَّ الزَّهَادةِ في الدُّنيا: مَنْ صَفَا باطِنُهُ، وانجلَتْ مرآةُ قلبِه، ووقَعتْ لَهُ مُحاذاةٌ بشيءٍ من اللَّوحِ المحفُوظ، فأدركَ بصفاءِ البَاطنِ أُمَّهاتِ العُلومِ وأصُولَها، فيَعلَمُ منتَهىٰ أقدامِ العلماءِ في عُلومِهِم، وفائدةَ كلٍّ.

والعلومُ الجزئيَّةُ مُتجزِّئَةٌ في النُّفوس بالتَّعليم والمُمَارَسَةِ، ولا يُغنيهِ عِلمُهُ أن يُراجِعَ في الجُزئيِّ أهلَهُ الَّذينَ هُم أَوعِيَتُه، فنفوسُ هؤلاءِ امتلأت مِنَ الجُزئـي، واشتغَلَت بِـه، وانقطَعَت بِهِ عَنِ الكُلِّـي، ونفـوسُ العُلماءِ [٢٣/أ] الزَّاهدينَ بعدَ الأخذِ ممَّا لا بُدَّ مِنهُ في أصلِ الدِّين وأساسِه منَ الشَّرع، أقبَلُوا علىٰ اللّه، وانقَطَعوا إليهِ، وخلَصَتْ أرواحُهُم إلىٰ مقامِ القُربِ مِنه، فأفاضَتْ أرواحُهم علىٰ قلوبِهِم [أنواراً] تهيَّأت بِها قلوبُهُم لإدراكِ العُلوم، فأرواحُهُم ارتَقَت عَن حدِّ إدراكِ العُلوم، بِعكوفِها على العالَمِ الأزَلِيّ، وتجرَّدَتْ عَن وجودٍ يَصلُحُ أن يكونَ وعاءً للعِلم، وقلوبُهم بنسبةِ وَجْهِها الذي يلي النُّفوس، صارَتْ أوعيةً وجُوديَّـة، فتألَّفَتِ العُلومَ، وتألَّفَتْها العُلومُ؛ بمناسَبَةِ انفصالِ

العُلومِ باتِّصالِها باللَّوحِ المحفُوظ.

والمعنيُّ بالانفِصال: انتِقاشُها في اللَّوحِ لا غَير. وانفصالُ القلوبِ عن مقامِ الأرواحِ: بوجودِ انجذابِها إلىٰ النُّفوس، فصارَ بينَ المنفصلَيْنِ بنسبةٍ: اشتِراكٌ مُوجِبٌ للتألُّف، فحصَلَتِ العلومُ بذلك، فصارَ العالِمُ الربَّانيُّ راسِخاً في العِلم.

فصلٌ

[في حُسنِ الاستماع]

أساسُ كلِّ خيرٍ حُسنُ الاستِماع؛ قالَ تَعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، فمَن تملَّكَتْهُ الوَساوِسُ، وغلَبَ علىٰ باطِنِه حديثُ النَّفسِ، لا يقدِرُ علىٰ حُسنِ الاستماع.

فالصُّوفيَّةُ وأهلُ القُربِ لمّا علِموا أنَّ كلامَ اللّهِ رسائِلُهُ إلىٰ عِبادِهِ ومُخاطَباتُهُ إيّاهُم؛ رَأَوْا كلَّ آيةٍ من كلامِ اللّهِ [٢٣/ب] بحْراً مِن أبحُرِ العِلم، بما يَتضمَّنُ مِن ظاهِرِ العِلمِ وباطِنِه، وجَليِّه وخَفيِّه، ورَأَوْا كلامَ رسولِ اللّهِ ﷺ ـ الذي لا ينطِقُ عَنِ الهَوىٰ، إنْ هُوَ إلاّ وحيٌ يوحىٰ ـ مِن عندِ اللّهِ، يَتعيَّنُ الاستِماعُ [إليه]، ورأَوْا أنَّ حُسنَ الاستماعِ: قَرْعُ بابِ الملكُوت، واستِنزَالُ بركةِ الرَّغَبوتِ والرَّهَبُوت، ورَأَوْا أنَّ الوَساوِسَ دَواخِنُ ثائِرةٌ مِن نارِ النَّفسِ الأمّارَةِ بِالسُّوء، وقَتَامٌ[1] يتراكمُ مِن نَفْثِ الشَّيطان، وأنَّ الحظوظَ العاجِلَةَ، والأقسامَ الدُّنيويَّةَ التي هيَ مَناطُ الهَوىٰ، ومَثارُ الرَّدىٰ، بمثابةِ الحَطَبِ الذي بِهِ تزدادُ النّارُ تأجُّجاً، ويزدادُ القلبُ بِهِ تحرُّجاً، فرفَضُوا الدُّنيا، وزَهِدوا فيها.

---

(١) القتام: الغبار الأسود.

فلمّا انقطَعَتْ مِن نارِ النَّفس أحطَابُها، وفَتَرَتْ نِيرانُها، وقلَّ دُخَانُها، شهِدَتْ بواطِنُهم وقلوبُهُم مصادِرَ العُلومِ ومواردَها فيها بصفاءِ الفُهوم، فلمّا شهدوا: استمَعُوا. قالَ تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

قالَ الشِّبلي: موعظةُ القرآنِ [تَنساقُ] لمَن كانَ قلبُهُ حاضِراً معَ اللّه، لا يغفُلُ عنهُ طرفَةَ عَينٍ. قالَ يحيىٰ بنُ مُعاذ(١): قلبٌ قَدِ احتَشَىٰ بأشغالِ الدُّنيا، حتىٰ إذا حضَرَ أمرٌ مِن أمورِ الآخِرَة؛ لم يَدْرِ صاحبُهُ كيفَ يصنعُ مِن شُغلِ قلبِهِ بالدُّنيا، وقلبٌ قَدِ احتَشىٰ بأحوالِ الآخِرةِ [٢٤/أ] حتىٰ إذا حضَرَهُ أمرٌ مِن أمورِ الدُّنيا، لم يَدْرِ صاحبُهُ، لِذَهابِ قلبِهِ في الآخِرَة. فانظُرْ كَم بينَ بركَةِ الأفهام الباقِيَة، وشُؤمِ هذهِ الأشغالِ الفانِيَة، التي أقعدَتْكَ عن الطَّاعَة.

قالَ بعضُهُم: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾: سَليمٌ مِنَ الأعراض، لا يخطُرُ فيهِ إلا شهودُ الرَّب، وأنشَد: [بسيط]

أنعَىٰ إليكَ قُلوباً طالما هَطَلَتْ سَحائبُ الوَحْيِ فيها أبحُرَ الحِكَمِ

قالَ ابنُ عَطاء: قلبٌ لاحَظَ الحقَّ بعينِ التَّعظيم؛ فذابَ لهُ وانقطَعَ إليهِ عما سِواه، فالقلبُ إذا ذاقَ طعمَ العِبادَة، عُتِقَ مِن رِقِّ الشَّهوَة. قالَ سَهل: القلبُ رقيقٌ تؤثِّرُ فيهِ الخطَراتُ المَذمُومَة، وأثرُ القليلِ عليهِ كثير، فالقلبُ عَمَّالٌ لا يفتُر، والنَّفسُ يقظَانَةٌ لا ترقُد، فإنْ كانَ مُستمِعاً إلىٰ اللّه، وإلا فهُوَ مستمِعٌ منَ الشَّيطانِ والنَّفس. فكلُّ شيءٍ يَسُدُّ بابَ حُسنِ الاستِماعِ فمِن حركةِ

---

(١) يحيىٰ بن معاذ: هو ابن جعفر الرازي الواعظ، كان يتكلم في علم الرجاء، وأحسن فيه الكلام، خرج إلى بلخ وأقام بها مدة، ثم رجع إلىٰ نيسابور ومات بها سنة ٢٥٨هـ. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١: ٦٩).

النَّفسِ، وفي حركتِها يتطرَّقُ الشَّيطانُ إلىٰ الوَسْوَسَة.

وقلبُ الصُّوفيِّ نازِلَهُ حلاوةُ الحُبِّ الصَّافي، والحبُّ الصَّافي: تعلُّقُ الرُّوحِ بالحَضرَةِ الإلهيَّة، ومِن قوَّةِ انجذابِ الرُّوحِ إلىٰ الحَضرَةِ الإلهيَّةِ بداعيَةِ الحُبِّ؛ يستتبعُ القلبُ النَّفسَ، وحلاوةُ الحُبِّ للحضرَةِ الإلهيَّةِ تغلِبُ حلاوةَ الهوىٰ؛ لأنَّ حلاوةَ الهَوىٰ كشجرةٍ خبيثَةٍ اجتُثَّتْ مِن فوقِ الأرضِ ما لَها مِن قَرار؛ لِكونِها لا ترقىٰ عَن حدِّ النَّفسِ، وحلاوةُ الحُبِّ كشجرةٍ طيِّبَةٍ أصلُها [٢٤/ب] ثابتٌ وفرعُها في السَّماء؛ لأنَّها مُتأصِّلَةٌ في الرُّوحِ، فرعُها عندَ اللّٰهِ وعرُوقُها ضارِبَةٌ في أرضِ النَّفسِ، فإذا سَمِعَ الكلِمَةَ مِنَ القُرآنِ أو مِن كلامِ رسولِ اللّٰهِ ﷺ تُبَشِّرُ بِها الرُّوحُ والقَلبُ والنَّفسُ، ويَفْديها بكُلِّيَّتِهِ ويقُول:

[بسيط]

أشُمُّ مِنكَ نسيماً لستُ أُنكِرُهُ ... أظُنُّ ميَّاءَ جَرَّتْ فيكَ أرْدانَا

فَتَعُمُّهُ الكَلِمَةُ وتشمَلُه، وتصيرُ كلُّ شَعَرةٍ منه سمعاً، وكلُّ ذرَّةٍ منهُ بصراً، فيَسمَعُ الكلَّ بالكُل، ويُبصِرُ الكُلَّ بالكُل: [خفيف]

إنْ تأمَّلتُكُمْ فكلِّي عُيُونٌ ... أو تذكَّرْتُكُم فكُلِّي قلُوبُ

فصلٌ

[في الاستجابةِ للّٰهِ ورسُولِه ﷺ]

قالَ بعضُهم: اللُّبُّ والعَقلُ مئةُ جُزء، تسعةٌ وتسعُونَ مِنها في النَّبِيِّ ﷺ، وجزءٌ في سائرِ المُؤمنين، قالَ تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قالَ الجُنَيْد: تنسَّمُوا أرواحَ ما دَعاهُم؛ فأسرَعُوا إلىٰ مَحْوِ العَلائِقِ المُشغِلَة، وهجَمُوا بالنُّفوسِ علىٰ معانَقَةِ الحَذَر، وتجرَّعُوا مرارَ المكابَدَة،

وصدقُوا اللّهَ في المُعامَلَة، وأحسَنُوا الأدبَ فيما توجَّهُوا إلَيه، وهانَتْ عليهِم المَصائِب، وعرَفُوا قدرَ ما يطْلُبون، وسَجَنُوا نُفوسَهُم عَنِ التقلُّبِ إلىٰ مذكورٍ سِوىٰ وَليِّهِم، فَحَيَوْا حياةَ الأبَدِ بالحيِّ الذي لَم يزَلْ ولا يَزال.

فحياةُ النُّفوس بمتابَعةِ الرَّسول ﷺ، وحياةُ القلوبِ بِمُشاهَدَةِ الغُيوب، وهُوَ الحياءُ منَ اللّهِ برُؤيَةِ التَّقْصِير، فالاستجابَةُ علىٰ قدْرِ [٢٥/أ] السَّماع، والسَّماعُ علىٰ قَدْرِ الفَهم، والفهمُ علىٰ قَدْرِ المعرِفَةِ بقَدْرِ الكَلام، والمعرفَةُ بالكلامِ علىٰ قدرِ المعرفَةِ والعلمِ بالمُتكَلِّم.

ووجوهُ الفهم لا تنحَصِرُ؛ لأنّ وجوهَ الكلامِ لا تَنحصِر ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩].

فصلٌ

[في الفَهْم عنِ اللّهِ تعالىٰ]

قالَ أبو الدَّرْداء: لا يَفقَهُ الرَّجلُ كلَّ الفِقهِ حتىٰ يرىٰ القرآنَ وجُوهاً كثيرَة.

فما أعجبَ قولَ ابنِ مَسعُود: ما مِن آيةٍ إلا ولَها قومٌ سيعملُونَ بِها. وهذَا مُحَرِّضٌ لكلِّ طالبِ صاحَبِ [هِمَّةٍ]: أنْ يُصَفِّيَ مواردَ الكلام، ويفْهَمَ دقيقَ معانِي وغوامِضِ أسرارِهِ من قلبِه.

فللصوفيِّ ــ بكمالِ الزُّهدِ في الدُّنيا، وتجريدِ القلبِ عما سِوىٰ اللّه ــ مطلعٌ من كلِّ آيَة، ولهُ بكُلِّ مرَّةٍ في التِّلاوَةِ مطلعٌ جدِيد، فَفَهْمُهم يدعُو إلىٰ العلمِ، والعلمُ يدعُو إلىٰ العمَل، وعمَلُهم يجلِبُ صفاءَ الفَهمِ ودقيقَ النَّظرِ في معانِي الخِطاب.

فمِنَ الفهمِ علمٌ، ومنَ العَمَل عِلْم، والعلمُ والعملُ يتَناوَبانِ فيه، وهذا العملُ المذكورُ آنِفاً [إنّما هُوَ] عمَلُ القلوب، [وعملُ القلوبِ] غيرُ عملِ القالَب،

وأعمالُ القلوبِ للُطفِها وصَفَائها[1] مُشاكِلَةٌ لِلعلُوم؛ لأنَّها نيّاتٌ وطوِيّاتٌ وتملُّقاتٌ روحيَّـةٌ، وتأدُّباتٌ قلبيَّـةٌ ومُسامَراتٌ سَريَّـة، وكلَّما أتَوا بعملٍ مِن هذهِ الأعمالِ وَقَعَ لهُم علمٌ منَ العَمل، واطَّلعُوا علىٰ مَطلعٍ من فهمِ الآيةِ جديد، ويخالِجُ سِرِّي أنْ يكونَ المَطلَعُ ليسَ بالوُقوفِ بصفاءِ الفهمِ علىٰ دقيقِ المَعنىٰ وغامضِ السِّرِّ في الآيَة، ولكنَّ المَطلَعَ: أنْ يطَّلِعَ عندَ كُلِّ آيةٍ علىٰ شهودِ المُتكلِّم بها؛ لأنَّها مُستَودَعُ وصفٍ مِن أوصافِه، ونعتٍ مِن [٢٥/ب] نُعوتِه، فيتجدَّدُ لَهُ التجلِّياتُ بتلاوةِ الآياتِ وسَماعِها، وتصيرُ لَه مَرَائيَ مُنبِئَةً عن عِظَمِ الجَلال.

فصلٌ

[في الأربعينيّة]

ليسَ المطلوبُ ــ منَ الأربعينَ ــ شيئاً مخصُوصاً لا يطلبُونَهُ في غيرِها، ولكنْ لمَّا طرقَتْهم مخالفاتُ حُكمِ الأوقات؛ أحبُّوا تقييدَ الوقتِ بالأربعين؛ رجاءَ أنْ ينسحِبَ حكمُ الأربعينَ علىٰ جميعِ زمانِهم، فيكونُوا في جميعِ أوقاتِهِم كهيئَتِهِـم في الأربَعيـن، علىٰ أنَّ الأربعينَ خُصَّتْ بالذكْرِ في قولِ رسولِ اللّه ﷺ: «مَن أخلصَ للّهِ أربعيـنَ صباحاً؛ ظهَرتْ ينابيـعُ الحِكمـةِ مِن قلبِهِ علىٰ لِسانِه»[2].

---

(١) في الأصل المخطوط: (وصلافتها)، وفي مطبوعة دبي من «العوارف» (١: ٤١): (صلافها)، وفي المطبوعة المصرية القديمة (بذيل الإحياء) ص ٥١: (صداقتها)! وأثبتناها: (صفائها) لمناسبتها للمعنىٰ، واللّه أعلم.

(٢) أخرجه هنّاد في «الزهد» (رقم ٦٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥: ١٨٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣: ٢٣١) عن مكحول مرسلاً، بإسنادٍ صحيح.

فصلٌ

[في فضلِ الأربَعينيةِ وثمَرتِها]

[العلـومُ اللَّدُنّيَّةُ في قلوبِ المنقَطِعِيـنَ إلى اللّهِ تعـالىٰ][١] ضَربٌ مِنَ المُكالَمَة، ومَنِ انقطعَ إلىٰ اللّهِ أربعينَ يوماً: مُخلِصاً، مُتَعاهِداً نفسَهُ بِخفّـةِ المَعِدَة؛ تُفتَحُ عليهِ العُلومُ اللَّدُنّـيَّـة، كما أخبرَ رسولُ اللّهِ ﷺ بِذلك. فالتبتُّـلُ لطاعةِ اللّهِ تَعالىٰ، والإقبالُ علَيه، والانتزاعُ عَنِ التوجُّهِ إلىٰ أمرِ المعاشِ: بِكلِّ يومٍ يُخرِجُ مِن حجابٍ، وهُوَ بمعنًى مودَعٌ فيهِ [و] علىٰ قدرِ زوالِ كلِّ حجابٍ يتخذُ مَنزلاً في القُرْبِ مِنَ الحضْرةِ الإلهيَّـةِ التي هِيَ مجمعُ العلومِ ومصدَرُها، فإذا تمَّتِ الأربعونَ زالَتِ الحجُبُ وانصبَّتْ إليهِ العلومُ انصِباباً.

ثُمَّ العلـومُ والمعارفُ هِيَ أعيـانٌ انقلبَـتْ [أنواراً] باتِّصـالِ إكسيرِ نورِ العظَمَةِ الإلهيَّـةِ بها، فانقلَبَتْ أعيانُ أحاديثِ النَّـفس عُلوماً إلْهاميَّـة، وتصدَّتْ أجرامُ حديثِ النَّـفس لِقَبولِ [٢٦/أ] أنوارِ العظمَة، فلَولا وجودُ النَّـفس وحَديثُها ما ظهرَتِ العلومُ الإلْهاميَّـة؛ لأنَّ حديثَ النَّـفسِ وِعاءٌ وُجوديٌّ لقَبولِ الأنوَار، وما للقَلبِ في ذاتِهِ لقبولِ العِلمِ شَيءٌ.

فالعبدُ ـ بانقطاعِـهِ إلىٰ اللّهِ واعتزالِ النَّاسِ ـ يقطعُ مسافاتِ وجُودِه، ويستنبطُ من معدِنِ نفسِهِ جواهِرَ العُلوم.

ففي كلِّ يومٍ ـ بإخلاصِهِ في العملِ ـ يكشِفُ طبقةً مِنَ الطبقاتِ التُّرابيَّـةِ الجبلِّـيَّـةِ المُبعِدَةِ عَنِ اللّه، إلىٰ أن ينكشِفَ ـ باستكمالِ الأربعينَ ـ في كلِّ يومٍ طبقةٌ مِن أطباقِ حجابِه. وآيَةُ صِحَّةِ هذا العبدِ وتأثُّرِهِ بالأربعينَ، ووفائِهِ بشروطِ الإخلاص: أن يَزهَدَ بعدَ الأربعينَ في الدُّنيا، ويتَجافىٰ عن دارِ الغُرور، ويُنيبَ

---

(١) من «العوارف» (١ : ٣٥٦).

إلىٰ دارِ الخُلود؛ لأنَّ الزُّهدَ في الدُّنيا مِن ضرورةِ ظهورِ الحِكمَة، ومَن لَم يزهَدْ في الدُّنيا ما ظفِرَ بالحِكمَة، ومَن لم يظفَرْ بالحِكمةِ بعدَ الأربعينَ: تبيَّنَ أنَّـهُ أخَلَّ بالشُّروط، ولَم يُخلِصْ للهِ تَعالىٰ، ومَن لم يُخلِصْ للهِ ما عَبَدَ الله؛ لأنَّ اللهَ أمَرَ بالإخلاصِ كَما أمَرَ بالعمَل، فقالَ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعۡبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وعن النبيِّ ﷺ: «يقولُ الرَّبُّ للإخلاص: انطلِقْ أنتَ وأهلُكَ إلىٰ الجَنَّـة، ويقولُ للشِّرك: انطلِقْ أنتَ وأهلُكَ إلىٰ النَّـار. ويقولُ الربُّ للإخلاص: سِرٌّ مِن سِرِّي أودَعْتُـهُ قلبَ مَن أحبَبْتُـهُ مِن عِبادِي»[١].

فصلٌ

[في فضائل الخَلْوةِ ومَنافعِها]

مِنَ النَّـاس مَنْ [٢٦/ب] يدخُلُ الخَلْـوةَ علىٰ مُراغَمـةِ النَّـفس؛ إذِ النَّـفسُ بطبعِهـا كارِهـةٌ للخَلْـوَة، ميَّـالَةٌ إلىٰ مُخالَطَـةِ الخَلْـق، فإذا أزعجَهـا عن مَقارِّ عادَتِها، وحبَسَهـا علىٰ طاعَـةِ الله؛ يَعْقُبُ كلَّ مرارةٍ تدخُـلُ علَيها حـلاوةٌ في القَلب.

قـالَ ذو النُّـون: لَم أرَ أبعَـثَ علىٰ الإخـلاصِ منَ الخَلْـوَة، ومَن أحـبَّ الخَلْوَةَ فقَدِ استمْسَكَ بعَمُودِ الإخلاص، وظَفِرَ برُكنٍ مِن أركانِ الصِّدق.

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذ: الوِحدَةُ مُنْيَـةُ الصدِّيقين.

ومنَ النَّاسِ مَن تنبعثُ داعيَةُ الخَلوةِ مِن باطِنِه، وتنجذِبُ النَّـفسُ إلىٰ

---

(١) أخرجه الحاكم في كتاب «الكُنىٰ»، كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٥: ١١٨) وفيه محمد بن أشرس، كذّاب.

ذَلك، وهذا أتَمُّ وأكمَلُ وأدَلُّ علىٰ كمالِ الاستعدَاد، [فإنّهم] إذا أخلَصُوا للّهِ في خَلَواتِهِم؛ يَفتَحُ اللّهُ عليهِم ما يُؤنِسُهُم في خَلَواتِهِم تَعويضاً مِنَ اللّهِ إياهُم عما تَرَكُوا لأجْلِه. ثمَّ خَلوَةُ القومِ مُستمِرَّة، وإنما الأربعونَ واستكمالُها لَهُ أثرٌ في ظهورِ مبادىءِ بشائرِ الحقِّ سُبحانَه، وسُنُوحِ مَواهِبِهِ السَّنِيَّـة.

القومُ اختارُوا الخَلوةَ والوِحدَةَ لسلامَةِ الدِّين، وتَفَـقُّدِ أحوالِ النَّـفس، وإخلاصِ العمَلِ للّه. أبو نُعيم المَغربيُّ رحمَهُ اللّهُ يقول: مَنِ اختارَ الخَلوةَ علىٰ الصُّحبَة، ينبغي أن يكونَ خالياً مِن جميعِ الأذكارِ إلاّ ذكْرَ ربِّه، ومِن جميعِ المُرادَاتِ إلا مرادَ ربِّه، وخالياً مِن مطالَبَةِ النَّـفسِ مِن جميعِ الأسباب، فإنْ لَم يكُنْ بهذِه الصِّفَةِ فإنَّ خَلوَتَهُ توقِعُهُ في فِتنَـةٍ وبليَّـة.

وقالَ أبو بكرٍ الورَّاقُ[(١)]: وجَدْتُ[٢٧/أ] خيرَ الدُّنيا والآخِرَةِ في الخَلْوَةِ والقِلَّـة، ووجدُتُ شرَّهُما في الكَثرةِ والاختِلاط.

والعبدُ إذا أخلَصَ للّه، وأحسنَ النِّـيَّـة، وقعدَ في الخَلوةِ أربعينَ يوماً أو أكثَر: فمنهُم مَن يُباشِرُ باطِنَهُ صَفْوُ اليقين، ويُرفَعُ الحجابُ عن قَلبِه، ويصيرُ كَمـا قـالَ قائِلُهم: «رأىٰ قلبِي ربِّي»، وقَد يصِـلُ إلىٰ هـذا المقامِ تارةً بإحياءِ الأوقاتِ بالصَّالِحاتِ، وكفِّ الجوارِح، وتوزيعِ الأورادِ مِنَ الصَّلاةِ والتِّلاوَةِ والذِّكر، وكلُّ هذهِ مواهبُ مِنَ اللّهِ تَعالىٰ.

وقد يُـكاشَفُ بِها قومٌ، وتُغَطَّىٰ علىٰ قَوم، وقَد يكونُ فوقَ هؤلاءِ مَن لا يكونُ لهُ شيءٌ مِن هذا؛ لأنَّ هذهِ كلَّها تقويةٌ لليقين، ومَن مُنحَ صِرْفَ اليقينِ لا

---

(١) أبو بكر: محمد بن عمر الحكيم الوراق، أصله من ترمذ، وأقام ببلخ، لقي أحمد بن خضرويه وغيره، له التصانيف المشهورة في الآداب والمعاملات، من كلامه رضي الله عنه: خضوع الفاسقين أفضل من صولة المطيعين. انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني (١: ٢٠٢).

حاجةَ لَهُ إلىٰ شيءٍ مِن هذهِ، فكلُّ هذهِ الكراماتِ دُونَ ما ذكَرْناهُ مِن تَجَوْهُرِ الذِّكرِ في القَلب، ووجودِ ذِكْرِ الذَّات، فإنَّ تلكَ الحِكمةَ فيها تقويةُ المُريدِين، وتربيةُ السَّالكِين؛ ليزدَادُوا بها يقيناً يُجذَبُونَ بهِ إلىٰ مُراغَمَةِ النُّفوس، والسُّلُوِّ عَن ملاذِّ الدُّنيا. ويُستَنْهَضَ بذلكَ ساكنُ عزمِهِم لعِمَارةِ الأوقاتِ بالقُرُبات؛ فيُرَوِّحُونَ بذلِك، ويُرَبَّوْنَ بطريقِه.

ومَن كُوشِفَ بِصِرْفِ اليقِينِ من ذَلك؛ فلِمكانِ أنَّ نَفْسَهُ أسرَعُ إجابَةً، وأسهلُ انقياداً، وأتمُّ استِعداداً، والأوَّلونَ أُسْتُلِينَ منهُم ما استَوْعَر، واستُكشِفَ منهُم ما استَتَر.

فصلٌ

[في أعمالِ الخَلْوة]

ليعلَم الصَّادِقُ أنَّ المقصودَ مِنَ الخَلْوةِ: التَّقرُّبُ [٢٧/ب] إلىٰ اللهِ تَعالىٰ، بعِمَارَةِ الأوقات، وكفِّ الجوارِحِ عن المكرُوهات، فيصلُحُ لقومٍ مِن أربابِ الخَلْوَةِ إدامَةُ الأورادِ وتَوزيعُها علىٰ الأوقات، ويصلُحُ لقومٍ دوامُ المُراقَبَة، ويصلُحُ لقومٍ الانتقالُ مِنَ الذِّكرِ إلىٰ الأوراد، ولقومٍ الانتقالُ مِنَ الأورَادِ إلىٰ الذِّكر، ومعرفةُ مقاديرِ ذلكَ يعلَمُهُ الشَّيخُ المصحوبُ، المطَّلعُ علىٰ اختلافِ الأوضاعِ وتنوُّعِها، معَ نُصحِهِ للأمَّةِ وشفَقَتِهِ علىٰ الكافَّة، يريدُ المُريدَ للهِ، لا لنَفْسِه، غيرَ مُبتَلىً بهَوَىٰ نفسِهِ، ومُحبٍّ للاسْتِتباع، فما يُفسِدُهُ مثلُ هذهِ أكثرُ ممَّا يُصلِحُه.

كانَ يُقال: ما أخلَصَ عبدٌ للهِ أربعينَ صباحاً إلا أنبتَ اللهُ الحِكْمَةَ في قَلبِهِ، وزَهَّدَهُ في الدُّنيا، ورغَّبَهُ في الآخِرَة، وبَصَّرَهُ داءَ الدُّنيا ودَواءَها[١].

---

(١) كذا، وراجع حديث الأربعينية، ص ٧٦ من هذا الكتاب.

وقِيلَ: لا تَطمَعْ في المَنزِلَةِ عِندَ اللهِ وأنتَ تريدُ المَنزِلَةَ عندَ النَّاس. وهذا بابٌ يَنفَسِدُ بِهِ كثيرٌ منَ الأعمالِ إذا أُهمِل، ويَنْصَلِحُ بِهِ كثيرٌ منَ الأعمالِ إذا اعتُبِر.

ويكونُ في خَلوَتِهِ جَاعِلاً وقتَهُ شيئاً واحِداً مَوهُوباً للّهِ بإدامةِ فعلِ الرِّضا، إما تلاوةً أو ذِكراً أو صلاةً أو مُراقَبَةً.

وأيَّ وقـتٍ فَتَرَ عَن هـذهِ الأقسامِ يَنام، وإن أرادَ أن يُعيِّـنَ أعـداداً مِنَ الرَّكَعـات، ومِنَ التِّـلاوةِ والذكرِ شيئاً فشَيْئـاً، وإن أرادَ أن يكـونَ ــ بحُكمِ الوقتِ ــ يعتَمِدُ أخفَّ ما علىٰ قلبِه مِن هذهِ الأقسام، فإذا فَتَرَ عَن ذلكَ يَنام، وإن أرادَ بَقِـيَ في سُجودٍ واحـدٍ أو في [٢٨/أ] ركعَةٍ واحدَةٍ أو في رَكعتَيْنِ أو ساعَتَيْن، ويُلازِمُ في خَلوَتِهِ دوامَ الوُضوء.

فصلٌ

[فيمَن يَطوِي للّه تعالىٰ]

قِيلَ لسَهلِ بنِ عبدِ الله: هذا الَّذي يأكُلُ في كُلِّ أربَعينَ أو أكثرَ أكْلَةً واحِدَة: أينَ يُذهِبُ لَهَبَ الجُوعِ؟ قالَ: يُطفِيهِ النُّور.

وقَد سألْتُ بعضَ الصَّالِحينَ عَن ذلِك، فذكَرَ كلاماً بِعبارَةٍ تَدُلُّ علىٰ أنَّهُ يَجِدُ فرَحاً بربِّهِ ينطَفِىءُ معَهُ لهَبُ الجُوع، وهذا في الخَلْقِ واقِـعٌ: أنَّ الشَّخصَ يَطرُقُهُ فرَحٌ وقَد كانَ جائِعاً، فيذهَبُ عَنهُ الجُوع. وهَكذا في طَريقِ الخَوْفِ يقَعُ ذلِك، ومَن فَعَلَ ذلِكَ ودَرَجَ نَفسَهُ في شيءٍ مِن هذهِ الأقسامِ الَّتي ذكَرناها، لا يُؤثِّـرُ ذلكَ في نُقصـانِ عَقلِـهِ واضطِرابِ جِسْمِـه إذا كانَ في حِمايَـةِ الصِّدقِ والإخلاص، وإنَّما يُخشَىٰ في ذلكَ وفي دَوامِ الذِّكرِ علىٰ مَن لا يُخلِصُ للّهِ تعالىٰ.

ومَن يَطوِي للّهِ خالِصاً، يُعَوِّضْهُ فرَحاً في باطِنِه يُنْسِيهِ الطَّعام، وقَدْ لا يَنسىٰ الطَّعامَ ولكِنَّ امتلاءَ قلبِهِ بالأنوارِ يُقوِّي جاذِبَ الرُّوحِ الرُّوحاني، فيجذِبُهُ إلىٰ مستقَرِّهِ ومركَزِهِ من العالَمِ الرُّوحانـي، ويقفُو[1] بذلِكَ عوارِضَ الشَّهوةِ النَّفسانِيَّة، وما أثَرُ جاذِبِ الرُّوحِ ـ إذا تَخلَّفَ عَنهُ جاذِبُ النَّفسِ عِندَ كمالِ طُمأنينَتِهـا وانعكاسِ أنوارِ الرُّوحِ عَليها بواسِطَةِ القلـبِ المُستَنِيـرِ ـ بأقلَّ مِن جاذِبِ المغناطِيسِ لِلحَدِيد!

فإذا تَجَنَّسَتِ النَّفسُ بعكسِ نورِ الرُّوحِ الواصلِ [٢٨/ب] إلَيها بواسِطَةِ القَلب؛ يصيرُ في النَّفسِ رُوح استمَدَّها القلبُ منَ الرُّوحِ وأدَّاها إلىٰ النَّفس، فتجذِبُ الرُّوحُ النَّفسَ بجنسيَةِ الرُّوحِ الحادِثَةِ فيه، فتزدَرِي الأطعِمَةَ الدُّنيوِيَّـةَ والشَّهَواتِ الحَيوانِيَّـة.

ويتحقَّـقُ بمعنىٰ قـولِ رسـولِ اللّه ﷺ: «أَبِيـتُ عِنـدَ ربِّـي يُطعِمُني ويَسْقِيني»[2].

قالَ سَهلُ بنُ عبدِ اللّه: لا يَزْهَدُ عبدٌ حقِيقَةَ الزُّهدِ الذي لا مَثْنَوِيَةَ[3] فيه، إلاَّ بِمُشاهَدَة قُدرَةِ المَلَكُوت.

---

(١) أي: يمحو، يقال: قفا اللّهُ أثرَه يَقفُوهُ: عَفّاه ومحاه، كما في «القاموس».

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب الصوم، باب الوصال (رقم ١٩٦١ ـ ١٩٦٤) من حديث أنس، وعبد اللّه بن عمر، وأبي سعيد الخدري، وعائشة، رضي اللّه عنهم، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلو. (رقم ٧٢٩٩) من حديث أبي هريرة. ومسلمٌ في «الصحيح»، كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال (رقم ١١٠٢ ـ ١١٠٥) من حديث: ابن عمر، وأبي هريرة، وأنس، وعائشة، رضي اللّه عنهم.

(٣) في الأصل (مشوبة)، والمثبت من «العوارف» (١ : ٣٨٣).

فصلٌ

[في أخلاقِ الصُّوفيّـة]

قالَ ابنُ عطاءٍ: الخُلُقُ العَظيمُ: أن لا يكونَ لهِ اختِيار، ويكونَ تَحتَ الحُكمِ معَ فَناءِ النَّفسِ وفَناءِ المَألوفات.

فالصُّوفِيَّةُ رضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ راضُوا نفوسَهُم بالمُكابَدات والمُجاهَدات؛ حتَّىٰ أجابَتْ إلىٰ تَحسينِ الأخْلاق. وكَم [نفْس] تُجيبُ إلىٰ الأعمَال، وجَمَحَتْ عَن الأخلاَق. [فنفُوسُ العُبّادِ أجابتْ إلىٰ الأعمالِ، وجَمَحَتْ عنِ الأخلاقِ]، ونفوسُ الزُّهّادِ أجابَتْ إلىٰ بعضِ الأخلاَقِ دُونَ البَعْض، ونفوسُ الصُّوفيَّةِ أجابَتْ إلىٰ الأخلاقِ الكَريمَةِ كُلِّها.

فصلٌ

[مِنْ أحسَنِ أخلاقِهم: التواضُع]

فمِن أحسَنِ أخلاقِ الصُّوفيَّةِ: التَّواضُع، ولا يلبَسُ العبدُ لَبْسَةً أجمَلَ منَ التَّواضُع. ومَن ظَفِرَ بِكَنْزِ التواضُعِ والحِكمةِ يُقِيْمُ نفسَهُ عندَ كلِّ أحدٍ مِقداراً يعلَمُ أنَّـهُ يُقِيْمُه، ويُقِيْمُ كلَّ أحدٍ علىٰ ما عِندَهُ مِن نَفْسِهِ، ومَن رُزِقَ هذَا فقَدِ استراحَ وأراحَ، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

سُئِـلَ الجُنَـيْدُ رحِمَهُ اللّهُ عَنِ التَّواضُـع؛ فقـالَ: خَفْضُ الجَناح، ولِينُ الجانِب [٢٩/أ].

وسُئِلَ الفُضَيْلُ[١] عنِ التواضع؛ فقال: تخضَعُ للحقِّ وتَنقادُ له، وتقبَلُهُ

---

(١) الفضيل بن عياض: أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي اليربوعي، شيخ الحرم المكي، أحد الأئمة، كان ثقةً في الحديث، أخذ عنه خلق كثير منهم: =

ممّنْ قالَهُ، وتسمَعُ منه. وقال: مَن رأىٰ لنفسِه قيمةً؛ فليس لهُ منَ التواضعِ نصيب. وقال: مَن عرَفَ كَوَامِنَ نفْسِه؛ لم يطمَعْ في العلُوِّ والشرَفِ، وسَلَكَ سَبيلَ التواضع، ولا يُخاصِمُ مَن يَذُمُّه، ويَشكُرُ اللّهَ لِمَن يحمَدُه.

قال أبو حَفْص[1]: مَن أحبَّ أن يَتواضعَ قلبُه؛ فلْيصْحَبِ الصّالحينَ ولْيلتزِمْ خِدمتَهم، فمِن شِدّةِ تواضُعِهم في أنفُسِهم يقتدي بهم ولا يتكبّر. انتهىٰ.

ومتىٰ لم يكُنْ للصُّوفيِّ حظٌّ في التواضعِ الخاصِّ علىٰ بِساطِ القُرْبِ، لا يتوفَّرُ حظُّه مِنَ التواضعِ للخَلْق، وهذه سعادةٌ إذا أقبَلَتْ، جاءَتْ بكلِّيتِها. والتواضعُ مِن أشرفِ أخلاقِ الصُّوفية.

فصلٌ

ومِن أخلاقِ الصُّوفيةِ: المُداراةُ واحتمالُ الأذىٰ منَ الخَلْق. فالمُداراةُ معَ كلِّ أحَدٍ: منَ الأهلِ والولد، والجيرانِ والأصحاب، والخَلْقِ كافّةً: مِن أخلاقِ الصُّوفية.

وباحتمالِ الأذىٰ يظهَرُ جوهَرُ النفْس.

وقيل: لكلِّ شيءٍ جوهر، وجوهرُ الإنسانِ العقل، وجوهرُ العقلِ الصبر.

= عبد اللّه بن المبارك، وكانت أوقاته معمورة بالصدق والإخلاص، توفي سنة ١٨٧هـ. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١ : ٥٨).

(١) أبو حفص: عمر بن مسلمة الحداد النيسابوري، من قرية يقال لها: كورَداباذ (على مدينة نيسابور على طريق بخارىٰ) كان يقول: فساد الأحوال من ثلاثة: فسق العارفين، وخيانة المحبين، وكذب المريدين. توفي رضيَ اللّه عنه سنة نيف وستين ومئتين. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١ : ٧٠).

فما شيءٌ يُستدَلُّ بِهِ علىٰ قوةِ عقلِ الشخصِ ووفورِ علمِه وحِلمِه كحُسنِ المُداراة. والنفسُ لا تزالُ تشمئزُّ ممَن يعكِسُ مُرادَها، ويَستفِزُّها الغيظُ والغضَب. وبالمُداراةِ قطْعُ حَمَّةِ[1] النّفْسِ وردُّ طَيْشِها ونفورِها. [٢٩/ب].

[قيلَ] شعراً في معنىٰ [لينِ] جانبِ الصُّوفية: [بسيط]

هيْنُونَ لَيْنُونَ أيسارٌ بَنُو يَسَرٍ	سُوَّاسُ مَكرُمةٍ أبناءُ أَيْسَارِ
لا يَنطِقُونَ عنِ الفحشاءِ إنْ نطَقُوا	ولا يُمارُونَ إن مارُوا بإكثارِ
مَن تلْقَ منهُم تقُلْ لاقَيْتُ سيِّدَهمْ	مِثلُ النجومِ التي يَسرِي بها السّاري

في الحديث: «مَن أُعطِيَ حَظَّه منَ الرِّفْقِ؛ فقد أُعطِيَ حَظَّه منَ الخير، ومَن حُرِمَ الرِّفْقَ؛ فقد حُرِمَ حَظَّه منَ الخير»[2].

فصلٌ

ومِن أخلاقِ الصُّوفيةِ رضيَ اللّهُ عنهم: الإيثارُ والمواساة، ويَحمِلُهم علىٰ ذلكَ فَرْطُ الشَفَقةِ والرحمةِ طبعاً، وقوةُ اليقينِ شرعاً؛ لأنهم يُؤثِرونَ بالموجود، ويصبِرُونَ عنِ المفقود، فما حمَلَ الصُّوفيَّ علىٰ الإيثارِ إلاّ طهارةُ نفْسِه وشرَفُ غريزتِه، وما جعَلَه [اللّهُ تعالىٰ] صوفياً إلا بعدَ [أنْ] سَوّىٰ غريزتَه لذلك، فكلُّ مَن كان غريزتُه السخاءَ يُوشِكُ أن يكونَ صُوفياً، [بلِ] الغريزةُ ــ لِطَهارتِها ــ تنجَذِبُ إلىٰ مُرادِ الحقِّ لا لِعِوَض، وذلكَ أكمَلُ السَّخاء، وهُوَ مِن أظهَرِ الغرائز.

---

(١) الحَمَّة ــ بالفتح ــ: كلُّ عينٍ فيها ماءٌ حارٌّ يَنبُع. «القاموس». ووجهُ التشبيه بين الحَمّةِ، وفَوَرانِ النفس وطَيْشِها: واضحٌ.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٦: ١٥٩، ٤٥١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (رقم ٤٦٤)، والترمذي في «الجامع»، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الرفق (رقم ٢٠١٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، من حديث أم المؤمنين عائشة رضيَ الله عنها.

فصلٌ

ومِن أخلاقِ الصُّوفيةِ رضيَ اللّهُ عنهمُ: التجاوزُ والعفْوُ ومقابلةُ السيّئةِ بالحسَنة. قال سفيانُ: الإحسانُ: أن تُحسِنَ إلىٰ مَن أساء إليك.

وقال الحسَن: أن تَعُمَّ ولا تخُصَّ، كالشمسِ والرِّيح والغيْث.

فصلٌ

ومِن أخـلاقِ الصُّوفيةِ: البِشْرُ وطلاقةُ الوجْـهِ معَ النـاس، فالبِشْرُ علىٰ وجْهِهِ مِن آثارِ أنوارِ قلبِه. وقد يُنازِلُ باطنَ الصُّوفيِّ منازلاتٌ إلهيّـةٌ ومواهبُ قُدوسيّـةٌ يرتَوي منها [١/٣٠] القلبُ ويمتلىءُ فرَحاً وسروراً. قال اللّهُ تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ الآية [يونس: ٥٨].

والسرورُ إذا تمكّنَ منَ القلب، فاضَ علىٰ الوجْهِ آثارُه، فإذا تنعَّمَ القلبُ بلذيذِ المُسامَرةِ ظهَرَ البِشْرُ علىٰ الوجْهِ. فأربابُ المشاهدةِ منَ الصُّوفيةِ تنوَّرتْ بصَائرُهم بنُورِ المشاهدة، وانصَقَلَتْ مِرآةُ قلوبِهم، وانعكَسَ فيها نورُ الجمالِ الأزليّ، وإذا أشرَقَتِ الشمسُ علىٰ المِرآةِ المصقُولة؛ استَنارتِ الجِدارات. قال اللّهُ تعالىٰ: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

فإذا تأثَّرَ الوجْـهُ بسجـودِ الظِّـلال، وهِـيَ القوالـبُ في قـولِـه تعـالىٰ: ﴿وَظِلَـٰلُهُم﴾ [الرعد: ١٥]، كيف لا يتأثرُ بشهودِ الجَمَال؟

فصلٌ

ومِن أخلاقِ الصُّوفيةِ رضيَ اللّهُ عنهم: السُّهولةُ ولينُ الجانب، والنزولُ معَ الناسِ لأخلاقِهِمْ وطبائِعِهم، وترْكُ التعسُّفِ والتكلُّف.

وصَفَ بعضُهم طاووسَ فقال: كان معَ الصبيِّ صَبِيّاً؛ ومعَ الكهْلِ كهلاً، وكان فيه مُزَاحةٌ إذا خلا. وكان ابنُ سِيرينَ يُمازِحُ أصحابَهُ ويمزَحونَ عندَهُ

ويخرُجونَ مِن عندِه وهم يضحَكون. وكان أصحابُ رسُولِ اللّهِ ﷺ يتَبادَحُونَ بالبِطِّيخ[١]، فإذا كانتِ الحقائقُ كانوا همُ الرجال.

ولا يَصلُحُ الإكثارُ مِن ذلك للمُريدينَ المبتدئين، لقلّةِ علمِهم ومعرفتِهم بالنفس، وتعدِّيهم حدَّ الاعتدال. فللنفْسِ في هذه المَواطنِ نَهَضاتٌ ووَثَباتٌ تجُرُّ إلىٰ الإفساد، وتجنَحُ إلىٰ العِناد، فالنزولُ إلىٰ طبائعِ الناس يَحسُنُ لمَن صعِدَ عنهم وترقّىٰ لعلوِّ حالِه ومقامِه؛ فينزِلُ إليهم وإلىٰ طِباعِهم ـ حينَ ينزلُ ـ بالعِلم [٣٠/ب].

فأمّا مَن لم يصعَدْ بصفاءِ حالِه عنهم، وفيه بقيّةُ مَزْجٍ مِن طِباعِهم ونفوسِهِمُ الجامحةِ الأمّارةِ بالسُّوء، إذا دخَلَ في هذهِ المداخل؛ أخَذَتِ النفْسُ حظَّها واغتَنَمَت مآربَها واستَرْوَحَتْ إلىٰ الرُّخصة. والنزولُ إلىٰ الرُّخصةِ يَحسُنُ لمَن رَكِبَ العزيمةَ غالبَ أوقاتِه، وليس ذلكَ شأنَ المبتدىء.

فللصُّوفيةِ العُلماءِ فيما ذكَرْناهُ ترويحٌ، [و] يعلَمونَ حاجةَ القلبِ إلىٰ ذلك. والشيءُ إذا وُضِعَ للحاجةِ يتقدَّرُ بقَدْرِ الحاجة، وذلك عِلمٌ غامضٌ لا يَسلَمُ لكلِّ أحَد.

قال سعيدُ بنُ العاصِ[٢] لابنِه: اقتَصِدْ في مِزَاحِك، فالإفراطُ فيه يذهَبُ بالبهاءِ، ويُجرِّىءُ عليكَ السُّفَهاء، وتركُهُ يُغِيظُ المؤانِسينَ ويُوحِشُ المُخالِطين.

---

(١) أي: يترامَوْنَ به.

(٢) سعيد بن العاص: بن سعيد بن العاص بن أُمية، الأموي، قُتل أبوه ببدر، وكان عمره عند وفاة النبي ﷺ تسع سنين، وهو معدود في الصحابة، ولي إمرة الكوفة لعثمان رضي الله عنه، وإمرة المدينة لمعاوية، توفي سنة ثمانٍ وخمسين، وقيل غير ذلك. «التقريب» (ص ٢٨٣).

وقال بعضُهم: المِزاحُ مَسْلَبَةٌ للبهاء، مَقْطَعةٌ للإخاء[١].

فصلٌ

ومِن أخلاقِ الصُّوفيةِ رضيَ اللهُ عنهم: التودُّدُ والتآلُف. [والتودُّدُ والتآلفُ] منَ ائتلافِ الأرواح.

وقيل: طاعةُ المحبةِ أفضلُ مِن طاعةِ الرَّهبة، فإنّ طاعةَ المحبةِ مِن داخل، وطاعةُ الرَّهبةِ مِن خارج، ولهذا المعنىٰ كانتْ صُحبةُ الصُّوفيةِ مُؤثِّرةً منَ البعض؛ لأنهم لمّا تَحابُّوا في الله؛ تواصَوْا بمَحاسنِ الأخلاق، ووقَعَ القَبولُ [بينَهم] لوجودِ المحبّة؛ فانتفَعَ لذلكَ المريدُ بالشيخ، والأخُ بالأخ.

والتودُّدُ والتآلفُ يؤكِّدانِ أسبابَ الصُّحبة. والصُّحبةُ معَ الأخيار مُؤثِّرةٌ جداً!

وقد قيل: لقاءُ الإخوانِ لَقاح. ولا شكَّ أنّ البَواطنَ [٣١/أ] تَلْتَقِحُ ويَتَقوّىٰ البعضُ بالبعض؛ بل مجرَّدُ النظرِ إلىٰ أهلِ الصَّلاحِ يُؤثِّرُ صلاحاً، والنظرُ إلىٰ الصُّوَرِ يؤثِّرُ أخلاقاً مُناسِبةً لخُلُقِ المنظورِ إليه، كدوامِ النظرِ إلىٰ المحزونِ يُحزِن، ودوامُ النظرِ إلىٰ المسرورِ يَسُرّ.

وقيل: مَن لا ينفَعُكَ لَحظُهُ لا ينفَعُكَ لفظُه. والجمَلُ الشَّرُودُ يصيرُ ذَلولاً بمُقارنةِ الجمَلِ الذَّلول، والمُقارنةُ لها تأثيرٌ في الحيوانِ والنباتِ والجماد، والماءُ والهواءُ يَفسُدانِ بمُقارَبةِ الجِيَف، والزَّرعُ [يُنَقّىٰ] عن أنواعِ العروقِ في الأرضِ والنباتِ لموضعِ الإفسادِ بالمُقارنة. وإذا كانتِ المُقارنةُ مؤثِّرةً في هذه الأشياءِ ففي النفوسِ البشَريةِ الشريفةِ أكثرُ تأثيراً.

---

(١) أي: إذا زاد عن حدِّ القصد والاعتدال، كما تقدَّم.

وقيل: يُسَمّىٰ الإنسانُ إنساناً لأنه يأنَسُ بكلِّ ما يراهُ مِن خيرٍ أو شرّ.

والتودُّدُ والتآلُفُ مُستجلِبٌ للمزيد، وإنّما العُزْلةُ والوَحْدةُ تُحمَدُ بالنسبةِ إلىٰ أراذلِ الناسِ وأهلِ الشرّ، وأمّا أهلُ العِلمِ والصَّفاءِ والوفاءِ والأخلاقِ الحميدةِ تُغتَنَمُ مقاربتُهم، والاستئناسُ بهمْ استئناسٌ باللّه، كما أنّ محبّتَهم مِن محبةِ اللّه، والجامعُ معَهم رابطةُ الحقِّ، ومعَ غيرِهم رابطةُ الطبع.

فالصُّوفيُّ معَ غيرِ الجِنسِ كائنٌ بائن، ومعَ الجنسِ كائنٌ مُعاين، والمؤمنُ مِرآةُ المؤمن، إذا نظَرَ إلىٰ أخيه يَستَشِفُّ مِن وراءِ أقوالِه وأعمالِه وأحوالِه تجلِّياتٍ إلهيّةً، وتعريفاتٍ وتلويحاتٍ منَ اللّهِ الكريمِ خَفيّةً، غابَتْ عنِ الأغيار، وأدرَكَها أهلُ الأنوار.

فصلٌ

ومِن أخلاقِ الصُّوفيّةِ [٣١/ب]: شكرُ المُحسنِ عنِ الإحسان، والدُّعاءُ لَه، وذلكَ مِنهُم معَ كمالِ توكُّلِهم علىٰ ربِّهم، وصفاءِ تَوحيدِهم، وقطعِ النظرِ إلىٰ الأغيار، ورؤيتِهمُ النِّعَمَ منَ المُنعِمِ الجبّار. ولكنْ يَفعلُونَ ذلكَ اقتداءً برسولِ اللّهِ ﷺ.

فالصُّوفيُّ في الابتداءِ يُفني الخَلق، ويَرىٰ الأشياءَ مِنَ اللّه، حيثُ طالَعَ ناصيةَ التّوحيد، وخرَقَ الحِجابَ الذي مَنعَ الخلْقَ عَن صِرْفِ التّوحيد، فلا يُثْبتُ لِلخَلْقِ مَنعاً ولا عَطاءً، ويحجُبُهُ الحقُّ عن الخَلْق، فإذا ارتقَىٰ إلىٰ ذِرْوَةِ التّوحيدِ يشكرُ الخَلقَ بعدَ شُكرِ الحَق، ويُثْبِتُ لَهُم وجوداً في المَنعِ والعَطاء، بعدَ أن يَرىٰ المسبِّبَ؛ وذلكَ لِسَعَةِ علمِه، وقوّةِ معرفَتِه، يُثْبِتُ الوسائط. فلا يحجُبُهُ الخَلْقُ عَنِ الحَقِّ كأربابِ الإرَادَةِ والمُبتَدِئِين، فيكونُ شكرُهُ للحَقِّ؛ لأنّهُ المُنْعِمُ والمُعطِي والمُسَبِّبُ، ويَشْكُرُ الخَلقَ لأنّهُم واسِطَةٌ وسَبَب.

فصلٌ

ومِن صفاتِ الصوفيَّةِ: بَذْلُ الجاهِ للإخوَانِ والمُسلمينَ كافَّة. فإذا كانَ الرَّجُلُ وافرَ العِلم، بصيراً بعيُوبِ النَّفسِ وآفاتِها وشهَواتِها، يتوَصَّلُ إلىٰ قضاءِ حوائجِ المُسلمينَ ببذلِ الجاهِ والمُعاوَنة، وإصلاحِ ذاتِ البَيْن.

وفي هذا المَعنىٰ يُحتاجُ إلىٰ مزيدِ علم؛ لأنَّها أمورٌ تتعلَّقُ بالخَلقِ ومخالَطتِهم ومُعاشَرتِهم، ولا يصلُحُ ذلكَ إلا لصوفيٍّ تامِّ الحالِ عالمٍ ربّاني. وقالَ عَطاءٌ[1]: لأن يُرائيَ الرَّجُلُ سِنينَ يكتَسِبُ جاهاً يَعيشُ فيهِ مُؤمنٌ، أتمُّ لَهُ مِن أن يُخلِصَ العَمَلَ لِنَجاةِ نَفسِه.

وهذا بابٌ غامِضٌ لا يُؤمَنُ أن يَفتَتِنَ بِهِ خَلْقٌ مِنَ الجُهّالِ [٣٢/أ] المُدَّعِين، ولا يَصْلُحُ هذا إلا لِعبدٍ اطَّلعَ اللّهُ علىٰ باطِنِه، فعَلِمَ أنَّهُ لا رَغبةَ لَهُ في شيءٍ مِنَ الجاهِ والمَال، ولو أنَّ مُلوكَ الأرضِ وقَفُوا في خِدمَتِه، ما طَغىٰ ولا استَطال، ولو دَخَلَ أتُّوناً[2] يُوقَدُ، ما ظهَرَتْ نَفْسُهُ بصريحِ الإنكارِ لِهَذا الحَال.

وهذا لا يَصْلُحُ إلا لآحادٍ منَ الخَلْق، وأفرادٍ مِنَ الصَّالِحينَ الصَّادِقين، يَنْسَلِخونَ مِن إرادَتِهم واختيارِهم، ويُكاشِفُهُمُ اللّهُ بمُرادِهِ مِنهُم، فيَدخُلُونَ في الأشياءِ بمُرادِ اللّه، فإذا عَلِموا أنَّ الحَقَّ يُريدُ مِنهُم المُخالَطَةَ وبذْلَ الجاهِ، يدخُلونَ في ذَلكَ بغَيْبَةِ صفاتِ النَّفس، وهذا لأقوامٍ ماتُوا ثمَّ حُشِروا، وأحكَمُوا مقامَ الفَناء، ثُم رُقُّوا إلىٰ مَقامِ البَقاء، فيكونُ لهُم ــ في كلِّ مدخلٍ ومخرَجٍ ــ بُرهانٌ وبيانٌ وإذْنٌ مِنَ اللّهِ، علىٰ بصيرةٍ مِن ربِّهِم، [وهذا] ليسَ فيهِ

(١) عطاء: ابن أبي رباح، القرشي مولاهم، المكي، الفقيه العابد، مفتي الناس بمكة، تتلمذ علىٰ ابن عباس، توفي سنة أربع عشرة ومئة. «التقريب» (ص ٥٦).

(٢) ومعناه: الموقد الكبير.

ارتيابٌ لصاحِبِ قلبٍ مُكاشَفٍ بصريحِ [المرادِ في خَفِيِّ] الخِطاب، فيأخُذُ وقتَهُ مِنِ الأشياءِ، ولا تأخُذُ الأشياءُ مِن وقتِه، ولا يكونُ هذا إلا في كلِّ قُطرٍ منَ الأقطارِ واحدٌ متحقِّقٌ بهذا الحَال[1].

فصلٌ

[في مكانةِ الأدَبِ منَ التصَوُّف]

الأدبُ: تهذيبُ الظاهرِ والباطِنِ، فإذا تهَذَّبَ ظاهرُ العبدِ وباطنُهُ صارَ صُوفياً أديباً.

إنَّ اللّهَ خلَقَ الإنسانَ وهيَّأهُ لقَبُولِ الصَّلاحِ والفسَاد، وجعلَهُ أهلاً للأدَبِ، ومكارِمِ الأخلاق ــ ووجودُ الأهليَّةِ فيهِ كوجودِ النَّارِ في الزِّناد، ووجودِ النَّخلِ في النَّوىٰ ــ وألهَمَهُ وأمكنَهُ مِن إصلاحِهِ بالتربيَةِ إلىٰ أن يصيرَ النَّوىٰ نخلاً، والزِّنادُ [٣٢/ب] بالعلاجِ حتَّىٰ تخرُجَ منه نارٌ.

فصلٌ

[في محْوِ الغِلِّ بنُورِ التوفيق]

قَد يكونُ الغِلُّ في النَّفسِ معَ مَن يُشاكِلُهُ ويُماثِلُهُ لوجودِ المُنافَسة، ومنِ استَقْصىٰ في تذويبِ النَّفسِ بنارِ الزَّهادَةِ، يُمحىٰ الغِلُّ مِن باطِنِه، ولا تبقىٰ عندَهُ مُنافَسةٌ دنيويَّةٌ في حظوظٍ عاجِلَةٍ: من جاهٍ ومَال.

قالَ اللّهُ عزَّ وجَلَّ في وصفِ أهلِ الجنَّة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

قالَ أبو حَفص: كيفَ يبقىٰ الغِلُّ في قلوبٍ ائتلَفَتْ باللّه، واتَّفَقَتْ علىٰ

---

(١) وبنحوه جاء سياق العبارة في «العوارف» (١: ٤٨٥)، وفيه إرباك.

محبَّتِه، واجتمعَتْ علىٰ مودَّتِه، وأنِسَتْ بذكْرِه؟ فإنَّ تلكَ قلوبٌ صافِيةٌ مِن هواجِسِ النُّفوس، وظُلُماتِ الطَّبائِع، بل كُحِلَتْ بنورِ التَّوفيق، فصارَتْ كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾.

فهكذَا قلوبُ أهلِ التصوُّفِ والمُجتمِعينَ علىٰ الكلِمَةِ الواحِدَةِ منَ الالتزامِ بشروطِ الطَّريق، والانكبابِ علىٰ الظَّفَرِ بالتَّحقِيق.

والناسُ رجُلان: رجُلٌ طالِبٌ ما عندَ اللّٰه، ويدعُو إلىٰ ما عِندَ اللّٰهِ نفسَهُ وغيرَه، فما لِلمُحِقِّ الصُّوفيِّ ــ معَ هذا ــ مُنافَسةٌ ومِراءٌ وغِلّ، فإنَّ هذا معَهُ في طريقٍ واحدَةٍ ووِجْهةٍ واحدَة، وأخوهُ ومُعِينُهُ، والمؤمنونَ كالبُنْيانِ يشُدُّ بعضُه بعضاً.

ورجُلٌ مفتَتِنٌ بشيءٍ مِن محبَّـةِ الجاهِ والمالِ والرِّياسَةِ ونظرِ الخَلْق، فما للصُّوفيِّ معَ هذا مُنافَسَة؛ لأنَّـهُ زهِدَ فيما رغِبَ فيه. فمِنْ شأنِ الصُّوفيِّ أن ينظُرَ إلىٰ مثلِ هذا نظرَ رحمَةٍ وشفَقَة، حيثُ يَراهُ محجُوباً مُفتتِناً، فلا ينطوِي علىٰ غِلّ، ولا يُمارِيـهِ في [٣٣/أ] الظَّاهِـرِ علىٰ شـيء، لعلمِهِ بظهورِ نفسِهِ الأمّارَةِ بالسُّوءِ في المِراءِ والمُجادَلَة.

فنفْسُ الصُّوفيِّ قد تبدَّلَتْ صِفاتُها، وذهبَ عنها صِفَةُ الشَّيْطَنَةِ والسَّبُعِيَّـة، وتبدَّلَتْ بالرِّفقِ واللِّينِ والسُّهولَةِ والطُّمأنِينَة.

فصلٌ

[في الرِّضا بالمقدور]

الحُكمُ بالحقِّ ــ في الغَضَبِ والرِّضا ــ لا يَحْصُلُ [إلا] مِن عالِمٍ ربّاني، أميرٍ علىٰ نفسِـهِ يُصرِّفُها بعقلٍ حاضِـرٍ وقلـبٍ يقْظان، ونظـرٍ إلىٰ اللّٰهِ بحُسنِ الاحتِساب.

والصُّوفيُّ صاحِبُ الرِّضا والرَّوْحِ والرَّاحَة، قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

وصَلافَةُ قلبِ الصُّوفيِّ وحالُهُ يقذِفُ زَبَدَ الغِلِّ والحِقد، كما يقذِفُ البَحرُ الزَّبَدَ، لِمَا فيهِ مِن تلاطُم أمواجِ الأُنسِ والهَيْبَة. ونظرُ الصُّوفيِّ عندَ الغَضبِ إلىٰ اللهِ، ثُمَّ تَقواهُ تَحمِلُهُ علىٰ أن يزِنَ حرَكاتِهِ وأقوالَهُ بميزانِ الشَّرعِ والعَدْل، ويتَّهِمَ النَّفسَ بعدَمِ الرِّضا بالقَضاء.

قيلَ لبَعضِهِم: مَن أقهَرُ النَّاسِ لنفْسِه؟ قالَ: أرضاهُم لِلمَقْدور.

وإذا اتَّهَمَ الصُّوفيُّ النَّفْسَ تَدارَكَهُ العِلم، وإذا لاحَ لَهُ عِلمُ العِلمِ قَوِيَ القَلْبُ وسَكَنَتِ النَّفْس، وعادَ دَمُ القَلبِ إلىٰ مَوضِعِهِ ومَقارِّه، واعتدَلَ الحالُ، وغاضَتْ حُمْرَةُ الخَدّ، وبانَتْ فضيلَةُ العِلم.

قالَ عليهِ السَّلامُ: «السَّمْتُ الحَسَنُ والتُّؤدةُ والاقتِصادُ جُزءٌ مِن أربعَةٍ وعِشرينَ جُزءاً مِنَ النُّبُوَّة»[1].

فصلٌ

ومِن أخلاقِ الصُّوفيَّةِ: تَركُ التكلُّف، وذلكَ أنَّ التكلُّفَ: تصنُّعٌ وتعمُّلٌ وتَمايلٌ علىٰ النَّفسِ لأجْلِ النَّاس، وذلكَ يُبايِنُ حالَ الصُّوفيَّة، وفي بعضِهِ خفيُّ مُنازَعةٍ للأقدار، وعدمُ الرِّضا بما قسَمَ الجبَّار.

ويُقال: التَّصوُّفُ تركُ التكلُّف.

---

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» كتاب البر والصلة، باب ما جاء في التأني والعجلة، (رقم ٢٠١٠) وقال: هذا حديث حسن غريب. والطبراني في «الصغير» (رقم ١٠٦٧)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١: ١٠١)، من حديث عبد الله بن سرجس المزني رضيَ اللّه عنه.

ويُقال: التكلُّفُ: تخلُّفٌ [٣٣/ب] عَن شَأْوِ الصَّادِقين.

رَوَىٰ أنسٌ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: شَهِدْتُ وَليمةً لرسولِ اللّهِ ﷺ ما فِيها خُبزٌ وَلا لَحْمٌ[١].

والتكلُّفُ مذمومٌ في جميعِ الأشياءِ، كالتكلُّفِ في الملبوسِ للنَّاسِ من غيرِ نيَّةٍ فيه، والتكلُّفِ في الكلامِ، وزيادةِ التملُّقِ الذي صار دَأْبَ أهلِ الزَّمانِ، فما يكادُ يَسْلَمُ مِن ذلكَ إلا آحادٌ وأفرادٌ، والتملُّقُ مُبايِنٌ لحالِ الصُّوفيَّةِ.

وليسَ من شأنِ أهلِ الصِّدقِ كثرةُ الكلامِ، والتكلُّفُ للناسِ بزيادةِ التملُّقِ والثَّناءِ عليهِم، وإظهارِ التفصُّح.

فصلٌ

ومِن أخلاقِ الصُّوفيَّةِ نَفَعَ اللّهُ بِهِم: الإنفاقُ من غيرِ إقتارٍ، وتركُ الادِّخارِ، وذلكَ أنَّ الصُّوفيَّ يَرىٰ خزائنَ فضلِ الحَقِّ، فهُوَ بمثابةِ مَن هُوَ مُقيمٌ علىٰ شاطِئِ البَحرِ، لا يدَّخِرُ الماءَ في قِربَتِه وزاويتِه.

الصُّوفيُّ كلُّ خَباياهُ في خِزانةِ اللّهِ لصدقِ توكُّلِه، وثقتِهِ بربِّهِ، فالدُّنيا للصُّوفيِّ كدَارِ الغُربَةِ، ليسَ لهُ فيها ادِّخارٌ، ولا لَهُ منها استِكثارٌ.

قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «لو توكَّلتُم علىٰ اللّهِ حقَّ توكُّلِهِ لَرَزَقَكُم كما يَرزُقُ الطَّيرَ، تغدُو خِمَاصاً وتَرُوحُ بِطَاناً»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»، كتاب النكاح، باب اتخاذ السراري، ومن أعتق جاريته ثم تزوجها (رقم ٥٠٨٥)، ومسلم في «الصحيح»، كتاب النكاح، باب فضل إعتاقه أمته ثم يتزوجها (رقم ١٣٦٥)، من حديث أنس رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١: ٣٠، ٥٢)، والترمذي في «الجامع»، في أبواب الزهد، باب في التوكل على اللّه (رقم ٢٣٤٤) وقال: حسن صحيح. والحاكم في=

فصلٌ

ومِن أخلاقِ الصُّوفيَّةِ: القناعةُ باليسيرِ من الدُّنيا. قالَ ذو النُّون: مَن قَنِعَ استراحَ من أهلِ زمانِه، واستَطالَ علىٰ أقرانِه.

وقالَ بِشر: لو لم يكُنْ في القناعةِ إلا التَّمتُّعُ بالعِزِّ لِصاحِبِهِ لكَفىٰ.

وقالَ أبو بكرٍ المَراغيُّ: العاقلُ مَن دبَّرَ أمرَ القناعَةِ بالتَّسويف، ودبَّرَ أمرَ الآخِرَةِ بالحِرصِ والتَّعجيل.

وقالَ يحيىٰ بنُ مُعاذ: من قَنِعَ بالرِّزقِ [٣٤/أ] فقَد ذهبَ بالآخِرةِ وطابَ عيشُه.

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللّهُ وجهَه[١]: القناعةُ سيفٌ لا يَنْبُو[٢].

وقالَ رسولُ اللّه ﷺ: «القناعةُ مالٌ لا يَنفَد»[٣].

وقالَ عمرُ: سَلُوا اللّهَ الرِّزقَ يوماً بيومٍ، ولا يَضرَّكُم أن لا يُكثِرَ لَكُم.

= «المستدرك» (٤: ٣١٨) وصححه، وغيرهم، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(١) علي بن أبي طالب: ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وزوج ابنته فاطمة، وأبو الحسنين، رابع الخلفاء الراشدين، وإمام أهل التقوى والورع، كان يقول: الدنيا جيفة، فمن أرادها فليصبر علىٰ مخالطة الكلاب. توفي رضيَ الله عنه شهيداً سنة ٤١هـ. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١: ٦٨).

(٢) نبا السيفُ يَنبُو: إذا لم يُصبِ الضَّريبةَ، قالوا: «الكلُّ سيفٍ نَبْوَةٌ».

(٣) أخرجه ابن شاهين في «الترغيب» (رقم ٣٠٥)، والبيهقي في «الزهد» (رقم ١٠٥) من حديث جابر، وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (رقم ٦٣) من حديث أنس، وعزاه الهيثمي في «المجمع» (١٠: ٢٥٦) للطبراني في «الأوسط».

فصلٌ

ومِن أخلاقِ الصُّوفيَّةِ: تركُ المِراءِ والمُجادَلَةِ والغضَبِ إلا بحَق، واعتمادُ الرِّفق والحِلْم، وذلكَ أن النُّفوسَ تَثِبُ وتظهَرُ في المُمارِين.

والصُّوفيُّ كلَّما رأىٰ نفسَ صاحبِه ظاهرةً قابَلَها بالقَلب، وإذا قُوبلَتِ النَّفسُ بالقلبِ ذهبَتِ الوَحشَة، وانطفَتِ الفِتنَة.

ولا يُنتَزَعُ المِراءُ إلا مِن نفوسٍ زكيَّةٍ انتُزِعَ مِنها الغِلّ، ووجودُ الغِلِّ في النُّفوسِ مِراءُ الباطِن، وإذا انتُزِعَ الغِلُّ من الباطِن؛ ذهبَ مِن الظَّاهِر.

فصلٌ

[في منبَعِ الآداب]

إذا تزَكَّتِ النَّفسُ تَدبَّرَتْ بالعَقل، واستقامَت أحوالُها: الظاهِرَةُ والباطِنَة، وتهذَّبَتِ الأخلاق، وتكوَّنَتِ الآداب.

فالأدبُ: استِخراجُ ما في الهَيئاتِ والخُلُقِ إلىٰ الفِعل، وهذا يكونُ لمَن رُكِّبَتِ السَّجيَّةُ الصَّالِحَةُ فيه، والسَّجيَّةُ: فِعلُ الحَقّ، لا قُدرَةَ لبَشَرٍ علىٰ تَكوينِها، كتكوينِ النَّارِ في الزِّناد؛ إذ هُوَ فعلُ اللهِ المَحْض، واستخراجُهُ بِكَسْبِ الآدَمي.

فهكذَا الآدابُ: مَنبَعُها السَّجايا الصَّالِحَةُ والمِنَحُ الإلَهيَّة.

ولمّا هيَّأَ اللهُ بَواطِنَ الصُّوفيَّةِ بتكميلِ السَّجايا فيها، توصَّلُوا ــ بحُسنِ المُمارسَةِ والرِّياضَةِ ــ إلىٰ استخراجِ ما في النُّفوس ــ مَركوزٌ بخلقِ اللهِ ــ إلىٰ الفِعل، فصارُوا مُؤدَّبينَ مُهذَّبين. والآدابُ تقعُ في بعضِ الأشخاصِ من غيرِ زيادةِ مُمارسَةٍ ورياضَة؛ لِقوَّةِ ما أودَعَ اللهُ [٣٤/ب] في غرائزِهم، كما قالَ

رسولُ اللهِ ﷺ: «أدَّبَني ربِّي فأحسنَ تأديبي»[١].

وفي بعضِ الناسِ مَن يحتاجُ إلىٰ طُولِ المُمارسَة؛ لنُقصانِ قُوَّةِ أصُولِها في الغَريـزَة؛ فلهذا احتاجَ المُريـدونَ إلىٰ صُحبـةِ المَشـايخ؛ لتكونَ الصُّحبَةُ والتَّعليمُ عوناً علىٰ استخراجِ ما في الطبيعَةِ إلىٰ الفِعل.

قالَ يوسُفُ بنُ الحُسَين[٢]: بالأدبِ يُفْهَمُ العِلـم، وبالعِلم يَصِحُّ العَمل، وبالعملِ تُنالُ الحِكمَة، وبالحِكمَةِ يُقامُ الزُّهد، وبالزُّهدِ تُـترَكُ الدُّنيا، وبتَرْكِ الدُّنيـا يُرْغَـبُ في الآخِرَة، وبالرَّغبَـةِ في الآخِرَةِ تُنالُ الرِّفعَـةُ عندَ الله. [قيلَ] شعراً:

[طويل]

إذا نَطَقَتْ جـاءَتْ بكُـلِّ مَليحَـةٍ　　　وإنْ سَكتَتْ جاءَتْ بكُلِّ مَليحِ

فصلٌ

[في آدابِ الحضْرةِ الإلهية]

كانَ رسولُ اللهِ ﷺ مجمَعَ الآدابِ ظاهراً وباطِناً، وكلُّ الآدابِ تُـتَلَقَّىٰ مِنه، فلَم يزَلْ ﷺ مُستَحلِسَ حِجَالِهِ في خِفارَةِ أدبِ حالِه[٣]، حتَّىٰ خرَقَ حُجُبَ

---

(١) أورده السخاوي في «المقاصد الحسنة» (رقم ٤٥) وذكر له عدة طرق ليس فيها شيءٌ بالقـوي، ثم قال: وبالجملـة، فهو كمـا قال ابنُ تيميـة: لا يُعـرَفُ له إسنادٌ ثابت. انتهىٰ. والحديثُ معناه صحيح، وكلامُ ابن تيميةَ المذكور في «مجموع رسائله الكبرىٰ» (٢: ٣٣٦).

(٢) يوسف بن الحسين: أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي، شيخ الري والجبال في وقته، كان عالماً أديباً، صحب ذا النون المصري، وأبا تراب النخشبي، وغيرهما، وكان من كلامه: اللهم إنا نباتُ زرائع نعمتك، فلا تجعلنا حصائد نقمتك. توفي سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة. انظر «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١: ٢٠١).

(٣) الحِجـال: جمـع حَجَلـة: كالقُبَّـة، وموضـعٌ يُزيَّـن بالثيـاب والستـور للعـروس. =

السَّمـاواتِ؛ فانصَبَّتْ إليهِ أقسـامُ القُـرْبِ انصِبابـاً، وانقشَعَت عنهُ سحائِبُ الحُجُبِ حجاباً حجاباً، حتىٰ استقَامَ علىٰ صِراطِ: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٧]، فمرَّ كالبَرقِ الخاطِفِ إلىٰ مَخْدَعِ الوَصْلِ واللَّطائِف، وهذا غايَـةٌ في الأدَب، ونِهايَـةٌ في الأَرَب.

فصلٌ

[متىٰ يتحقَّقُ العَبْدُ بالأدب؟]

إذا عَـرَفَ النَّـفْسَ صادَفَ نُورَ العِرفَانِ، علىٰ ما وَرَد: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ؛ فَقَدْ عَرَفَ ربَّهُ»[1]. ولهذا النُّـورِ لا تَظهَـرُ النَّفـسُ بِجهالَـةٍ إلا ويَقْمَعُهـا بِصريح العِلم، وحينَئذٍ تتأدَّب. ومَنْ قامَ بأدبِ الحَضْرةِ الإلهيَّةِ فهُوَ بغَيْرِها أَقْوَمُ وعلَيْهَا أقدَر، واللّهُ أعلَم.

فصلٌ

مِن آدابِ الصُّوفيَّـةِ في الوُضوءِ: حُضورُ القَلْبِ في غَسْلِ الأَعضاء، بَعدَ القيامِ بمَعرِفَةِ الأحكام.

سمعتُ بعضَ الصَّالحِيـنَ يقُـول: إذا حَضَرَ [٣٥/أ] القلبُ في الوضُوء؛

= الاستحلاس: لزوم الأمر وعدم مفارقته. الخفـارة: الحماية. ومعنىٰ العبارة: أنَّ المصطفىٰ ﷺ لم يَزَلْ ملازماً محلَّ الحماية لرفيع آدابه إلىٰ أنْ رفعه مولاه تعالىٰ أعلىٰ مراقي القُرْب، صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

(١) قال الإمام أبو المظفر السمعاني في كتابه «القواطع» في أصول الفقه: إنه لا يعرف مرفوعاً، وإنما يحكىٰ عن (يحيىٰ بن معاذ الرازي) يعني من قوله. ذكره السخاوي في «المقاصد الحسنة» ص ٤١٩، وأفرد له السيوطي رسالةً سمّاها: «القول الأشبه في حديث: من عرف نفسه فقد عرف ربه». مطبوعة في «الحاوي للفتاوي».

يحضُرُ في الصَّلاة، وإذا دخَلَ السَّهوُ في الوضُوء؛ دَخلَتِ الوَسوَسَةُ في الصَّلاة.

ومِن آدابِهِم: استدامةُ الوضُوء، فالوضوءُ سِلاحُ المؤمن، والجوارحُ إذا كانَت في حِمايةِ الوضُوءِ ـ الذي هُوَ أثرٌ شَرعِيٌّ ـ يقِلُّ طُروقُ الشَّيطانِ علَيها.

ومن آدابِهِم: تركُ الإسرافِ في الماء، والوقوفُ علىٰ حدِّ العِلم. واستِقصاءُ الصُّوفيَّةِ في تطهيرِ البواطِنِ من الصِّفاتِ والأخلاقِ المَذمومَة، لا الاستِقصاءُ في طهارَةِ الظاهِرِ إلىٰ حدٍّ يُخرِجُ عَن حدِّ العِلم.

فصلٌ

[في لَذاذةِ الصَّلاة]

في العبدِ اعوجاجٌ لوجودِ نفسِهِ الأمَّارَةِ بالسُّوء، وسُبُحاتُ وجهِ اللّهِ الكريمِ التي لو كَشَفَ حِجابَها لأحرقَت مَن أدرَكَته، يُصيبُ بها المُصلّي ـ من وهَجِ السَّطوَةِ الإلهِيَّة والعظَمَةِ الرَّبانيَّة ـ ما يزُول بهِ اعوجاجُه، بل يتحقَّقُ به مِعْراجُه. فالمصلِّي كالمُصطَلِي بالنَّار، والمصطَلِي بنَارِ الصَّلاةِ وزَالَ بِها اعوجاجُه؛ لَم يُعرَضْ علىٰ نارِ جهنَّمَ إلا تحِلَّةَ القَسَم.

فالصَّلاةُ صِلَةٌ بينَ العبدِ وبينَ ربِّه، وما كانَ صِلةً بينَهُ وبينَ اللّه؛ فحقُّ العبدِ أن يكونَ خاشِعاً لصَوْلَةِ الربُوبيَّةِ علىٰ العُبوديَّة.

وقد وَرَدَ: أنَّ اللّهَ إذا تجلَّىٰ لشيءٍ خضَعَ لَه[1]. ومَن يتحقَّقُ بالصِّلَةِ في

---

(١) وهو قوله ﷺ: «إنَّ ناساً من أهل الجاهلية يزعمون...» وفي آخره: «.. فإذا تجلَّىٰ اللّه عزَّ وجلَّ لشيءٍ من خلقه خشع له».
أخرجه الدارقطني في «السنن» (٢: ٦٤، ٦٥) من حديث أبي بكر رضي الله عنه، وأخرجه أحمد في «المسند» (٤: ٢٦٧) واللفظ له، والنسائي في «السنن»، كتاب =

الصَّلاةِ؛ تلمَعُ لَهُ طلائِـعُ التجلِّي؛ فيَخْشَعُ.

والمُصلِّي سائِرٌ إلىٰ اللّهِ بقلبِه، مُوَدِّعٌ هواهُ ودُنياهُ وكلَّ شيءٍ سِواه.

والصَّـلاةُ في اللُّغَـةِ هيَ: الدُّعـاء، فكـأنَّ المصـلِّيَ يدعُـو اللّهِ بجميعِ جوارِحِـه؛ فصـارَت أعضـاؤُهُ كلُّها ألسِنَـةً يدعُو بهـا ظاهراً وباطناً، ويشاركُ الظَّاهِرُ الباطنَ بالتَّضَرُّعِ والتقلُّبِ في الهَيئات، بتملُّقاتِ مُتضرِّعٍ سائلٍ مُحتاج، فإذا دَعا بكُلِّيتِهِ أجابَهُ مَولاه؛ لأنَّـهُ وعدَهُ فقَال: ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ [غافر: ٦٠]: أمرَهُم بالدُّعاءِ ووعدَهُم [٣٥/ب] بالإجابةِ ليسَ بينَهُما شَرط.

والاستجابةُ والإجابةُ هِيَ: نفوذُ دعاءِ العَبد، فإنَّ الداعِيَ الصَّادِقَ العالِمَ بمَن يدعُوهُ بنورِ يقينِه، تَخْرِقُ دعوتُهُ الحُجُـب، وتقِفُ الدَّعوةُ بينَ يَدي اللّهِ سُبحانَهُ مُتقاضِيَـةً لِلْحاجَة.

وخصَّ اللّهُ هذهِ الأمَّـةَ بفاتِحَةِ الكِتاب، وفيها تقديمُ الثَّناءِ علىٰ الدُّعاء؛ ليكونَ أسرعَ إلىٰ الإجابَـة، وهِيَ تعليمُ اللّهِ عبادَهُ كيفيَّـةَ الدُّعاء.

فصلٌ

[في وصْفِ صلاةِ أهلِ القُرْب]

إنَّ من النـاسِ مَن إذا قال: (اللّهُ أكبَرُ) غابَ في مُطالَعَةِ العظَمَةِ والكِبرياء، وامتـلأ باطنُه نوراً، وصارَ الكـونُ بأسرِهِ ــ في فضاءِ شَرْحِ صَدرِهِ ــ كخَرْدَلَةٍ بأرضٍ فَلاة، ثمَّ تُلقىٰ الخَرْدَلَة، فمَن يَخشىٰ مِن الوَسوَسَةِ وحديثِ النَّـفس وما يُـتَخايَلُ في الباطِن؛ هُوَ مِن الكونِ الذي صارَ بمثابَـةِ الخَرْدَلَةِ وأُلـقِيَت.

= الكسـوف، بـاب ١٦ (رقـم ١٤٨٥)، وابن ماجـه (رقـم ١٢٦٢)، والحـاكـم في «المستدرك» (١: ٣٣٢)، والطحـاوي في «شـرح معانـي الآثار» (١: ٣٣٠)، من حديث النعمان بن بشير رضيَ اللّه عنه.

فكيف تُزاحِمُ الوسوسَةُ [وحديثُ النفْسِ] مثلَ هذا العَبدِ؟!

وقَد تُزاحِمُ مُطالعَةُ العظَمَةِ القَلبَ، والقلبُ يتميَّزُ بالنيَّةِ، فتكونُ النيَّةُ موجودَةً بألطَفِ صِفاتِها، مُندَرِجَةً في نورِ العظَمةِ اندراجَ الكواكِبِ في ضوءِ الشَّمس.

ثمَّ إذا استولَت جواذِبُ الرُّوحِ، وتملَّكَت: مِن الفَرْقِ إلىٰ القَدَمِ عِندَ كمالِ الأُنسِ، وتَحقُّقِ قُرَّةِ العَينِ، واستيلاءِ سُلطانِ المُشاهَدَةِ، تصيرُ النَّفسُ مقهورَةً ذليلَةً، ويَستنيرُ مركزُها بنورِ الرُّوحِ، فينقَطِعُ حينَئذٍ جواذِبُ النَّفسِ، وعلىٰ قَدرِ استنارَةِ مركزِ النَّفسِ؛ يَزُولُ كَلُّ العِبادَةِ[1]، ويستَغْني [حينَئذٍ] عن مقاومَةِ النَّفسِ ومَنعِ جَواذِبها.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ إذا أقبلَ [علىٰ اللَّهِ] في صلاتِهِ يتحقَّقُ معنىٰ الإنابَةِ؛ فيُنيبُ إلىٰ اللَّه، ويَتَّقي اللَّهَ بالتبرِّي عمَّا سِواه، ويُقيمُ الصَّلاةَ بصدرٍ مُنشرِحٍ بالإسلامِ، وقلبٍ مُنفَسِحٍ بنورِ الإنعامِ، فتخرُجُ الكلِمَةُ في فضاءِ قلبٍ ليسَ فيهِ غيرُها، فيتملَّكُها القلبُ بحُسنِ الفَهمِ، ولذاذَةِ الإصغاءِ، ويَتَشرَّبُها بحلاوةِ الاستِماعِ [٣٦/أ] وكمالِ الوَعيِ، ويدرِكُ مِن لطيفِ مَعناها وشريفِ نَجْواها معانيَ تَلْطُفُ عَن تفصيلِ الذِّكرِ، وتتشَكَّلُ بخفِيِّ الفِكرِ.

فمِنَ الساجدينَ مَن يُكاشَفُ أنَّهُ يَهوِي إلىٰ تُخُومِ الأَرَضينَ، متغيِّباً في أجزاءِ المُلْكِ؛ لامتلاءِ قلبِهِ مِنَ الحَياءِ، واستشعارِ رُوحِهِ عظيمَ الكبرياء.

ومِن السَّاجدينَ من يُكاشَفُ أنَّهُ يَطوِي بِسَاطَ الكونِ والمَكانِ، ويسرَحُ قلبُهُ في فضاءِ الكَشفِ والعِيانِ، فيهوِي دونَ هُوِيِّهِ أطباقُ السَّماواتِ، وتنمَحِي لقوَّةِ شهودِهِ تماثِيلُ الكائناتِ، ويسجُدُ علىٰ طَرَفِ رداءِ العَظَمة، وذلكَ أقصَىٰ

(١) كَلُّ العبادة (بفتح الكاف): تعبُها وإرهاقُها.

ما ينتهي إليهِ طائرُ الهمَّةِ البشريَّـة، وتفِي بالوصولِ إليهِ القُوىٰ الإنسَانيَّـة.

وتتفاوتُ الأنبياءُ والأولياءُ في مراتبِ العظَمة، واستشعارِ كُنهِها، لكلٍّ مِنهُم علىٰ قَدْرِه حظٌّ من ذلك، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

فالإمامُ في الصَّلاةِ مقدِّمَةُ الصَّفِّ في مُحاربَـةِ الشَّيطان؛ فهُوَ أوْلىٰ المصلِّينَ بالخُشوع، والإتيانِ بوظائفِ الآدابِ ظاهِراً وباطناً، والمصلُّونَ المتيقِّظُونَ كما اجتمعَتْ ظواهِرُهُم تجتَمِـعُ بواطِنُهم، ويتناصَرُونَ ويتَعاضَدُونَ، وتسرِي من البعضِ إلىٰ البعضِ أنوارٌ وبَرَكات. بلْ جميعُ المؤمنينَ المصلِّينَ في أقطارِ الأرضِ بينَهُم تعاضُدٌ وتناصُرٌ بحَسَبِ القُلوب، ونَسَبِ الإسلام، ورابِطَةِ الإيمان.

فصلٌ

[في أحسنِ آدابِ الصَّلاة]

[أحسنُ] آدابِ المصلِّي: أن لا يكونَ مشغولَ القلبِ بشيءٍ، قلَّ أو كثُر؛ لأنَّ الأكيـاسَ لم يرفُضـوا الدُّنيـا إلا ليقيمُـوا الصَّـلاةَ كمـا أمِرُوا؛ لأنَّ الدُّنيـا وأشغالَها لمَّا كانَت شاغِلَةً للقَلبِ رفضُـوها؛ غَيْرةً علىٰ محلِّ المُنـاجاة، ورغبةً في أوطانِ القُربات، وإذعاناً بالباطِنِ لربِّ البريَّـاتِ [٣٦/ب]، فيجتَنِبَ أن يكونَ باطِنُهُ مرتَهَناً بشيءٍ من الدُّنيا.

و[لا] يدخـلُ في الصَّـلاةِ إلا وهُوَ علىٰ أتـمِّ الهيئـات: وأحسَـنُ لِبسَـةِ المصلِّي: سكـونُ الأطراف، وعدمُ الالتفـات، والإطراق، ووضعُ اليمينِ علىٰ الشِّمال؛ فما أحسَنَها مِن هيئةِ عبدٍ ذليلٍ، واقفٍ بين يدَي عزيزٍ مُقتدِر.

فصلٌ

[في جَلالِ الصِّدق]

أهلُ الصِّـدقِ لهُم نيَّاتٌ فيما يفعلُـون، فلا يعارَضُـون. والصدقُ محمودٌ

لعَينِهِ كيفَ كان. والصادِقُ في خِفـارةِ صدقِه كيفَ تقلَّب. وقالَ بعضُهم: ما أخلَصَ عبدٌ قَطُّ إلا أحَبَّ أن يكونَ في جُبٍّ لا يُعْرَف.

وقال: النَّفسُ مِنْ طبعِها أنَّها إذا قُهِرَت للّهِ في شيءٍ واحدٍ علىٰ الضَّرورَة؛ تأدَّىٰ ذلكَ إلىٰ سائِرِ أحوالِها، فيصيرُ الأكلُ ضَرورةً، والنومُ ضَرورةً، والقولُ والفِعلُ ضَرورةً، وهـذا بابٌ كبيرٌ من أبوابِ الخَيرِ لأهلِ اللّهِ تَجِبُ رعايتُهُ وافتقادُه.

ولا يُخَصُّ بعلمِ الضَّرورَةِ وفائِدَتِها وطلبِهَا، إلا عبدٌ يريدُ أن يقرِّبَهُ اللّهُ ويُدْنيَه، ويَصْطفِيَهُ ويُربِّيَه.

فصلٌ

[ومِن صفاتِ القوم]

الصوفيُّ: الذي لا يرجعُ إلىٰ معلُوم، ولا يَدري متىٰ يُساقُ [إليه] الرِّزق، فإذا ساقَ اللّهُ إليهِ الرِّزقَ تناوَلَهُ بالأدَب. وهُوَ دائمُ المُراقبةِ لوقتِه، فهُوَ في إقْتارِهِ أفضلُ منَ الذي لهُ معلومٌ مُعَدّ، فإنْ كانَ معَ ذلكَ يَصُون؛ فقَد أكمَلَ الفَضل، وأمرُ القومِ مبناهُ علىٰ الإنفاقِ والصِّدق.

ومنَ الصِّدقِ: افتقادُ النيّة، وأحوالِ النَّفس، فكلُّ مَا صحَّتِ النيَّةُ فيه مِنَ الصَّومِ والإفطارِ والمُوافقةِ هو الأفضل.

الصُّوفيُّ بحسنِ نيَّتِه، وصحَّةِ مقصِدِه، ووفورِ علمِه، وإتيانِه [٣٧/أ] بأدَبِه؛ تصيرُ عاداتُهُ عِبادَةً.

الصوفيُّ موهوبٌ وقتُهُ للّه، ويريدُ حياتَه للّه، كما قال اللّهُ تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، فتدخلُ علىٰ الصُّوفيِّ أمورُ العادَةِ لموضعِ حاجتِه وضرورةِ بشريَّتِه، ويحُفُّ بعاداتِه نورُ

يَقظتِـهِ وحُسْنُ نيَّتِـهِ ، فتَـتَنَوَّرُ العادَات وتَـتَشَكَّـلُ بالعبَادات ، ولهذا ورَد : «نومُ العالِمِ عبادةٌ ونَفَسُهُ تَسبيحٌ»(١) .

هذا معَ كونِ النومِ عينَ الغَفلة ، ولكِنْ كلُّ ما يُستعانُ بِهِ علىٰ العِبادَةِ يكونُ عبادَةً .

واسـمُ اللّهِ دواءٌ نافـعٌ مجـرَّب ، يَقِي الأسـواء ، ويُذهِبُ الدَّاء ، ويَجلِبُ الشِّفاء .

ولُبسُ الناعِمِ لا يَصلُحُ إلا لعالمٍ بحالِه ، بَصِيرٍ بصفاتِ نفسِه ، متفقِّدٍ خَفِيِّ شهَواتِ النَّـفس ، يلقىٰ اللّهَ بحُسنِ النيَّـةِ في ذلِك ، فلحُسْنِ النيَّـةِ في ذلكَ وجوهٌ متعدِّدَةٌ يطولُ شرحُها .

ومنَ الناس مَن يَلبَسُ ما يُدخِلُ الحقُّ عليهِ ؛ فيكونُ بحُـكْمِ الوقتِ ، وهذا حَسَنٌ إذا كانَ حَالُهُ معَ اللّهِ تركَ الاختيَار ، فـ (عندَ ذلكَ) لا يسَعُهُ إلا أن يَلبَسَ الثَّوبَ الذي سـاقَهُ اللّهُ إليه . وكلُّ أحـوالِ الصَّـادِقينَ ـ علىٰ اختلافِ تنوُّعِها ـ مُستَحسَنةٌ .

فصلٌ

[في صَلاةِ اللّيل]

النُّعاسُ قِسْمٌ صـالحٌ من الأقسـامِ العاجِلَةِ للمريدِين ، وهُوَ أَمَنَةٌ لقلوبِهِم

---

(١) قال العراقي في «تخريج الإحياء» (١ : ٣٤٣) : المعروف فيه الصائم دون العالم ، وقد تقدم في الصوم . انتهىٰ . قال في «كتاب أسرار الصوم» (١ : ٢٣١) : رويناه في أمالي ابن منده ، من رواية ابن المغيرة القواس ، عن عبد اللّه بن عمر بسنـدٍ ضعيف ، ولعله عبد اللّه بن عمرو ؛ فإنهم لم يذكروا لابن المغيرة روايةً إلا عنه .
ورواه أبو منصـور الديلمي في «مسنـد الفردوس» (رقم ٦٧٣٤) ، من حديث عبد اللّه ابن أبي أوفىٰ ، وفيه سليمان بن عمرو النخعي أحد الكذّابين . انتهىٰ .

عَن مُنازعـاتِ النَّفس؛ لأنَّ النفسَ ـ بالنَّومِ ـ تستريحُ ولا تشكُو الكَلالَ والتَّعَب؛ إذ في شكايَتِها وتعبِها تكديرُ القَلب، وباستراحتِها بالنَّومِ ـ بشرطِ العِلمِ والاعتدالِ ـ راحةُ القلبِ، لِمَا بينَ القلبِ [٣٧/ب] والنَّفسِ منَ المُواطَأةِ عندَ طُمأْنينَتِها للمُريدينَ السَّالكِين.

فقَد قِيل: ينبغي أن يكونَ ثلثُ اللَّيلِ والنَّهارِ نوماً؛ حتىٰ لا يضطربَ الجسَد، [فيكونُ ثمانِ ساعاتٍ للنوم: ساعتيْنِ من ذلك يجعلُهما المُريدُ بالنهار، وستَّ ساعاتٍ باللَّيل]، وقد يكونُ بحُسنِ الإرَادة، وصدقِ الطَّلَب، ينقصُ النومُ عَن قدرِ الثُّلث، ولا يَضُرُّ ذلكَ إذا صارَ بالتدريجِ عادَةً، وقد يَحْمِلُ ثِقَلَ السَّهَر، وقِلَّةَ النَّوم: وجُودُ الرَّوْحِ والأُنس؛ فإنَّ النَّومَ طبعُهُ باردٌ رَطْبٌ ينفعُ الجسَدَ والدِّماغ، ويُسَكِّنُ من الحرارَةِ واليُبْسِ الحادِثِ في المِزاج، فإنْ نَقَصَ عنِ الثُّلثِ يضرُّ بالدِّماغ، ويُخشىٰ منهُ اضطرابُ الجِسم.

فإذا نابَ عَنِ النَّومِ رَوْحُ القلبِ وأُنسُه، لا يضرُّ نُقصانُه؛ لأنَّ طبيعةَ الرَّوْحِ والأُنسِ باردٌ رَطْبٌ كَطبيعةِ النَّوم. وقَد تَقصُرُ مدَّةُ طولِ اللَّيلِ بوجودِ الرَّوْحِ، فتصيرُ بالرَّوحِ أوقاتُ اللَّيلِ الطويلَةُ كالقصيرَة. كما يُقال: سَنَةُ الوَصْلِ سِنَة، وسِنَةُ الهَجرِ سَنَة؛ فيصيرُ اللَّيلُ لأهلِ الرَّوْحِ قصيراً.

المريدُ إذا خَلا في ليلِهِ بمناجاةِ ربِّه، انتشَرت أنوارُ ليلِهِ علىٰ جميعِ [أجزاءِ نهاره، ويصيرُ نهارُه في حمايةِ ليلِه، وذلك لامتلاءِ] قلبِهِ بالأنوار؛ فتكونُ حركاتُهُ وتصاريفُهُ بالنَّهار تصدُرُ من منبَعِ الأنوارِ المجتمِعَةِ منَ اللَّيل، ويصيرُ قالَبُهُ في قُبَّةٍ مِن قِبابِ الحَقِّ، مسدَّدَةً حركاتُه، مُوقَّرةً سكَناتُه.

وقد ورد [مِنْ قولِ بعضِهم][1]: «مَن صلَّىٰ باللَّيلِ، حَسُنَ وجهُهُ

---

(١) زيادة من الناشر، للإيضاح.

بالنَّهار»(١).

[ويجوزُ أن يكونَ بمعنَيَيْنِ، أحدُهما]: أنّ المِشكاةَ تَستَنيرُ بالمِصباحِ، فإذا صارَ سِراجُ اليقينِ في القلبِ يَزْهَرُ بكثرةِ زيتِ العَملِ باللَّيلِ، يزدادُ المِصباحُ إشراقاً، وتكتسِبُ مشكاةُ القلبِ نوراً وضِياءً. [٣٨/أ].

قالَ سهلُ بنُ عبدِ اللّه: اليقينُ نارٌ والإقرارُ فتيلَةٌ والعمَلُ زيتٌ. قالَ تعالىٰ: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] وقالَ تعالىٰ: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥].

فنورُ اليقينِ من نورِ اللّهِ، في زجاجةِ القلبِ كالكوكَبِ الدُّرِّي، وتنعكسُ أنوارُ الزُّجاجَةِ علىٰ مشكاةِ القَلب. وأيضاً، يلينُ القَلبُ بنارِ النُّور، ويَسري لِينُهُ إلىٰ القالَبِ، فيلينُ القالَبُ لِلينِ القلبِ فيَتَشابَهانِ لوجودِ اللِّين الذي عمَّهُمَا. قالَ تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]: وصفَ الجلودَ باللِّينِ كما وصفَ القلوبَ باللِّين، فإذا امتلأَ القلبُ بالنورِ، ولانَ القالَبُ بما سَرىٰ فيهِ من الأُنسِ والسُّرور، يندرِجُ المكانُ والزمانُ في نورِ القَلب، فيندرِجُ فيهِ الكَلِمُ والآياتُ والسُّوَر، وتُشرِقُ الأرضُ ــ أرضُ القَالَبِ ــ بنورِ ربِّها، إذ يَصيرُ القَلبُ سماءً، والقالَبُ أرضاً. ولَذَّةُ تلاوَةِ كلامِ اللّه في مَحلِّ المُناجاةِ تَستُرُ كَوْنَ الكائنات، والكلامُ المَجيدُ لكونِهِ ينوبُ عن سائرِ الوجودِ في مُزاحمَةِ صفوِ الشُّهودِ، فلا يَبقىٰ حينَئذٍ للنَّفس [حديثٌ]، ولا يُسمَعُ للهاجِس حسِيسٌ، وفي مثلِ هذهِ الحالِ تُتَصوَّرُ تلاوةُ القرآنِ ــ من فاتِحتِهِ إلىٰ خاتمتِهِ ــ من غيرِ

---

(١) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (رقم ١٣٣٣)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (رقم ٤٠٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٣ : ٣٨).

وليس بحديث، إنما هو قولٌ اشتبه علىٰ بعض الرواة فجعله حديثاً، علىٰ ذلك اتفق المحدِّثون، ومثّلوا به في كتب مصطلح الحديث علىٰ (الموضوع) غير المقصود.

وسوسَةٍ وحديثِ نَفْسٍ، وذلكَ هُوَ الفوزُ العظِيم.

والوجهُ الثاني [لِمَا وردَ عن بعضِهم]: «مَن صلَّىٰ باللَّيلِ حَسُنَ وجهُهُ بالنَّهار»:

أنَّ الأمورَ التي يتَوجَّهُ إليها تَحْسُنُ، وتَتَداركُهُ، [٣٨/ب] المَعونةُ مِنَ اللهِ الكريمِ في تصاريفِه، ويكونُ مُعاناً في مَصدَرِه ومَورِدِه، فيحسُنُ وجهُ مقاصِدِه [وأفعالِه]، وينتظِمُ في سِلكِ السَّداد، مسدَّدَةً أقوالُه؛ لأنَّ الأقوالَ تستقيمُ باستقامَةِ القَلبِ، واللهُ أعلَم.

فصلٌ

[فيما يُعِينُ علىٰ القيام]

[فمِن ذلكَ: أنْ] يُواصِلَ بينَ العِشاءَيْنِ بالصَّلاةِ أو بالتِّلاوَةِ أو الذِّكر، وأفضلُ ذلكَ الصَّلاة. فإنَّهُ إذا وَاصلَ بينَهُما يَنْغسِلُ عن باطنِهِ أثرُ الكُدورَةِ الحادِثَةِ في أوقاتِ النَّهارِ، من رؤيَةِ الخَلْقِ ومُخالطتِهِم وسماعِ كلامِهِم؛ فإنَّ ذلكَ كلَّهُ لهُ أثرٌ وخُدوشٌ في القَلب، حتىٰ أنَّ النظَرَ إليهِم في عينِ البصيرَةِ كالقذَىٰ في العينِ للْبصَر، وبالمُواصلَةِ بينَهُما يُرجَىٰ ذَهابُ ذلكَ الأثَر.

ويترُكُ الحديثَ بعدَ العِشاءِ [الآخِرة]؛ فإنَّهُ يُذهِبُ طراوةَ النُّورِ الحادثِ في القَلبِ منْ تلكَ المُواصَلة، ويُقعِدُ عَن قيامِ اللَّيل.

والنومُ عَن الغَلبَةِ هوَ الذي يصلُحُ للمريدينَ والطالِبين. وبهذا وُصِفَ المُحِبُّون، فقيل: نومُهم نومُ الغَرقىٰ، وأكلُهم أكلُ المَرضىٰ، وكلامُهم ضرورَة.

والكسلُ والتقاعُدُ والتناوُمُ طبيعةٌ في الإنسان، فأربابُ الهِمَّةِ أهلُ العِلم أزعجُوا النفوسَ عَن مَقارِّ طبيعتِها، ورقَّوها بالنَّظرِ إلىٰ اللَّذاتِ الرُّوحانِيَّة، إلىٰ

ذُرىٰ حقيقَتِـها، فتجـافَت جُنوبُهم عَن المضـاجع، [وخرَجوا مِن صفةِ الغافلِ الهاجع].

فصلٌ

[في طهارةِ الباطِن]

الطَّهـارَةُ التي تُثمِرُ صـدقَ الرُّؤيا: طهـارةُ البـاطِن مِن خُـدوشِ الهَوىٰ، وكُدُورَةِ محبَّـةِ الدُّنيا، والنَّـقاءُ عَن أنجاسِ الغِلِّ والحِقدِ والحَسَـد.

وقد ورَدَ: «مَن أوَىٰ إلىٰ فِراشِهِ لا ينوِي ظُلمَ أحدٍ، ولا يَحقِدُ علىٰ أحدٍ، غُفِرَ لَهُ ما اجترَمَ»[1].

وإذا طَهُـرَتِ النَّـفسُ عَن الـرذائِل؛ انجَلَـت مِرآةُ القَلْـب، وقابلَ اللَّوحَ المحفـوظَ في النَّـوم، وانتقشَـتْ فيهِ عجـائبُ الغَيْـبِ وغرائِـبُ الأنبـاء، ففي الصِّدِّيقِينَ مَن يكونُ لَهُ في مَنامِهِ مكالمةٌ ومُحادَثَة، ويأمُرُه اللّهُ ويَنهاهُ ويُفهِمُهُ في المنامِ أوامرَ خاصَّـةً تتعلَّقُ بِحـالِهِ فيما بَيْنَهُ وبينَ اللّه، فإذا أخَـلَّ بهـا يخشَىٰ أن ينقطِـعَ عليهِ طريقُ الإرادَة، ويكونُ في ذلكَ الرُّجوعُ عنِ اللّهِ واستيجابُ [مقامِ] المَقْت.

فصلٌ

[آدابُ الاستيقاظ]

إذا استيقـظَ مـن النـومِ فمِـن أحسَـنِ الآدابِ عنـدَ الانتبـاه: أن يذهـبَ ـ بباطِنِه ـ إلىٰ اللّه، ويصرفَ فكرَهُ إلىٰ أمرِ اللّهِ قبلَ أن يجُولَ الفكرُ في شيءٍ

---

(١) رواه ابن شـاهين في «الترغيب» (رقم ٥٢٢)، وفي إسنـاده إسحاق بن مرة، وعنبسة، كلاهما متروك.

سِوىٰ اللّه. ويَشغَلُ اللِّسانَ بالذكر، فالصّادِقُ كالطِّفلِ الكَلِفِ[1] بالشَّيءِ: إذا نامَ ينامُ علىٰ محبَّةِ ذلكَ الشَّيءِ الذي كانَ كَلِفاً بِه، وعلىٰ حَسبِ هذا الكَلَفِ والشُّغلِ يكونُ المَوتُ والقيامُ إلىٰ الحَشرِ، فلْينظُرْ ويَعتَبِرْ عندَ انتباهِهِ [منَ النوم] ما همُّه، فإنَّ هكذا يكونُ همَّهُ عندَ القيامِ من القَبرِ، إنْ كانَ هَمُّهُ اللّه، وإلا فهَمُّهُ غيرُ اللّه.

والعبدُ إذا انتبَهَ من النومِ فباطِنُهُ عائدٌ إلىٰ [طهارةِ] الفِطرَة، فلا يدَعُ الباطنَ يتغيَّرُ بغيرِ ذِكرِ اللّهِ حتىٰ لا يذهَبَ عنهُ نورُ الفطرَةِ الذي انتبَهَ عليه، ويكونُ فارّاً إلىٰ ربِّهِ بباطِنِه خوفاً عليهِ مِن ذكرِ الأغيار، ومَهما وَفىٰ الباطِنُ بهذا المعيارِ فقَد نَقّىٰ طريقَ الأنوارِ وطرَّقَ للنَّفحاتِ الإلهيَّة[2]، فجديرٌ أنْ تَنصَبَّ إليهِ أقسامُ اللَّيلِ انصباباً [٢٩/ب] ويصيرَ جنابُ القُربِ لهُ موئِلاً ومآباً. ويقولُ باللِّسانِ: الحمدُ للّهِ الذي أحيانا بعدَ ما أماتَنا وإليهِ النُّشور، ويقرأُ العَشرَ الأواخِرَ من سُورَةِ آل عمران.

فصلٌ
[فيما يُخِلُّ بقيامِ اللّيل]

للخواصِّ وأهلِ العزيمةِ مُطالباتٌ مِنْ بواطِنِهم تَحكمُ عليهِم بالأَوْلىٰ، وتُلجِئُهم إلىٰ سُلوكِ طريقِ الأعلىٰ.

فكَم من نائمٍ سبَقَ القائِم، لوفُورِ عِلمِه، وحُسنِ نيَّتِه.

والذي يُخِلُّ بِقيامِ اللَّيلِ كثرةُ الاهتمامِ بأمورِ الدُّنيا، وكثرةُ أشغالِ الدُّنيا،

---

(١) الكَلِف: اسم فاعل من الكَلَف، وهو: الولَع بالشيء وشدة حبّه.

(٢) (طرّق) كذا في المخطوط، وفي «العوارف» (٢: ٦٥٤)، ولعلَّ معناه: اتخذَ الطُّرُق ومهّدَها لورود النفحات الإلهية.

وإتعابُ الجـوارِحِ، والامتـلاءُ من الطَّعـام، وكثرةُ الحـديثِ واللَّغـوِ واللَّغَط، وإهمالُ القَيلُولَة.

والموفَّقُ مَن يغتنِمُ وقتَه، ويعرفُ دَاءَهُ ودَواءَه، ولا يُهمِلُ فيُهمَل.

ومَن ليسَ لهُ في الدُّنيا شغلٌ، وقد تركَها علىٰ أهلِها، فما بالُهُ يتبَطَّلُ ولا يتَنَعَّمُ بخدمةِ اللَّه؟!

قالَ سهل: لا يَكملُ شغلُ قلبِ عَبْدٍ باللَّهِ الكريمِ ولَهُ في الدُّنيا حاجَة.

فصلٌ

[ومِن فوائدِ النوم]

النفسُ إذا استراحَت عادَت جديدَةً. فإنْ وَجدَ في باطنِه كدَراً من مُخالطَةٍ أو مُجالسَةٍ اتَّفقَت، يستغفرُ اللَّهَ ويتضرَّعُ إليه، ولا يَشرَعُ في الصَّلاةِ إلا بعدَ أنْ يَجدَ الباطنَ عائداً إلىٰ حالِه منَ الصَّفاء.

والذَّائقُونَ حلاوةَ المُناجـاة، وصفوَ الأُنسِ في الصَّلاة، يتكدَّرُونَ بيسيرٍ منَ الاسترسـالِ في المُبـاح، وتصيرُ علىٰ بواطِنِـهم من ذلكَ عُقَـدٌ وكَدَر. وقد يكـونُ ذلكَ لمجـرَّدِ المُخالَطَـةِ والمُجالسَةِ معَ الأهـلِ والوَلَـد، معَ كونِ ذلكَ عبادَةً، ولكنَّ حسناتِ الأبرارِ سيِّئاتُ المُقرَّبين.

فلا يدخـلُ الصـلاةَ إلا بعدَ حلِّ العُقَـد، وإذهابِ الكُدورَة، وحلُّ [٤٠/أ] العُقَـدِ بصـدقِ الإنابَـةِ والاستغفَـار، والتضرُّعِ إلىٰ اللَّه. ودَواءُ ما يحـدُثُ من الكدَرِ ــ بمُجالسَةِ الأهلِ والوِلْدانِ ــ: أن يكونَ في مُجالسـتِهِ غيرَ راكنٍ إليهِم كلَّ الرُّكون، بَل يسترِقُ القلبُ في ذلكَ نظراتٍ إلىٰ اللَّهِ تعالىٰ، فتكونُ النَّظراتُ كفارَةَ تلكَ المُجالَسـة، إلا أنْ يكونَ قويَّ الحـال، لا يَحجُبُهُ الخَلْقُ عَن الحَقّ، فلا ينعَقِدُ علىٰ باطِنِهِ عُقدَة.

فهوَ كما يدخُـلُ في الصَّـلاةِ يجدُهـا، ويجدُ باطِنَـهُ وقلبَـه؛ لأنَّـهُ حيثُ استروَحت نفسُ هذا إلىٰ المُجالسَـة، كان استرواحُ نفسِـهِ مُنغَمِراً برَوْحِ قلبِه؛ لأنَّـهُ يُجالِسُ ويخـالِطُ بعينِ ظاهِرِه، ناظِرُهُ إلىٰ الخَلْق، وعينُ قلبِه مُطالِعَةٌ إلىٰ الحضرةِ الإلهيَّـة، فلا ينعقِدُ علىٰ باطِنِه عُقْدَة.

فصلٌ

[في استدامةِ العمَل]

مَن لهُ همَّةٌ ناهِضَةٌ، وعزيمَةٌ صادِقَةٌ، لا يستكثِرُ شيئاً للّهِ تَعالىٰ.

والدُّؤوبُ في العمَـلِ واستيعـابُ أجزاءِ النَّهـارِ بلَذاذَةٍ وحـلاوةٍ من غيرِ سآمَة، لا يصِحُّ إلا لِعَبدٍ تَزكَّت نفسُهُ بكمالِ التَّـقوىٰ، واستَقْصىٰ في الزُّهدِ في الدُّنيـا، وانتُـزِعَ منهُ متابعَـةُ الهَـوىٰ. ومتىٰ بَـقِيَ علـىٰ الشخصِ من التَّـقـوىٰ [والزُّهدِ والهوىٰ بقيَّـةٌ]: لا يدومُ رَوْحُهُ في العمَـل، [بل] ينشَـطُ وقتاً [ويَسأَمُ وقتاً]، وتناوُبُ النَّشـاطِ والكسَـلِ فيه: لبقـاءِ متابَعةِ شيءٍ من الهوىٰ، بنُقصـانِ تقوَىٰ أو محَبَّـةِ دُنيا.

وإذا صحَّ في الزُّهدِ والتَّـقوىٰ، إنْ تَرَكَ العمَلَ بالجوارِحِ [٤٠/ب] لا يَفتُرُ عن العمـلِ بالقَلب، فمَن رَامَ دوامَ الرَّوْح، واستَحـلاءَ الدُّؤوبِ في العمَلِ لئلاَّ يفترُ، فعليهِ بحَسـمِ مادَّةِ الهَـوىٰ، والهـوىٰ رَوْحُ النفسِ لا يزُول، ولكن تزولُ مُتابَعَتُه.

والنبيُّ ﷺ ما استعـاذَ إلا مِن متابَعةِ الهَوىٰ لا مِن وُجودِه، فقال: «أعوذُ بكَ مِن هوىً متَّبَـع»[1]، ولا استعـاذَ مِن وجودِ الشُّـحِّ، بلِ استعاذَ مِنْ طَاعتِه،

---

(١) الـوارد هو ما رواه أبو داود في «السنن»، كتـاب المـلاحـم، باب الأمر والنهي (رقـم ٤٣٤١)، والترمذي في «جامعـه»، أبواب تفسيـر القرآن، باب ٦، (رقـم ٣٠٥٨)، =

فقال: «وشُحٌّ مُطاع».

ودقائِقُ مُتابعَةِ الهوىٰ بتجاوزِ الاعتدالِ في النَّوم والأكل، إلىٰ غيرِ ذلكَ من أقسامِ الهوىٰ المتَّبَع، وهذا شغلُ [مَنْ ليس] لَهُ شُغْلٌ [إلاّ] في الدُّنيا.

فصلٌ

[في مجالسةِ الأبرار]

أفضلُ مِنَ الأذكارِ والتِّلاوَةِ مُجالسَةُ مَن يُزهِّدُ في الدُّنيا، ويُشَيِّدُ كَلامَهُ عُرىٰ التَّقوىٰ من العُلماءِ الزَّاهدينَ المتكلِّمينَ بما يُقوِّي عزائِمَ المُريدينَ، فإذا صحَّت نيَّةُ القائِلِ والمُستَمِع، فهذهِ المُجالسَةُ أفضلُ من الانفرادِ والمُداوَمةِ علىٰ الأذكار، وإن عُدِمَتْ هذهِ المُجالَسَةُ وتَعذَّرَت، فليترَوَّحْ بالتَّنَقُّلِ في أنواعِ الأذكار.

ويقولُ كلَّما خرجَ من منزِله: بسم اللّه، ما شاءَ اللّه، حسبِيَ اللّه، لا قوَّةَ إلا باللّه، اللَّهُمَّ إليكَ خرَجتُ وأنتَ أخرَجْتَني.

فصلٌ

[في آدابِ المُريدِ معَ الشيخ]

آدابُ المُريدِينَ معَ الشُّيوخِ عندَ الصُّوفيَّةِ رضِيَ اللّهُ عَنهُم من مهامِّ الآداب، وللقومِ في ذلكَ اقتداءٌ برسولِ اللّهِ ﷺ.

= وابن ماجه في «السنن» (رقم ٤٠١٤)، والحاكم في «المستدرك» (٤: ٣٢٢) من حديث أبي ثعلبة الخُشَني، أنه سأل رسولَ اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم عن هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾، فقال: «يا أبا ثعلبة، مروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، فإذا رأيتَ شُحاً مطاعاً، وهوىً متبعاً، ودنيا مُؤثَرة، ورأيتَ أمراً لا بد لك من طلبه، فعليك بخاصة نفسك».

أدبُ المريدِ معَ الشيخ: أن يكونَ مسلوبَ [٤١/أ] الاختيار، ولا يتصرَّفَ في نفسِهِ ومالِهِ، إلا بمُراجَعةِ الشَّيخِ وأمرِهِ.

وأدبُهُ في مجلسِهِ: أنْ يَلزَمَ السُّكوت، ولا يقولَ شيئاً بحضرتِهِ من كلامٍ حَسَنٍ، إلا إذا استأمَرَهُ [الشيخُ] ووجدَ [منَ الشيخِ] فُسحةً لَهُ في ذلِكَ.

وشأنُ [المُريدِ في حضرةِ الشيخ] كمَن هُوَ قاعِدٌ علىٰ ساحلِ بحرٍ ينتظرُ رِزقاً يُساقُ إليهِ، فتَطلُّعُه إلىٰ الاستِماعِ وما يُرزَقُ من كلامِ الشَّيخِ، يُحقِّقُ مقامَ إرادَتِهِ وطَلَبِهِ واستِزادَتِهِ من فضلِ اللهِ. وتطلُّعُهُ إلىٰ القولِ يردُّهُ عن مقامِ الطَّلبِ، والاستِزادَةِ إلىٰ مقامِ إثباتِ شيءٍ لنفسِهِ، وذلكَ جِنايةٌ من المُريد.

وينبغي أن يكونَ تطلُّعُهُ إلىٰ مُبهَمٍ من حالِهِ يَستكشِفُ عَنهُ بالسُّؤالِ مِنَ الشَّيخِ، علىٰ أنَّ الصَّادِقَ لا يَحتاجُ إلىٰ السُّؤالِ باللِّسانِ في حضرةِ الشَّيخِ، بَل يُبادِئُهُ بما يُريد؛ لأنَّ الشَّيخَ يكونُ مستَنطَقاً، نطقُهُ بالحَقِّ، وهُوَ عندَ حُضورِ الصَّادِقينَ يرفعُ قلبَهُ إلىٰ اللهِ، ويستمطِرُ ويستسقِي لَهُم، فيكونُ لسانُهُ وقلبُهُ ـ في القولِ والنُّطقِ ـ مأخوذَينِ إلىٰ مُهِمِّ الوَقتِ مِن أحوالِ الطَّالبينَ المُحتاجِينَ إلىٰ ما يُفتَحُ [بهِ] عليهِ؛ لأنَّ الشَّيخَ يعلَمُ تطلُّعَ المُطالِبِ إلىٰ قولِهِ واعتدادَهُ بقَولِهِ، فالقولُ كالبَذرِ: يقعُ في الأرضِ، فإذا كانَ البَذرُ فاسداً لا يَرِيعُ[1]. وفسادُ الكلمةِ [٤١/ب] بدخولِ الهَوىٰ فيها.

فالشَّيخُ ينقِي [بَذْرَ] الكلامِ عَن شوبِ الهَوىٰ، ويُسلِمُهُ إلىٰ اللهِ، ويسألُ اللهَ المعونةَ والسَّداد، ثمَّ يقولُ فيكونُ كلامُهُ بالحقِّ من الحَقِّ لِلحَقِّ.

فالشيخُ للمريدِ أمينُ الإلهامِ، كما أنَّ جبريلَ أمينُ الوَحي، فكما لا يخُونُ

---

(١) الرَّيْعُ، والرَّيَعانُ: نموُّ الزرعِ وزيادتُه. ووقع في المخطوط: (يزرع) بدل (يريع)، وهوَ تحريف. ر: «العوارف» (٢: ٧٠٦).

جبريلُ في الوَحي، لا يخونُ الشَّيخُ في الإلهام، وكما أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لا ينطِقُ عَن الهَوىٰ، فالشَّيخُ مُقتدٍ برسولِ اللهِ ﷺ ظاهراً وباطِناً، لا يتكلَّمُ بهوىٰ النَّفس.

وهوىٰ النَّفسِ في القولِ يَطلُبُ الكلامَ: لاستجلابِ القُلوب، وصَرْفِ الوجوهِ إليه، واستحلاءِ الكلامِ والعُجْب. وذلكَ جنايةٌ[1] عندَ المحقِّقين.

والشيخُ فيما يجرِي علىٰ لسانِهِ رافِدُ النَّفس، تشغَلُهُ مطالعَةُ نِعَمِ الحَقِّ في ذَلك، وأخذُ الحظِّ مِن فوائِدِه عَن ظهورِ النَّفسِ بالإستحلاءِ والعُجْب، ويكونُ فيما يجريهِ الحقُّ [عليه] مستمعاً كأحدِ المستمِعين.

فأحسَنُ آدابِ المريدِ معَ الشَّيخِ: السُّكونُ والخمودُ حتىٰ يبادِئَهُ [الشيخُ] بما [لهُ] فيهِ الصَّلاحُ قولاً وفِعلاً.

وينبغي للمُريد أنْ لا يُحدِّثَ نَفسَهُ بطلبِ منزلَةٍ فوقَ منزلةِ الشَّيخ، بل يُحِبُّ للشَّيخِ كلَّ منزلَةٍ عاليَة، ويتمنَّىٰ لَهُ عزيزَ المِنَحِ وغرائِبَ المَواهِب، وبهذَا يَظهَرُ جَوهَرُ المريدِ في حُسْنِ الإرَادَة.

وهذا يعِزُّ في المُريدِين، فإرادَتُهُ للشَّيخِ تُعطِيهِ فوقَ ما يتَمنَّىٰ لِنَفسِه، ويكونُ قائِماً بأدَبِ الإرادَة. قالَ السَّرِيّ[2]: [حُسنُ] الأدَبِ تَرْجُمانُ العَقل.

---

(١) في «العوارف» (٢: ٧٠٧): خيانة.

(٢) السري السقطي: هو سَرِيُّ بن المُغَلِّس السَّقَطي، كنيته: أبو الحسن، قيل: إنه خال الجنيد وأستاذه في الطريق، وصحب معروفاً الكرخي، وهو أول من تكلم ببغداد في لسان التوحيد، وحقائق الأحوال، وهو إمام البغداديين وشيخهم في وقته، وإليه ينتمي أكثر الطبقة الثانية. توفي سنة ٢٥١هـ. انظر ترجمته في: «طبقات الصوفية» للسلمي ص ٤٨، «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠: ١١٦).

وينبغي أنْ لا يَنْبَسِطَ معَ الشَّيخِ برفعِ الصَّوتِ وكثْرةِ الضَّحِكِ [٤٢/أ] وكثْرَةِ الكلامِ إلا إذا بَسَطَه [الشيخُ].

وقَد يُنازِلُ باطِنَ بعضِ المريدينَ مِنَ الحُرمَةِ والوقارِ [مِنَ الشيخِ] ما لا يستطيعُ [المُريدُ] أن يُشْبِعَ النَّظَرَ إلىٰ الشَّيخِ.

وقَد كُنتُ أُحَمُّ، فيدخلُ عليَّ عمِّي وشيخِي أبو النَّجيبِ السَّهْرَوَرْدِي[1] [رحمةُ اللّهِ عليه] فيرشَحُ جسَدِي عرقاً، وكنتُ أتمنَّىٰ العَرَقَ لتخِفَّ الحُمَّىٰ، [فكنتُ أجدُ ذلك عندَ دخولِ الشيخ عليّ]، ويكونُ في قُدومِهِ بركةٌ وشِفاء.

وإذا سَكَنَ الوقارُ القلبَ عَلِمَ اللِّسانَ كيفيَّةَ الخِطاب.

قال أبو عُثمان: الأدبُ عندَ الأكابِرِ وفي مَجالِسِ السَّادَاتِ من الأولياء، يبلُغ بصاحِبِهِ إلىٰ الدَّرجاتِ العُلىٰ، والخيرِ في العاقبةِ والأُولىٰ، ألا ترىٰ إلىٰ قولِ اللّهِ تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: ٥].

فحقُّ المريدِ عِمارةُ الظَّاهِرِ والباطِنِ بالأدبِ معَ الشَّيخِ، فما يُنكِرُهُ المريدُ: لقلَّةِ علمِهِ بحقيقةِ ما يوجَدُ مِنَ الشَّيخِ، فللشَّيخِ في كلِّ شيءٍ عذرٌ بلسانِ العِلمِ والحِكمَة.

قالَ بعضُ المشايخ: مَن لم يُعظِّمْ حُرمَةَ مَن تأدَّبَ بِهِ، حُرِمَ بركةَ ذلكَ الأدَب.

واستغراقُ المريدِ في الشَّيخِ بالنَّظَرِ إلَيه، ومطالعةِ مواردِ فضلِ اللّهِ علَيه، أنْجَعُ لهُ من الإصغاءِ إلىٰ السَّماع.

ومنَ الأدبِ: أن لا يَكْتُمَ عن الشَّيخِ شيئاً مِن حالِه ومواهِبِ الحقِّ عندَه،

---

(١) أبو النجيب السهروردي، انظر ترجمته في مقدمة الكتاب.

وما يَظهَرُ لهُ من كلِّ كرامَةٍ وإجابَة، ويكشِفَ لَهُ مِن حالِهِ ما يَعلَمُ اللّهُ مِنه، وما يستحِي من كَشفِهِ بذكرُهُ إيماءً وتعريضاً، وَبِكَتْمِهِ [٤٢/ب] يَصيرُ علىٰ باطِنِه [منهُ] عُقدَةٌ في الطَّرِيق، وبالقولِ معَهُ تنحَلُّ العُقَدُ وتزول.

ومتىٰ كانَ عندَ المريدِ تطلُّعٌ إلىٰ شيخٍ آخَر، لا تصفُو صُحبتُه، ولا ينفُذُ القولُ فيه، ولا يستعِدُّ باطنُهُ لِسرايةِ حالِ الشَّيخِ إليه. وكلَّما أيقنَ تفرُّدَ الشيخِ بالمشيَخةِ؛ عرَفَ فضلَهُ وقوِيَتْ محبَّتُه.

والمحبَّةُ والتآلُفُ هوَ الواسِطَةُ بينَهُ وبينَ الشَّيخ، وعلىٰ قدرِ قوَّةِ المحبَّةِ تكونُ سِرايَةُ الحَال؛ لأنَّ المحبَّةَ علامةُ التعارُف، والتعارُفُ علامةُ الجِنسيَّة، والجِنسيَّةُ جالِبَةٌ للمريدِ حالَ الشَّيخِ أو بعضَ حالِه.

ومن الأدبِ: أن يُراعيَ خَطَراتِ الشَّيخِ في جُزئيَّاتِ الأمُورِ وكُلِّيَّاتِها، ولا يستحقِرَ كراهةَ الشَّيخِ اليَسِيرَ من حرَكاتِه، معتمِداً علىٰ حُسنِ خُلُقِ الشَّيخ، وكمالِ حِلمِهِ ومُداراتِه. فاحترامُ العلماءِ تَوفيقٌ وهِدايَة، وإهمالُ ذلكَ خِذلانٌ وعُقوق.

فصلٌ

[في آدابِ الشيخ]

أهمُّ الآدابِ: أن لا يتعرَّضَ الصادقُ للتقدُّم علىٰ قوم، ولا يتعرَّضَ لاستجلابِ بَواطِنِهم بلطفِ الرِّفقِ وحُسنِ الكلام، محبَّةً للاستِتْباع.

والنفوسُ مجبولَةٌ علىٰ محبَّةِ قَبولِ الخَلْقِ والشُّهرَة، وفي الخمولِ السَّلامَة، فإذا بلغَ الكتابُ أجلَه، وتمَكَّنَ العبدُ من حالِه، وعَلِمَ بتعريفِ اللّهِ إيَّاهُ أنَّهُ مُرادٌ بالإرشادِ والتَّعليمِ للمُريدين: فيُكلِّمُهُم حينَئذٍ كلامَ النَّاصِحِ المُشفِق، الوالِدِ لولَدِه، بما ينفَعُهُ في دِينِه ودُنياه.

وكلُّ مريدٍ ومُسترشِدٍ ساقَهُ اللّهُ إليهِ يُراجِعُ اللّهَ في [٤٣/أ] مَعناه، ويُكثِرُ منَ اللُّجوءِ إليهِ في أنْ يتولاَّهُ فيه، وفي القولِ معَه، ولا يتكلَّمُ معَهُ بالكلمةِ إلا وقلبُهُ ناظِرٌ إلىٰ اللّه، مستعينٌ به في الهِدايَةِ للصَّواب.

سَمِعْتُ [شيخَنا] أبا النجيبِ [يوصِي و] يقُول: لا تُكلِّمْ أحداً منَ الفُقراءِ إلاّ في أصفىٰ أوقاتِك؛ لأنَّ الكَلِمَةَ تقَعُ في قلبِ المريدِ الصادِق، كالحبَّةِ تقَعُ في الأرض، والحبَّةُ الفاسِدَةُ تَهلِكُ وتَضِيع، وفسادُها بالهَوىٰ، وقَطْرةُ هَوىٰ تُكَدِّرُ بحراً من العِلم.

ومن [أدبِ الشيخِ]: أن يكونَ لَهُ خَلوَةٌ خاصَّة، ووقتٌ خاصٌّ لا يسَعُهُ فيهِ مُعاناةُ الخَلْق، حتّىٰ يَفيضَ علىٰ جَلواتِهِ فائدَةُ خَلوَته، ولا يدَّعِي لنفسِهِ قوَّةَ ظنّاً منه أنَّ استِدامَةَ المُخالَطَةِ معَ الخَلْقِ والكلام معَهُم لا يَضُرُّهُ وَلا يأخُذُ مِنه، وأنَّهُ غيرُ محتاجٍ إلىٰ الخَلوة؛ فإنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ ــ مع كمالِ حالِهِ ــ كانَ لَهُ قيامٌ باللَّيلِ، وصلَواتٌ يُصلِّيها ويداومُ علَيْها، وأوقاتٌ يَخلُو فيها.

فطبعُ البشَرِ لا يستغني عن السِّياسَةِ، قلَّ ذلكَ أو كَثُر، لَطُفَ ذلكَ أو كَثُف. وكَم مِن مغرورٍ قانعٍ باليسيرِ من طِيبَةِ القلْب، اتَّخذَ ذلكَ رأسَ مالِه، واغترَّ بطِيبَةِ قلبِه، واسترسَلَ في المُمازَحَةِ والمُخالَطَة، وجعلَ نفسَهُ مُناخاً للبطّالِينَ بلُقمَةٍ تُؤكَلُ عِندَه، وبرفقٍ يُوجَدُ مِنه، فيقصِدُهُ مَن ليسَ قصدُهُ الدِّين، ولا بُغيَتُهُ سلوكُ المُتَّقِين، فافتُتِنَ وفتَنَ، وبَقِيَ في خُطَّةِ القُصور، ووقَعَ في دائِرَةِ الفُتور [٤٣/ب].

كانَ الجُنَيْدُ رحمَه اللّهُ يقول [لأصحابِه]: لَو علمتُ أنَّ صلاةَ ركعتينِ خيرٌ [لي] من الجلوس معَكُم ما جَلَستُ. فإذا رأىٰ الفضلَ في الخلوةِ يخلُو، وإذا رأىٰ الفضلَ في الجُلوس يجلِسُ معَ الأصحَاب، فتكونُ جلوتُهُ في حمايَةِ خَلوَته، وخَلوَتُه مزيداً لجَلوته.

قالَ بعضُهم: لا تُضِعْ حقَّ أخيكَ بما بينَكَ وبينَهُ منَ المودَّة.

ورَدَ في الحـديث: «ما تصَدَّقَ [متصدِّقٌ] بصدقةٍ أفضلَ مِن علمٍ يبُثُّه في النَّاس»[١]، وتأييدُ اللّهِ يتدارَكُ المريدينَ الصّادقينَ في مَوردِهم ومَصدَرِهم.

قالَ أبو بكرٍ الـورَّاق: ما ظهـرَتِ الفِتنَـةُ إلاّ بالخُلْطَـةِ: من لـدُنْ آدمَ إلىٰ يَومِنا هذا، وما سلِمَ إلا مَن جانَبَ الخُلطَة.

وقيلَ: الخَلْـوَةُ أصل، والخُلطَـةُ عارِض. فليَلْزَم الأصـلَ ولا يُخالِطْ إلاّ بقدرِ الحَاجَة. وإذا خالَطَ لا يُخالِطُ إلا بِحُجَّة، فإذا خالَطَ يُلازِمُ الصَّمتَ؛ فإنَّـهُ أصلٌ والكلامُ عارِض، فخطرُ الصُّحبَـةِ كبير، يحتاجُ العبدُ إلىٰ مزيدِ علمِه.

فصلٌ

[في فضْلِ الصُّحبة]

الصُّحبَـةُ تفتَـحُ مسامَّ البـاطِن، ويكتسِـبُ الإنسـانُ بِها عِلمَ الحَـوادِثِ والعوارِض.

قِيل: أعلَمُ النـاسِ بالآفاتِ: أكثرُهُم آفات. ويتصلَّـبُ البـاطِنُ بِرَزِينِ العِلم، ويتمكَّنُ الصِّـدقُ بطُروقِ هُبـوبِ الآفاتِ، ثمَّ التخلُّـصِ مِنها بالإيمـان، ويقَعُ بطريقِ الصُّحبَـةِ والأخوَّةِ التَّعاضُدُ والتَّعاوُن.

ويتقوَّىٰ جنودُ القلبِ وتستَرْوِحُ الأرواحُ: بالتشَامّ، وتتَّـفِقُ في التوجُّهِ إلىٰ الرَّفيقِ الأعلـىٰ، ويصيرُ مِثالُهـا في الشّـاهِدِ [٤٤/أ] كالأصـواتِ: إذا اجتَمعتْ خَرَقَتِ الأجْرام، وإذا انفرَدَتْ قصُرَت عَن بُلوغِ المَرام.

---

(١) أخرجـه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧: ٢٣١) من حديث سَمُرة بن جندب رضيَ اللّه عنه. قال الهيثمي في «المجمع» (١: ١٦٦): فيه عون، ضعيف.

في الحديث: «المؤمنُ كثيرٌ بأخيه»[١].

والاهتمامُ بمُهِمّ الصَّديقِ حقيقةُ الصَّداقة.

وقالَ عمر: إذا رأىٰ أحدُكُم وُدّاً مِن أخيه، فليتمسَّكْ بِه؛ فَقَلَّما يُصيبُ ذَلك: [كامل]

وإذَا صفَا لكَ مِن زمانِكَ واحدٌ فهْوَ المُرادُ وأينَ ذاكَ الوَاحِدُ

وفي الإنسانِ ميلٌ إلىٰ الجنس بالوصفِ الأعمِّ، فلمّا علِمَ الحُذّاقُ ذلكَ ألهَمَهُمُ اللّهُ محبّةَ الخَلوةِ والعُزلَة؛ لتصفيةِ النّفسِ عن المَيلِ بالوصفِ الأعَمِّ؛ لترتَقِي الهِمَمُ العاليَةُ عَن ميلِ الطِّباعِ إلىٰ تآلُفِ الأروَاح. وإذا وَفَّوْا التّصفِيَةَ حقَّها اشرأَبَّتِ الأروَاحُ إلىٰ جِنسِها بالتآلُفِ الأصليِّ الأوّلي، وأعادَها اللّهُ إلىٰ الخَلْقِ مُصفَّاةً، واستفادَتِ النُّفوسُ الطّاهِرَةُ بنُورِ الأروَاح، وظهرَتْ صفَةُ الجِبلَّةِ مِنَ الأُلفَةِ المُكمَّلَةِ آلِفَةً مألُوفَة؛ فصارَتِ العُزلَةُ مِن أهمِّ الأمورِ عندَ مَن يَألَفُ ويُؤلَف، ومِن أدلِّ الدّليلِ علىٰ أنَّ الذي اعتزَلَ النّاسَ آلِفٌ مألُوف. فالعُزلَةُ مرغوبَةٌ في وقتِها، والصّحبَةُ مرغوبَةٌ في وقتِها.

كان بِشرُ بنُ الحارِثِ[٢] يقولُ: إذا قَصَّرَ العبدُ في طاعَةِ اللّه، سلَبَهُ اللّهُ مَن

---

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣: ٢٤٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (رقم ١٩٥)، والديلمي في «مسند الفردوس» (رقم ٦٦٢٥)، من حديث أنس رضيَ اللّه عنه، وهو عند الدولابي في «الكُنى» (١: ١٦٨)، والديلمي (رقم ٦٨٨٢)، وغيرهما من حديث سهل بن سعد رضيَ اللّه عنه. والحديثُ موضوع.

(٢) بشر بن الحارث: هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبد اللّه، الحافي، يكنىٰ: أبا نصر، أصله من «مرو» من قرية (بكْرِذ) أو (مابرسام)، سكن بغداد، ومات بها يوم الأربعاء لعشر خلون من المحرم سنة ٢٢٧هـ، أسند الحديث. كان يقول: «يأتي زمان على الناس لا تقرُّ فيه عين حكيم، ويأتي عليهم =

يُؤنِسُه.

فالأنيسُ يُهيِّئُهُ اللّهُ للصادِقين، رِفقاً منَ اللّهِ وثواباً للعبدِ مُعجَّلاً. والأنيسُ [٤٤/ب] قد يكونُ مُفيداً كالشَّيخ، وقد يكونُ مُستفيداً كالمُريد.

فصحيحُ الخَلوةِ والعُزلَةِ لا يُترَكُ من غيرِ أنيس، فإنْ كانَ قاصراً يُؤنِسُهُ اللّهُ بمَن يُتَمِّمُ حالَه [به]، وإن كانَ غيرَ قاصرٍ يُقَيِّضُ اللّهُ لَهُ مَن يُؤنِسُهُ مِنَ المُريدِين. وهذا الأنسُ ليسَ فيه مِيلٌ بالوصفِ الأعَمِّ، بَل هُوَ باللّهِ، ومِن اللّهِ، وفي اللّه.

فصلٌ

[في المؤاخاةِ في اللّه]

روىٰ عبدُ اللّهِ بنُ مسعودٍ، عَن رسولِ اللّهِ ﷺ أنَّهُ قال: «المُتحابُّونَ في اللّهِ علىٰ عمودٍ من ياقوتَةٍ حَمراءَ، في رأسِ العمودِ سَبعونَ ألفَ غرفة، مشرِفونَ علىٰ أهلِ الجَنَّةِ، يُضيءُ حُسْنُهم لأهلِ الجنّة كما تُضيءُ الشَّمسُ لأهلِ الدُّنيا، [فيقولُ أهلُ الجنَّة: انطلِقوا بنا ننظُرْ إلىٰ المُتَحابِّينَ في اللّهِ عزَّ وجَلَّ. فإذا أشرَفوا عليهم أضاءَ حُسْنُهم لأهلِ الجنّةِ كما تُضيءُ الشمسُ لأهلِ الدُّنيا]، عليهم ثيابُ سُندسٍ خُضر، مكتوبٌ علىٰ جِباهِهِم: هؤلاءِ المُتحابُّونَ في اللّهِ»[1].

[و] قالَ أبو إدريسَ الخَوْلانيُّ[2] لِمُعاذِ بنِ. . . . .

= زمان تكون فيه الدولة للحمقى على الأكياس». انظر ترجمته في: «طبقات الصوفية» للسلمي ص ٣٩، «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٨: ٣٣٦ ــ ٣٦٠).

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١: ٥٦٦)، والسَّهْمي في «تاريخ جرجان» (رقم ٢٥)، من حديث ابن مسعود رضيَ اللّه عنه. وهو موضوع.

(٢) أبو إدريس الخولاني: من جلة المشايخ وأئمتهم، كان يقول: ليس بفقيه من يحدث =

جَبَل(١): إنِّي أُحِبُّكَ في اللّهِ، فقالَ لهُ: أبشِرْ ثُمَّ أبشِرْ ثُمَّ أبشِر. [فإني] سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقُول: «يُنصَبُ لِطائِفَةٍ من أمَّتي كراسِيُّ مِن ذَهَبٍ حولَ العرشِ يومَ القِيامَةِ، تُضيءُ وجُوهُهم كالقمرِ ليلَةَ البدرِ، يَفْزَعُ النّاسُ ولا يَفزَعُون، ويَخافُ النّاسُ ولا يَخافُون، وهُم أوْلِياءُ اللّهِ الّذِينَ لا خَوفٌ علَيهِم ولا هُم يحزَنُون». قيلَ: مَن هؤلاءِ يا رسُولَ اللّه؟ قالَ: «المُتحابُّونَ في اللّه»(٢).

فالمُؤاخاةُ في اللّهِ تعالىٰ أصفىٰ مِنَ الماءِ الزُّلال، وما كانَ للّهِ سُبحانَه؛ فاللّهُ مُطالِبٌ بالصَّفاءِ فيهِ، وكُلُّ ما صَفَا دام، والأصلُ في دوامِ [٤٥/أ] صفائِه: عَدَمُ المُخالَفَة.

في الحديث: «لا تُمارِ أخاك، ولا تُمازِحْهُ، ولا تَعِدْهُ موعداً فتُخلِفَه»(٣).

= بالحديث من غير عمل، وكان يعلق سوطه في مسجده فيقول: أنا أحق بالسوط من الدواب، وكان يمشي على الماء في دجلة. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١: ١١٣).

(١) معاذ بن جبل: بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي، من الخزرج، يكنّىٰ أبا عبد الرحمن، شهد بدراً وهو ابن عشرين سنة، وبعثه النبي صلى الله عليه وآله وسلم قاضياً إلى اليمن ومعه كتاب إليهم يقول فيه: «بعثتُ لكم خير أهلي». توفي سنة ١٨هـ عن ثلاث وثلاثين سنة. انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١: ٢٢٨).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ»، كتاب الشعر، باب ما جاء في المتحابين في الله (٢: ٧٢٦)، وأحمد في «المسند» (٥: ٢٣٣، ٢٣٩، ٣٢٨)، والترمذي في «الجامع» أبواب الزهد، باب ما جاء في الحب في الله (رقم ٢٣٩٠)، والحاكم في «المستدرك» (٤: ١٦٩) وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي، وابن حبان (رقم ٥٧٧ مع الإحسان) جميعاً من حديث معاذ بن جبل رضيَ الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في «الجامع» كتاب البر والصلة، باب ما جاء في المراء، (رقم ١٩٩٥) من حديث ابن عباس رضيَ الله عنهما، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، والبخاري في «الأدب المفرد» (رقم ٣٩٤)، وابن السُّنّي في «عمل=

قالَ أبو سعيدِ الخرَّاز: صحبتُ الصُّوفيَّةَ خمسينَ سنَةً، ما وقعَ بيني وبينَهُم خِلاف، [فقيلَ لهُ: وكيفَ ذلكَ؟ قال:] لأنِّي كنتُ معَهُم علىٰ نفسِي.

ويَنبغي للعبدِ أنْ يكونَ لمولاَهُ، بنفسِه، ويُريدَ كلَّ مَا يُريدُ لِمولاَهُ لا لنَفْسِه، وإذا صاحَبَ شخصاً تكونُ صُحبتُه إيَّاهُ للّه، وإذا صَحِبَهُ للّهِ يجتهِدُ لَهُ كلَّ شيءٍ يَزِيدُهُ عندَ اللّهِ زُلفىٰ، وكلُّ مَن قامَ بحقُوقِ اللّهِ؛ يرزُقُهُ عِلماً بمعرفةِ النَّفسِ وعُيوبِها، ويُعَرِّفُهُ مَحاسِنَ الأخلاقِ ومحاسِنَ الأدَبِ، ويُوقِفُهُ من أداءِ الحُقوقِ علىٰ بَصيرَةٍ، ويُفقِّهُهُ في ذَلكَ كلِّهِ، ولا يَفُوتُهُ شَيءٌ ممّا يَحتاجُ إليهِ فيما يرجِعُ إلىٰ [حقوقِ] الحَق، وفيما يرجِعُ إلىٰ حُقوقِ الخَلْق.

فكلُّ تقصيرٍ يُوجدُ: مِن خُبثِ النَّفسِ وعدمِ تزكيَتِها، وبقاءِ صفاتِها علَيه، فإنْ صُحِبَتْ ظَلَمَتْ بالإفراطِ تارةً وبالتَّفريطِ أخرىٰ، وتعدَّتِ الواجبَ فيما يَرجِعُ إلىٰ الحقِّ والخَلْق. والحكاياتُ والمواعِظُ، والآدابُ وسماعُها، لا يعمَلُ في النَّفسِ زيادَةَ تأثير، ويكونُ كبئرٍ يُقْلَبُ فيه الماءُ من فَوق، فلا يمكُثُ فِيه، ولا يُنتَفَعُ بِه.

وإذا أُخِذَتْ بالتَّقوىٰ والزُّهدِ في الدُّنيا، نَبَعَ منها ماءُ الحياةِ، وتفقَّهَتْ وعلِمَتْ، وأدَّتِ الحُقوق، وقامَت بواجبِ الآدابِ بتوفيقِ [٤٥/ب] اللّهِ ومَنِّهِ وعَونِه.

فصلٌ

[في معرفةِ أحوالِ النفس]

الرُّوحُ العُلويُّ يَهُمُّ بالارتِقاءِ إلىٰ [مَوْلاهُ] شوقاً وحُنُوّاً وتنزُّهاً عَن

= اليوم والليلة» (رقم ٢٠٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣: ٣٤٤) من حديث معاذ بن جبل رضيَ اللّه عنه.

الأكوَان، ومِنَ الأكوانِ: القَلبُ والنَّفس.

فإذا ارتقىٰ الرُّوحُ يَحْنُو القلبُ [إليهِ] حُنُوَّ الولَدِ الحَنينِ البارِّ إلىٰ الوالِد، وتَحنُو النَّفسُ إلىٰ القلبِ الذي هُوَ الولَد، حنينَ الوالِدَةِ الحَنينَةِ إلىٰ ولَدِها. وإذا حَنَتِ النَّفسُ ارتقَت منَ الأرض، وانزَوَتْ عروقُها الضارِبَةُ إلىٰ العالَم السُّفلِيِّ، وانكوىٰ هَواها، وانحسَمَت مادَّتُه، وزَهِدَت في الدُّنيا، وتجافَتْ عن دارِ الغُرور، وأنابَت إلىٰ دارِ الخُلود.

فإذا سكَنَتِ [النَّفسُ، التي هيَ الأُمّ] إلىٰ الأرضِ انجذَبَ إليها القَلبُ انجذابَ [الولدِ المَيّالِ إلىٰ] الوالِدَةِ المُعوجَّةِ النّاقِصَةِ دونَ الوالِدِ الكامِلِ المُستَقِيم، وتنجَذِبُ الرُّوحُ إلىٰ الولَدِ الَّذي هُوَ القلبُ لِما جُبِلَ عليهِ [منَ] انجِذابِ الوالِد إلىٰ وَلَدِه. فعِندَ ذلكَ يتخلَّفُ عَن حقيقَةِ القِيامِ بحقِّ مَولاه.

وفي هذينِ الانجذابَيْنِ يَظهَرُ حُكمُ السَّعادَةِ والشَّقاوَةِ: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

فَمَن عرَفَ أُصولَ النَّفسِ وجِبِلّاتِها، عرَفَ أنْ لا قُدرَةَ لهُ علَيْها إلا بالاستِعانَةِ ببَارِئِها وفاطِرِها.

فإذا امتلأَ القلبُ سكينَةً خُلِعَ علىٰ القلبِ[1] خِلَعُ الطُّمأنينَة؛ لأنَّ السَّكينَةَ مزيدُ الإيمان، وفيها ارتِقاءُ القلبِ إلىٰ مَقامِ الرُّوح، لِمَا مُنِحَ من حظِّ اليقِين. وعِندَ توجُّهِ القَلبِ [إلىٰ محلِّ الرُّوح] تتوَجَّهُ النَّفسُ إلىٰ محلِّ القَلب، وفي ذلكَ طُمأنينَتُها [٤٦/أ] وإذا انزَعَجَت مِن مَقارِّ جِبِلّاتِها ودَواعي طبيعَتِها، مُتَطلِّعَةً إلىٰ مَقارِّ الطُّمأنينَة، فهيَ لوَّامَةٌ؛ لأنَّها تعودُ باللائِمَةِ علىٰ نفسِها، لنَظَرِها وعِلمِها بمحلِّ الطُّمأنينَة، ثُمَّ انجِذابِها إلىٰ محِلِّها التي كانَت فيهِ أمّارَةً

---

(١) في المخطوط: (النفس). والمثبَت من «العوارف» (٢: ٧٨٨).

بالسُّـوء، وإذا أقامَـت في محِلِّهـا لا يَغشـاهَا نورُ العِلمِ والمَعـرِفَة، فهي علىٰ ظُلمَتِها أمّارَةٌ بالسُّوء.

فالنَّـفسُ والـرُّوحُ يتَطـارَدان، فتارَةً تملِكُ القلـبَ دَواعِي الـرُّوحِ، وتارَةً تملِكُهُ دَوَاعي النَّـفس.

النَّـفسُ كلَّمـا تحرَّكَـتْ كَـدَّرَت صفاءَ القَلـب، وإذا تكـدَّرَ القَلبُ طَمِـعَ الشَّيطانُ وقَرُبَ مِنهُ؛ لأنَّ صفـاءَ القَلبِ محفُوفٌ بالتذكُّرِ والرِّعايَـة، وللذِّكرِ نورٌ يتَّـقيهِ الشَّيطان، كاتِّـقاءِ أحَدِنا النَّـار.

فبالتَّـقوىٰ [وجودُ] خالِـصِ الذِّكر، بِها ينفَتِـحُ بابُه، ولا يـزالُ [العبـدُ] يتَّـقِي حتىٰ يَحميَ الجَوارِحَ منَ المكارِه، ثُمَّ يحميَها من الفُضـول وما لا يَعنيه، فتَصِيرُ أقوالُهُ وأفعالُهُ ضرورةً، ثُمَّ ينقُلُ تَقواهُ إلىٰ باطِنِه، ويَطْهُرُ الباطِن، ويُقيِّدُه عن المَكارِهِ ثُم منَ الفُضول، حتَّىٰ يتَّـقِيَ حديثَ النَّـفس، ويَرىٰ الإصغاءَ إلىٰ حديـثِ النَّـفسِ ذنبـاً فيتَّـقِيـه، ويتَّـقِدُ القلـبُ عنـدَ هذا الاتِّقـاءِ بالذِّكر، اتِّـقادَ الكواكِـبِ في كَبِـدِ السَّمـاء، ويصيرُ القلبُ (السَّمـاءَ) محفـوظاً بزينةِ الكواكِبِ (الذِّكر)، وإذا صارَ كذلِكَ بَعُدَ الشَّيطان.

ومثلُ هذَا العبـدِ تَنـدُرُ في حقِّهِ الخواطِـرُ الشَّيطـانِيَّـةُ ولمَّاتُـهُ، [٤٦/ب] وتكونُ لَهُ خواطِرُ النَّـفس، ويحتاجُ إلىٰ أن يتَّـقِيَها، ويُمَيِّـزَها بالعِلم؛ لأنَّ مِنها خواطرَ لا يَضُرُّ إمضَاؤُها، كمُطالَبَاتِ النَّـفسِ بِحاجَاتِها، وحاجَاتُها تنقَسِمُ إلىٰ: الحُقوقِ والحُظوظ، ويَتَعيَّنُ التَّمييزُ عندَ ذَلك، واتِّهَامُ النَّفسِ بمُطالَبَاتِ الحُظوظ.

ومنَ الأدَبِ عندَ الاشتِبـاه: إنزَالُ الخَـواطِرِ بمُحَـرِّكِ النَّـفس وخالِقِهـا وبارِئِهـا وفاطِرِها، وإظهـارُهُ الفَقرَ والفَاقَةَ إلَيْه، والاعترافُ بالجَهـلِ، وطلبُ المعرِفَـةِ منه؛ فإنَّـهُ إذا أتىٰ بهذَا الأدَبِ يُغـاثُ ويُعان، ويَتبيَّنُ لَهُ: هَل الخـاطِرُ لِطَلَـبِ حظٍّ أو حَقٍّ.

فصلٌ

[في اللَّمَّتيْن]

لَمَّةُ المَلَكِ إذا حَرَّكَتِ الرُّوح، واهتزَّتِ الرُّوحُ بالهِمَّـةِ الصَّالِحَةِ [قَرُبَتْ] باهتزازِها [بالهمّةِ الصّالحةِ] إلىٰ حظائرِ القُرب، فوردَ عليهِ عندَ ذلكَ خواطرُ من الحَق، وإذا تَحقَّقَ بالقُرب؛ يتَحقَّقُ بالفناء، فتثبُتُ الخَواطِرُ الرَّبانيَّـةُ عندَ ذلكَ لموضِعِ قُربِهِ، فيكونُ أصلُ خواطِرِ الحَقِّ لَمَّـةَ المَلَك.

ولَمَّةُ الشَّيطانِ إذا حرَّكت النَّـفس، هَوَتْ بجِبِلَّتِها إلىٰ مركَزِها من الغريزَةِ والطَّبع، فظهرَ منها لحركَتِها خواطرُ مُلائِمَةٌ لغريزَتِها وطبيعَتِها وهوَاها، فصارَت خواطرُها نتيجةَ لَمَّـةِ الشَّيطان.

فأصلُهُمـا لَمَّتـانِ [يُنتِجـانِ أُخْـرَيَيْن]، وخـاطرُ اليقينِ والعقـلِ مُنـدَرِجٌ فيهِما.

فصلٌ

[في الحالِ والمقام]

[لا يَستقرُّ مقـامُ المحاسَبـةِ إلاّ بنازِلِ حـالِ المراقبـة، و] لا يستَـقِرُّ مقامُ المُراقَبة، إلا بنـازِلِ حالِ المُشـاهَدَة. فإذا مُنِـحَ العبـدُ بنازلِ حالِ المُشـاهَدة، استقـرَّت مُراقبَتُه، وصـارَت مقامَه. ونازِلُ المُشـاهدةِ أيضـاً [١/٤٧] يكونُ حالاً يحولُ بالاستِتـار، ويظهَـرُ بالتجلِّـي، ثُمَّ يصيرُ [مقـاماً] وتتخلَّـصُ شمسُـهُ عن كُسوفِ الاستِتار.

ثمَّ في مقامِ المُشاهَدةِ أحوالٌ وزياداتٌ وترقِّياتٌ من حالٍ إلىٰ حال أعلىٰ: مِن عينِ اليقينِ إلىٰ حقِّ اليقين، وحقُّ اليقينِ نازِلٌ يخرِقُ شَغافَ القَلب، فذلكَ آخرُ فروعِ المُشاهدَة.

وقَدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ إيماناً يُباشِرُ قَلبي»(١).

وهذهِ الحالةُ التي خرقَت شَغافَ القُلوب، ووصَلَت إلىٰ سُويدَاه ـ وهِيَ حقُّ اليَقين ـ هي أسنىٰ العَطايا، وأعزُّ الأحوالِ وأشرَفُها.

ونِسبَةُ هذا الحالِ منَ المُشاهَدة، كنِسبَةِ الآجُرِّ من التُّراب، [إذ يكونُ تراباً ثُم طيناً ثُم لَبِناً ثُم آجُراً]، فالمُشاهَدةُ كالتُّراب، والفَناءُ كالطِّين، والبقَاءُ كاللَّبِن، وهذهِ الحالَةُ كالآجُرِّ، وهيَ آخِرُ الفُروع، وهيَ أشرَفُ الأحوال، وهيَ مَحْضُ مَوهِبَةٍ لا تُكتسَب.

وسُمِّيَتْ كلُّ المواهِبِ منَ النَّوازِلِ بالعَبدِ أحوالاً؛ لأنَّها غيرُ مقدُورَةٍ للعَبدِ بِكَسْبِه.

وقَولُ عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَه: «سلُوني عن طُرُقِ السَّماواتِ، فإنِّي أعرَفُ بها مِن طُرُقِ الأَرض»، إشارةٌ إلىٰ المَقاماتِ والأحوال.

فطُرُقُ السَّماءِ: التَّوبَةُ والزُّهدُ وغيرُ ذلكَ منَ المَقامات. فإنَّ السَّالِكَ لهذهِ الطُّرُق يصيرُ قلبُهُ سماوِيّاً، فهِيَ طُرُقُ السَّماوات، ومُسْتَنزَلُ البرَكات، وهِيَ الأحوالُ التي لا يتحقَّقُ بها إلاَّ ذو قلبٍ سَماوِيّ.

ولا يَزالُ [العبدُ] يتزَهَّدُ بنازلَةِ حالٍ تُرِيهِ لذَّةَ الاشتِغالِ بالدُّنيا [٤٧/ب] وتفتَحُ لَهُ الإقبالَ علَيها، ثُمَّ تمحُو أثَرَ حالِهِ بِدِلالَةِ شَرَهِ النَّفسِ وحِرصِها علىٰ الدُّنيا ورُؤيَةِ العاجِلَة، حتَّىٰ تَتَداركَهُ المَعونَةُ منَ اللهِ الكريم؛ فيزهَدَ ويستَقِرَّ زُهْدُه.

ولا تزالُ نازِلَةُ حالِ التوكُّلِ تقرَعُ بابَ قلبِه، حتَّىٰ يتوكَّل، وهكذا حالُ

---

(١) أخرجه البزار في «المسند» (رقم ٢١٢٩ مع كشف الأستار)، وفيه سعيد بن سنان، بيِّنُ الضعف.

الرِّضا، [حتّىٰ يطمئنَّ علىٰ الرِّضا] فيصيرَ ذلكَ مَقامَه.

فصلٌ

[في إيجازِ المقامات]

جَمَعَ مقامُ التَّوبَـةِ حالَ الزَّجْرِ، وحالَ الانتِباه، وحالَ التَّيقُّظ، ومخالَفَةَ النَّـفسِ، والتَّـقوىٰ، والمُجاهَدة، ورؤيةَ عُيوبِ الأفعال، والإنابَـةَ، والصَّبرَ، والرِّضَـا، والمحـاسَبَـة، والمُراقَبَـة، والرِّعـايَة، والشُّكر، والخَوفَ والرَّجاء. فإذا صَحَّـتِ التَّوبَـةُ النَّصُـوح، وتزكَّتِ النَّـفسُ؛ انجَلَت مِرآةُ القَلب، وبانَ لَهُ قُبحُ الدُّنيا فِيها، فحصلَ الزُّهدُ. والزَّاهِدُ يتحقَّقُ فيهِ التوكُّلُ؛ لأنَّـهُ لا يَزهَدُ في المَوجُود إلا لاعتِمادِهِ علىٰ المَوعُود، والسُّكونُ إلىٰ وعدِ اللهِ هُوَ عَيْنُ التوكُّل.

وما بَـقِـيَ علىٰ العبـدِ من بقيَّـةٍ في تحقُّـقِ المقامـاتِ كلِّهـا بعـدَ توبَتِهِ، يستَدرِكُهُ بِزُهدِهِ في الدُّنيا.

سُئِـلَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وَجهَـهُ عَن الزُّهـدِ فقَال: أنْ لا تُبـاليَ مَن أَكَلَ الدُّنيا مؤمِنٌ أو كافِر.

فإذا [صَحَّ زهدُ العبدِ] صَحَّ توكُّلُه؛ لأنَّ صِدقَ توكُّلِهِ مكَّنَهُ من زُهدِهِ في المَوجُود. فمَن استقـامَ في التَّوبَـة، وزَهِدَ في الدُّنيـا، وحقَّقَ هذينِ المَقامَيْن، استوفىٰ سائِرَ المَقامات، وتَمكَّنَ فِيها، وتحقَّقَ بِها.

والزُّهدُ والتَّوبَـةُ إذا اجتَمعـا معَ صِحَّةِ الإيمـانِ وعُقودِهِ وشُروطِه، يُعْوِزُ هذهِ الثَّلاثَةَ رابِـعٌ بِهِ تمامُها، وهُوَ: دوامُ العَمَلِ للهِ [٤٨/أ]؛ لأنَّ الأحوالَ السَّنِيَّـةَ ينكَشِفُ بعضُهـا بهذهِ الثَّلاثَة، ويَستترُ بعضُهـا متوقِّفاً علىٰ وجودِ الرَّابِـع، وهُوَ دوامُ العَملِ لله.

وكثيرٌ منَ الزُّهَّادِ المُتحقِّقِينَ بالزُّهدِ، المُستقِيمينَ في التَّوبَةِ، تخَلَّفُوا عن

سَنِيِّ الأحـوال، لتخلُّفِهِم عَن هَذا الـرَّابِـع. ولا يُرادُ الزُّهدُ في الدُّنيا إلاَّ لِكمالِ الفَراغ المُستَعانِ بِهِ علىٰ إدامَةِ العمَلِ لله.

والعملُ لِلَّهِ: أن يكونَ العَبدُ لا يَزالُ ذاكِراً أو تالياً أو مُصَلِّياً أو مُراقِباً، لا يشغَلُهُ عن ذلِكَ إلاَّ واجِبٌ شَرْعِيّ، أو مُهِمٌّ لا بُدَّ منهُ طَبْعِيّ، فإذا استولَىٰ العملُ القَلبيُّ علىٰ القلبِ معَ وجودِ الشُّغلِ الَّذي أدَّاهُ [إليه] حكمُ الشَّرع، لا يفتُرُ باطِنُهُ عنِ العَمل. وإذا كانَ ــ معَ الزُّهدِ والتَّقوىٰ ــ متمسِّكاً بدوامِ العَمل؛ فقد أكملَ الفَضل، وما آلىٰ جَهداً في العُبوديَّـة.

قال سَهل: العبدُ إذا تَركَ التَّدبيرَ والاختِيار؛ فقَد قامَ مقامَ العبُوديَّـة.

فإذا تحقَّقَ العبـدُ بالتَّوبَـةِ والزُّهـدِ ودوامِ العملِ لِلَّه؛ شغلَهُ وقتُهُ الحاضِرُ عن وقتِهِ الآتي، ويصِلُ إلىٰ مقامِ تَرْكِ التَّدبيرِ والاختِيار، ثُمَّ يَصِلُ إلىٰ أنْ يَملِكَ الاختِيارَ، فيكونَ اختيارُهُ منَ اختِيـارِ الله؛ لزوالِ هَواه، ووُفورِ علمِه، وانقطاعِ مادَّةِ الجَهلِ عَن باطِنِه.

و[العبدُ] لا يتحقَّـقُ بهذا المقـامِ العالي، والحـالِ العزيـزِ ــ الذي هُوَ الغايَـةُ والنِّهايَـة، وهُوَ: أن يمـلِكَ الاختِيـارَ بعـدَ تـركِ التَّـدبير والخـروجِ منَ الاختِيار ــ إلا بإحكـامِ هذهِ الأربعـةِ التي ذكـرنَاها؛ لأنَّ [٤٨/ب] تركَ التَّدبيرِ فَناء، وتمليكُ التَّـدبيرِ والاختيـارِ منَ اللهِ عبـدَهُ، وردُّهُ إلىٰ الاختِيار، تَصرُّفٌ بالحَقّ، وهُوَ مقامُ البَـقاء، وهُوَ الانسِلاخُ عَن وجودٍ كانَ بالعبدِ إلىٰ وجودٍ يَصيرُ بالحَقّ.

وهذا العبدُ ما بَـقِيَ [عليهِ] منَ الاعوجاجِ ذرَّة، واستقامَ ظاهِرُهُ وباطِنُهُ في العبُودِيَّـة، وعَمَّ العِلمُ والعمَـلُ ظاهِـرَهُ وباطِنَـهُ، وتوطَّنَ حَظيرَةَ القُدْسِ بِنَـفْسٍ ــ بينَ يَدي الله ــ مُتمسِّكَـةٍ بالاستِكانَـةِ والافتِقار، متحقِّقَةٍ بقولِهِ عليهِ السَّلام: «لا تَكِلْنـي إلىٰ نفسِي طَرْفَـةَ عينٍ فأهـلِكَ، ولا إلىٰ أحـدٍ من خلقِـكَ؛ فأضِيـع.

اكلأني كلاءَةَ الوليد، ولا تَخَلَّ عنّي»[١].

فصلٌ

[في إشاراتِ المشايخ وترتيبِ المقامات]

[سُئِلَ المغازليُّ عن التوبة، فقال: تسألُني عن توبةِ الإنابةِ أو عن توبةِ الاستجابة؟ فقال السائلُ: ما توبةُ الإنابة؟ فقال: أن تخافَ منَ اللّهِ مِن أجلِ قدرتِهِ عليك، قال: فما توبةُ الاستجابة؟ قال: أن تستحيَ] من اللّهِ سُبحانَهُ لقُربِهِ منك. وهذا الَّذي ذكرَهُ من توبَةِ الاستِجابَةِ إذا تحقَّقَ العبدُ بِها، ربَّما تابَ في صلاتِهِ من كُلِّ خاطرٍ يُلِمُّ بِهِ سِوىٰ اللّه، ويستغفِرُ اللّهُ مِنه، وهذِهِ توبَةٌ لازِمَةٌ لبواطِنِ أهلِ القُرب.

كما قِيل: [طويل]

* وجودُكَ ذنبٌ لا يُقاسُ به ذنبُ *

مَن تمكَّنَ من قلبِه حلاوَةُ حُبِّ اللّهِ الخَاصّ، عَن صفاءِ مُشاهَدة، وصِرفِ يقين، أيُّ حلاوةٍ تَبقَىٰ في قلبِه؟ وإنَّما حلاوَةُ الهَوىٰ لعدَمِ حَلاوةِ حُبِّ اللّه.

فصلٌ

[قالوا في الورَع]

وقالَ النُّوري[٢]: [التوبةُ] أن تتوبَ عن كُلِّ شيء.

---

(١) سبق تخريجه ص ٦٠ من الكتاب.

(٢) النوري: أبو الحسين أحمد بن محمد النوري، بغدادي المنشأ والمولد، صحب السري السقطي، ومحمد بن علي القصاب، ورأىٰ أحمد بن أبي الحواري، وتوفي سنة ٢٩٥هـ. انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠ : ٢٤٩).

وقالَ الشِّبليُّ: الوَرَعُ أن تَتَورَّعَ أن يُشَتَّتَ قلبُكَ عنِ اللهِ طرْفَةَ عَيْنٍ.

وقالَ الخوَّاص[1]: الورَعُ: أنْ لا يتكلَّمَ [العبدُ] إلا بالحقِّ غضِبَ أو رضيَ، وأنْ يكونَ اهتمامُهُ بما يُرضِي اللهَ.

فصلٌ

[وقالوا في الزُّهد]

قالَ الجُنَيْد: الزُّهدُ [٤٩/أ]: خُلُوُّ اليدِ عن الأملاكِ، والقلوبِ عَن التَّتَبُّعِ.

وقالَ السَّرِي: الزُّهدُ: تركُ حظوظِ النَّفسِ من جميعِ ما في الدُّنيا، ويَجْمَعُ هذهِ الحُظوظَ: الماليَّةُ والجاهيَّة، حُبُّ المَنزِلةِ عندَ النّاس، وحبُّ المَحمَدَةِ [و] الثَّناءِ من الخَلْق.

فصلٌ

[وقالوا في الصَّبر]

قالَ سَهل: الصَّبرُ: انتظارُ الفرجِ منَ اللهِ، وهُوَ أفضَلُ الخِدمَةِ وأعلاها.

والصَّبرُ والعِلمُ مُتلازِمانِ، كالرُّوحِ والجسَدِ، لا يستَقِلُّ أحدُهُما دونَ الآخَرِ، ومصدَرُهما الغريزَةُ العقليَّة. وبالصَّبرِ تحامُلٌ على النَّفس، وبالعِلمِ تَرَقٍّ إلى الرُّوح. وهُما البرزَخُ والفُرقانُ بَيْنَ الرُّوحِ والنَّفس، ليستَقِرَّ كلُّ واحدٍ منهُما في مستقَرِّه، وفي ذلكَ صَريحُ العَدْل، وصِحَّةُ الاعتِدال. وبانفصالِ

---

(١) إبراهيم الخواص: أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل الخواص، من أجلّ مَن سلك طريق التوكل، كان أوحد المشايخ في وقته، من أقران الجنيد والنوري، وله مقام يطول شرحه. توفي بجامع الري سنة إحدى وتسعين ومئتين. انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني (١: ٢١٤).

أحدِهما عن الآخَرِ ميلُ النَّفسِ [إلىٰ] الرُّوح.

قالَ الجُنَيْد: إنَّ اللهَ أكرمَ المُؤمنِينَ بالإيمان، وأكرمَ الإيمانَ بالعَقل، وأكرمَ العَقل بالصَّبر.

وأنشدَ إبراهِيمُ الخوَّاصُ رحِمَهُ اللهُ شِعراً: [طويل]

صَبَرْتُ علىٰ بعضِ الأذىٰ خوفَ كُلِّهِ ... ودافعْتُ عَن نفسِي لنفسِي فَعزَّتِ
وجرَّعْتُها المكرُوهَ حتىٰ تدرَّبَتْ ... ولَو لَمْ أُجرِّعْها أذىً لاشمأزَّتِ
ألا رُبَّ ذُلٍّ ساقَ للنَّفسِ عِزَّةً ... ويا رُبَّ نفسٍ بالتذَلُّلِ عَزَّتِ
إذا ما مَدَدْتُ الكَفَّ ألتمِسُ الغِنىٰ ... إلىٰ غيرِ مَن قَالَ اسأَلُونِي فَشُلَّتِ
ساصبِرُ جَهدِي، إنَّ في الصَّبرِ عِزَّةً ... وأرضَىٰ بِدُنيايِ، وإنْ هِيَ قَلَّتِ

فصلٌ

[وقالوا في الفقر]

قالَ الكَتَّاني[1]: إذا صَحَّ الافتِقارُ [إلىٰ اللهِ] صَحَّ الغِنىٰ باللّه؛ لأنَّهُما حالانِ لا يتِمُّ أحدُهُما إلا بالآخَر.

وقال النُّورِيّ: نعتُ الفقراءِ السُّكونُ عندَ العدَم، والبذلُ عندَ الوجُود [٤٩/ب].

وقالَ الخَوَّاصُ: الفَقرُ رِداءُ الشَّرف، ولِباسُ المُرسَلين، [و] جِلبابُ الصَّالِحين. وقالَ سَهل: الفَقيرُ الصَّادِقُ لا يسأَل، ولا يَرُدُّ، ولا يَحْبِس. قالَ

(١) الكتاني: أبو بكر محمد بن علي بن جعفر الكتاني، أصله من بغداد، صحب الجنيد والنوري والخراز، وأقام بمكة وجاور بها إلى أن مات سنة اثنتين وعشرين وثلاثمئة، كان أحد المشار إليهم بالبنان، وكان يقال: الكتاني سراج الحرم. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١: ٢٣٨).

الزَّقَّاق(١): تَرْكَ الفُقَـراءُ، أخْذَ البُلْغَـةِ في وقتِ الحاجَـة؛ لأنَّهُم قَومٌ لا يَنفَعُهُمُ الوجُود، إذْ للّهِ فاقَتُهم، ولا يَضُرُّهُم الفَاقَةُ، إذْ للّهِ وُجودُهُم.

وقالَ بعضُهم: الفقـرُ: وقوفُ الحاجَةِ علىٰ القلْب، ومَحوُها عمَّا سِوىٰ الرَّب. وقالَ يحيىٰ بنُ معاذ: حقيقَةُ [الفقرِ: أنْ] لا يَستَغْنيَ إلا باللّه، ورسمُهُ: عدَمُ الأسبَابِ كلِّها.

فصلٌ

[وقالوا في الشُّكر]

قالَ بعضُهُم: الشُّكـرُ [هو] الغَيْبَـةُ عنِ [الشكـرِ برؤيـةِ المُنعِـم]. وقالَ يَحيىٰ: لستَ بِشاكرٍ ما دُمْتَ تشكر.

وغايةُ الشُّكـرِ: التَّحَيُّر، وذلكَ أنَّ الشُّكـرَ نِعمةٌ منَ اللّهِ يجـبُ الشُّكـرُ عَلَيْها. [ومعنىٰ الشكرِ في اللغةِ هُوَ: الكشْفُ والإظهار]، فَنَشْرُ النِّعمِ وتَعدَادُها وإظهَارُها باللِّسـانِ منَ الشُّكر، وباطِنُ الشُّكـرِ: أنْ تَستَعينَ بِها علىٰ طاعَةِ اللّه، ولا تَستَعِينَ بِها علىٰ المَعْصِيَـة.

وسمعتُ شَيْخَنا يُـنْشِدُ عَن بَعضِهِم: [كامل]

أوْلَيْتَنِـي نِعَماً أبُـوحُ بِشُكـرِهـا ... وكفَيْتَنِي كلَّ الأمُورِ بأسْرِها
فلأشْكُرَنَّكَ ما حيِيتُ وإنْ أَمُتْ ... فَلَيَشْكُرَنَّكَ أعظُمِي في قَبْرِها

[و] حقيقَةُ الشُّكـرِ: أنْ يَرىٰ جميعَ المَقْضِيِّ لَهُ بِهِ نِعَماً غيرَ ما يضُرُّهُ في

---

(١) الزقاق: أبو بكر أحمد بن نصر الزقاق، من أقران الجنيـد، ومن أكابر مشـايخ مصر، قيل بعد وفاته: لما مات الزقاق انقطعـت حجـة الفقـراء في دخـولهم مصر. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١ : ٧٦).

دينِه؛ لأنَّ اللَّهَ لا يقضي للعَبدِ المؤمِنِ شيئاً إلاَّ وهُوَ نِعمَةٌ في حَقِّه: فإمَّا عاجِلَةً يعرِفُها، ويَفهَمُها وإمَّا آجِلَةً بِمَا يُقضَىٰ لَهُ مِنَ المكارِهِ، فإمَّا أنْ تكونَ درجَةً لَهُ أو تَمْحِيصاً أو تَكفِيراً. فإذا عَلِمَ العبدُ أنَّ مَولاهُ أنْصَحُ لَهُ مِن نَفْسِهِ، وأعلَمُ بمصَالِحِه [٥٠/أ] وأنَّ كلَّ ما مِنهُ نِعَم؛ فَقَد شَكَرَه.

فصلٌ

[وقالوا في الخوف]

قالَ أبو عَمْرو الدِّمَشْقِي(١): الخَائِفُ: مَن يَخافُ مِن نَفْسِهِ أكثَرَ [مما يخافُ] مِنَ الشَّيطانِ. وقالَ بعضُهم: الخائِفُ: مَن يَترُكُ ما يَخافُ أن يُعذَّبَ عَلَيْه. وقيلَ: الخائِفُ: الذي لا يَخافُ غيرَ اللَّهِ الكريمِ إجْلالاً للَّهِ تَعالىٰ.

وقالَ سَهْل: الخوفُ ذَكَرٌ، والرَّجاءُ أُنثى، مِنهُمَا تتوالَدُ حقائِقُ الإيمان.

وقالَ ذُو النُّون: لا يُسْقَىٰ المُحِبُّ كأسَ المحبَّةِ حتىٰ يَنْضَجَ بالخَوفِ قَلْبُه.

فصلٌ

[وقالوا في الرَّجاء]

قال شاهٌ الكِرْماني(٢): علامَةُ الرَّجاءِ حُسْنُ الطَّاعَة. وقيلَ: الرَّجاءُ: قُرْبُ

---

(١) أبو عمرو الدمشقي: أحد مشايخ الشام، وكان من علمائها، كلهم يذعنون له لا سيما في علوم الحقائق، صحب ابن الجلاَّء، وأصحابَ ذي النون، وله كتاب في الرد على من قال بقدم الأرواح، توفي سنةَ عشرين وثلاثمئة. «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١: ٢٢١).

(٢) شاه الكرماني: أبو الفوارس، شاه بن شجاع الكرماني، كان من أولاد الملوك، صحب أبا تراب النخشبي وأبا عبيد البسري، وكان من أجلّ علماء الطائفة، وله =

القلبِ مِن مُلاطَفَةِ الرَّب. وقالَ ابنُ خَفيف: الرَّجاءُ: ارتِياحُ القُلوبِ لِرؤيَةِ [كرَمِ] المَرْجُوّ.

فصلٌ

[وقالوا في التوكُّل]

قالَ السَّرِيّ: التَّوكُّلُ: الانخِلاعُ عَنِ الحَولِ والقُوَّة.

وقالَ ذو النُّون: التوكُّلُ: [ترْكُ] تدبيرِ النَّفسِ، والانخِلاعُ منَ الحولِ والقُوَّة.

وقال الزَّقّاق: التوكُّلُ: ردُّ العَيْشِ إلىٰ يومٍ واحِد، وإسقاطُ هَمِّ غَد. وقالَ الواسِطيّ: أصلُ التوكُّلِ صِدقُ الفَاقَةِ والافتِقَار، وأنْ لاَ يُفارِقَ التَّوكُّلَ في أمانِيه، ولا يلتَفِتَ بسرِّه إلىٰ توكُّلِهِ لحظَةً في عُمْرِه.

وقالَ سهلٌ: أوَّلُ مقاماتِ التوكُّلِ: أن يكونَ العبدُ بينَ يدَي اللّهِ كالميّتِ بينَ يدَي الغاسِل، يُقلِّبُهُ كيفَ أراد، ولا يكونُ لَهُ حرَكةٌ ولا تَدبير.

وقالَ القَصّار[1]: التوكُّلُ هُوَ: الاعتصامُ باللّه. وقالَ سَهلٌ [أيضاً]: العِلمُ كلُّهُ بابٌ منَ التعبُّد، والتعبُّدُ كلُّهُ بابٌ منَ الورَع، والورَعُ كلُّهُ بابٌ مِنَ الزُّهد، والزُّهْدُ كلُّهُ بابٌ منَ التوكُّل.

= رسالات مشهورة وكلام حسن. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١ : ٢٠٠).

(١) حمدون القصار: هو حمدون بن أحمد بن عمارة، أبو صالح القصار النيسابوري، شيخ أهل الملامة بنيسابور ومؤسس الطريقة الملامية، ومنه انتشرت، صحب أبا تراب النخشبي وعلياً النصراباذي، كان عالماً فقيهاً يذهب مذهب الثوري، توفي رحمه اللّه سنة ٢٧١هـ بنيسابور، ودفن في مقبرة الحيرة. انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠ : ٢٣١)، «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١ : ٧١).

والتوكُّلُ [٥٠/ب] علىٰ قدرِ العلـمِ بالوكِيـل، فكلُّ [مَن] كانَ أتمَّ معرفةً؛ كانَ أتمَّ توكُّلاً، ومَن كمُلَ توكُّلُهُ غابَ في رُؤيةِ الوكيلِ عَن رؤيَـةِ توكُّلِه، ثُمَّ إنَّ [قوّةَ] المَعرفَةِ تُفيدُهُ صِرْفَ العلمِ بالعَدلِ في القِسمَةِ، وأنَّ الأقسَامَ نُصِبَت بإزاءِ المقسومِ لَهُم عدلاً ومُوازَنة، وأنَّ النَّظَرَ إلىٰ غيرِ اللهِ: لوجودِ الجَهلِ في النَّـفس، وكلَّما أحسَّ بشيءٍ يقدَحُ في توكُّلِه، يرَاهُ مِن مَنْبَعِ النَّـفس.

فنقصانُ التوكُّلِ يَظهَرُ بظهُورِ النَّـفس، وكَمالُهُ يثبُتُ بغَيْبَةِ النَّـفس، وليسَ للأقوياءِ اعتدادٌ بتصحيحِ توكُّلِهِم، وإنَّما شغَلَهُم في تغييبِ النَّـفس بتقوِيَـةِ موادِّ القَلب، فإذا غابَتِ الشَّمْسُ، انحسَمَتْ مادَّةُ الجَهْل، فصَحَّ التوكُّلُ والعَبْدُ غيرُ ناظِرٍ إلَيه.

وكلَّما تحرَّكَ منَ النَّـفس بقيَّة، يَرِدُ علىٰ ضميرِهِم سرُّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْـلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [العنكبوت: ٤٢]، فيغلِـبُ وجـودُ الحقِّ الأعيـانَ والأكوانَ، ويَرىٰ الكونَ باللّه، مِن غيرِ استقلالِ الكَوْنِ في نفسِه، فَيصيرُ التوكُّلُ حينَئذٍ اضطِراراً، ولا يَقْـدَحُ في توكُّلِ مثـلِ هذا المتـوكِّلِ ما يقـدَحُ في تـوكُّلِ الضُّعفَاءِ مِن وجودِ الأسبَابِ والوسَائِطِ؛ لأنه يرىٰ الأسبابَ مَواتاً لا حياةَ لَها إلاَّ بالتَّوكُّل، وهَذا توكُّلُ خواصِّ [خواصِّ] أهلِ المَعرفةِ.

فصلٌ

[وقالوا في الرِّضا]

قالَ الجُنَيْد: الرِّضا هُوَ: صِحَّـةُ العِلمِ الواصِـلِ إلىٰ القُلـوبِ، فإذا باشَرَ القَلْبُ حقيقَةَ العِلمِ أدَّاهُ إلىٰ الرِّضـا، وليسَ [٥١/أ] الرِّضَا والمحَبَّـةُ كالخَـوْفِ والرَّجـاء، فإنَّهُما ــ يعني الرِّضـا والمَحَبَّـةَ ــ حالانِ لا يُفارِقـانِ العَبـد، لا في الدُّنيا ولا في الآخِرَةِ، ولا في الجَنَّـةِ يَسْتَغْنِي عَنْهُما.

وقالَ أبو تُرابٍ[1]: ليسَ يَنالُ الرِّضا عَنِ اللهِ مَن [للدُّنيا] في قَلْبِه مِقْدار.

وقالَ سيِّدُنا الحَسنُ بنُ عليٍّ عليهما السَّلام[2]: مَنِ اتَّكَلَ علىٰ حُسْنِ اختيارِ اللهِ لَهُ لَمْ يَتمنَّ أنَّهُ في غيرِ الحَالَةِ التي اختارَ اللهُ لَه.

وقال عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ: [مَن جلسَ علىٰ بساطِ الرِّضا، لم يَنَلْهُ منَ اللهِ مكروهٌ أبداً، و] مَن جلسَ علىٰ بِساطِ السُّؤال، لَمْ يَرضَ عَنِ اللهِ في كُلِّ حَال.

وقِيل: الرِّضا أنْ لا تَنْدَمَ علىٰ ما فاتَ مِنَ الدُّنيا، ولا تَتأسَّفَ علَيْها.

إذا تمكَّنَ النُّورُ منَ البَاطِنِ اتَّسَعَ الصَّدْرُ، وانفَتَحتْ عَيْنُ البَصِيرة، وعايَنَ حُسْنَ تدبيرِ اللهِ، فَيَنتَزِعُ السُّخْطَ والضَّجَرَ؛ لأنَّ انشِراحَ الصَّدْرِ يتضَمَّنُ حلاوَةَ الحُبِّ، وفِعْلُ المَحْبوبِ بِمَوقِعِ الرِّضا عندَ المُحِبِّ الصَّادِق؛ لأنَّ المُحِبَّ يَرىٰ أنَّ الفِعلَ منَ المَحبُوبِ مُرادُهُ واختيارُهُ، فيَفْنىٰ في لِذَّةِ رؤيَةِ اختيارِ المَحبُوبِ عَنِ اختيارِ نَفْسِه، كما قِيل: [بسيط]

* [و] كُلُّ ما يفعَلُ المحبوبُ محبوبُ *

---

(١) أبو تراب النخشبي: هو أبو تراب عسكر بن الحصين النخشبي النسفي، كان من أشهر شيوخ خراسان، مشهوراً بكرمه وزهده وعبادته، له كرامات باهرة، وأحوال ظاهرة في البيداء وغيرها، وهو من أشهر الشيوخ سوّاح الصوفية، يقطع الصحارىٰ الواسعة متجرداً من كل لوازم الحياة، صحب حاتماً الأصم وغيره. توفي رحمه الله في الصحراء سنة ٢٤٥هـ. انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠: ٤٥)، «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١: ٧١).

(٢) الحسن بن علي: ابن أبي طالب، وابن فاطمة الزهراء بنت خير الخلق ﷺ، ولد في نصف رمضان سنة ثلاث، وأذَّن رسول الله ﷺ في أذنه، وسماه الحسن. كان حليماً كريماً، ترك الخلافة لله عز وجل، وقد وليها بعد قتل أبيه سبعة أشهر، ومناقبه مشهورة، توفي سنة خمسين ودفن بالبقيع رضيَ الله عنه. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١: ٧٩).

فصلٌ

[في ذكرِ الأحوال]

كانَ رسـولُ اللّهِ ﷺ يَدْعُو: «اللَّهُـمَّ اجْعَـلْ حُبَّـكَ أحـبَّ إليَّ مِن نَفْسِي وسَمْعِي وبَصَرِي وأهلِي ومَالِي، ومنَ المَاءِ البَارِدِ»[1]. فكأنَّـهُ ﷺ طلَبَ خالِصَ الحُـبّ، وخالِصُ الحـبِّ هُوَ: أنْ يُحِبَّ اللّهَ بكلِّـيَّتِهِ، وذلِكَ أنَّ العبدَ قد يكونُ في حالٍ [قائماً بـ] شُروطِ حالِهِ بحُكمِ العِلم، والجِبلَّـةُ [٥١/ب] قد تَـكْرَه، ويكونُ النَّظرُ إلىٰ الانقِيـادِ بالعِلمِ لا إلىٰ الاستِعصـاءِ بالجِبلَّـة، فقَدْ يُحِبُّ اللّهَ ورَسُولَهُ بحُكمِ الإيمَان، ويُحِبَّ الأهلَ والولَدَ بحُكمِ الطَّبع.

وبواعِثُ المحبَّـةِ في الإنسـانِ مُتنوِّعَـة، فمِنهـا: محبَّـةُ الرُّوح، ومحبَّـةُ القَلب، ومحبَّـةُ النَّـفس، ومحبَّـةُ العَقل. فقولُهُ عليهِ السَّلام [وقد ذكَرَ] الأهلَ والمـالَ والمَاءَ البارِدَ، [معناهُ]: استِئْصَـالُ عـروقِ المحبَّـةِ بمحَبَّـةِ اللّه، حتىٰ يكونَ حبُّ اللّهِ غالباً؛ فيُحِبَّ اللّهَ بقَلْبِهِ ورُوحِهِ وكُلِّـيَّتِهِ، حتىٰ يكونَ حبُّ اللّهِ أغلبَ ــ في الطَّبـعِ أيضـاً والجِبلَّةِ ــ من حُبِّ المَـاءِ البَارِد، وهذا يكونُ [حبّاً] خاصّاً لِخَواصِّ تنغمِرُ بِهِ وبِنورِهِ نَارُ الطَّبْعِ والجِبلَّة، وهذا يكونُ حبَّ الذَّاتِ عَن مشاهَدَةٍ بعكوفِ الرُّوحِ وخُلوصِهِ إلىٰ مَواطِنِ القُرب.

والحُبُّ الخاصُّ هُوَ: حبُّ الذَّاتِ عن مُطالعَةِ الرُّوح، وهُوَ الحبُّ الذِي فيهِ السَّـكَـرات، وهُوَ الاصطِنـاعُ مِنَ اللّهِ الكَريم لِعَبْدِه، واصطِفَاؤهُ إيَّـاه، وهذا الحُبُّ يكونُ مِنَ الأحـوال؛ لأنَّـهُ مَحْضُ مَوهِبةٍ ليسَ لِلكسـبِ فيهِ مَدْخَل، وهُوَ مفهـومٌ مِن قَولِهِ عَليهِ السَّـلامُ: «أحَـبَّ إليَّ مِنَ المـاءِ البَـارِد»؛ لأنَّهُ كلامٌ عَن

---

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع»، كتاب الدعوات، باب ٧٤، (رقم ٣٤٩٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١ : ٢٢٦) من حديث أبي الدرداء رضيَ اللّه عنه.

وِجْدَانِ رُوحٍ تلْتَذُّ بِحُبِّ الذَّات.

وهَذا الحُبُّ رُوح، والحُبُّ الذي يَظهَرُ مِن مُطالَعَةِ الصِّفات، ويَطْلُعُ مِن مطَالِعِ الإيمانِ: قَالَبُ هَذا الرُّوح. ولمَّا صَحَّت محبَّتُهُم هذِه أخبرَ اللَّهُ عَنْهُم بقولِه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، [١/٥٢] لأنَّ المُحِبَّ [يَـذِلُّ] لمَحْبُوبِهِ ولمَحبُوبِ محبُوبِه. [قيلَ] شعراً: [طويل]

لعَيْنٍ تُفَدَّىٰ ألفُ عيْنٍ وتُـتَّـقَىٰ ويُكرَمُ ألفٌ لِلْحَبِيبِ الْمُكْرَمِ

وهـذا الحبُّ الخـاصُّ هُوَ أصلُ الأحـوالِ السَّنِيَّةِ ومُوجِبُهـا، وهُوَ في الأحوالِ كالتَّوبَـةِ في المَقاماتِ: فمَن صحَّتْ توبَـتُـهُ علىٰ الكمَال، تَحقَّقَ بسائِرِ المقاماتِ مِنَ الزُّهدِ [والرِّضا] والتوكُّل، ومَن صحَّتْ محَبَّتُهُ هذهِ تحقَّقَ بسائِرِ الأحوالِ من الفَناءِ والبَقاءِ والصَّحْوِ والمَحْوِ وغيرِ ذلك.

والتوبَـةُ لهـذا الحُبِّ أيضـاً بمثابَـةِ الجُثمـان؛ لأنَّها مُشْتَمِلَةٌ علىٰ الحُبِّ العام[1] الذي هُوَ لهذا الحُبِّ كالجَسد، ومَن أخذَ في طريقِ المَحبوبين، وهُوَ طريقٌ خاصٌّ مِن طُرُقِ المحبَّةِ تَكْمُلُ فيه، ويَجتمعُ بهِ رُوحُ الحُبِّ الخاصِّ معَ قالَبِ الحُبِّ العَامِّ الذي تشْتَمِلُ علَيْهِ التَّوبَةُ النَّصُوح، وعندَ ذلكَ لا يتَقَلَّبُ في أطوارِ المقاماتِ؛ لأنَّ التَقلُّبَ فيها [و] الترقِّيَ مِن شيءٍ منها إلىٰ شَيءٍ: طريقُ المُحِبِّين.

فَمَنْ أخَذَ طريقَ المَحْبُوبينَ، يَطْوي بِساطَ أطوارِ المقامَات، ويَتدَرَّجُ فيهِ

---

(١) نصّ في «العوارف» علىٰ أنّ الحبَّ حُبّان: حبٌّ عام، وحبٌّ خاص، فأما الحبُّ العامّ فهو حبٌّ يكون لكسب العبد فيه مدخل، محرّكه من الصفات، وهو مفسَّرٌ بامتثال الأمر، وربما كان حباً من معدن العلم بالآلاء والنعم. «عوارف» (٢: ٨٦٤). والحبُّ الخاص هو الذي تقدم بيانه قريباً.

صَفْوُها وخالِصُها بأتمِّ وصْفِها.

والمقاماتُ لا تقيِّدُهُ ولا تحبِسُهُ، وهُوَ يُقَيِّدُها ويحبِسُها بترقِّيهِ مِنها، واستنزَاعِهِ صُفوِها وخالِصَها؛ لأنَّهُ حيثُ أشرقت عَلَيْهِ أنوارُ الحُبِّ الخاصِّ خَلَعَ ملابِسَ صفاتِ النَّفسِ ونُعُوتَها.

والمقاماتُ كلُّها مُصفِّيةٌ للنُّعوتِ والصِّفاتِ النَّفسانِيَّة: فالزُّهدُ تصفيةٌ عَنِ الرَّغبَة، والتوكُّلُ تصفيةٌ عَن قِلَّةِ الاعتمادِ المُتولِّدِ [٥٢/ب] مِن جَهْلِ النَّفس، والرِّضا تصفيةٌ عَن ضَرَبَانِ عِرقِ المُنازَعَةِ، والمُنازَعَةُ لِبقاءِ جُمودٍ في النَّفس مَا أشرَقَتْ علَيْها [شُموسُ] المحبَّةُ الخاصَّة؛ فَبَقِيَتْ ظُلمَتُها وجُمودُها.

فمَن تحقَّقَ بالحُبِّ الخاصِّ لانَتْ نَفْسُه، وذهَب جُمودُها، فماذا يَنزِعُ الزُّهدُ مِنهُ ورغبةُ الحُبِّ أحرَقَت رغْبتَه؟! وماذا يُصفِّي مِنهُ التَّوكُّلُ ومُطالَعةُ الوكيلِ حَشْوُ بَصيرَتِه؟! [و] ماذا يسكِّنُ فيه الرِّضا مِن عُروقِ المُنازَعَة، مِمَّن لَمْ يُسَلِّم كُلِّيَّتَه؟!

فصلٌ

[منهُ]

النَّفسُ إذا تحرَّكَت صِفَتُها، منقلِبَةً مِن دائِرَةِ الزُّهد، يردُّها الزَّاهدُ إلىٰ الدَّائرَةِ بزُهْدِه، والمتوكِّلُ إذا تحرَّكَت [نفسُهُ] يردُّها بتوكُّلِه، والرَّاضي يَردُّها برِضاه، وهذهِ الحرَكاتُ مِنَ النَّفسِ بقَايا وجُودِيَّةٌ تَفْتَقِرُ إلىٰ سياسَةِ العِلْم، وفي ذلكَ يَشَمُّ رُوحَ القُرْبِ مِن بَعيد، وهُوَ: أداءُ حقِّ العُبودِيَّةِ مبلَغَ العِلم، وبحسَبِهِ الاجتهادُ والكَسْب.

ومَن أخَذَ في طريقِ الخَاصَّةِ عرَفَ طريقَ التَّخلُّصِ مِنَ البَقايا، بالتستُّرِ بأنوارِ فَضْلِ الحَقِّ تَعالى، ومَنِ اكتَسى ملابِسَ أنوارِ القُربِ برُوحِ دائِمَةِ العُكوف،

محميَّةٌ عنِ الطوارقِ والصُّرُوفِ: لا يُزعِجُهُ طَلَب، ولا يُوحِشُهُ سَلَب.

فالزُّهْدُ والتَّوكُّلُ والرِّضا كائنٌ فيهِ وهُوَ غيرُ كائنٍ فيها، علىٰ معنىٰ أنَّهُ كيفَ تقلَّبَ كانَ زاهداً وإن رَغِب؛ لأنَّهُ بالحقِّ لا بنفسِه، وإنْ رُئِيَ منهُ الالتفاتُ إلىٰ الأسبابِ فهُوَ متوكِّلٌ، وإنْ وُجِدَتْ [٥٣/أ] منهُ الكَراهَةُ، فهُوَ راضٍ؛ لأنَّ كراهتَهُ لِنَفسِه، ونفسُهُ لِلْحَقِّ، ولأنَّ كراهتَهُ للحَقِّ: أُعيدَ إليهِ نَفْسُهُ بدَواعِيها وصفاتِها مطهَّرةً موهوبةً محمولةً ملطوفاً بها، فصارَ عَيْنُ الدَّاءِ دواءَه، وصُوَرُ الإعلالِ شِفاءَه، ونابَ طلبُ اللهِ لهُ منابَ كُلِّ طلبٍ من زُهدٍ وتوكُّلٍ ورِضا.

وقالَ الورَّاق: السُّرورُ باللهِ من شِدَّةِ المحبَّةِ للهِ سُبحانَه، والمحبَّةُ في القَلبِ نارٌ تَحرِقُ كلَّ دَنَس.

قال سَمنُون[١]: ذهبَ المُحِبُّونَ بِشَرَفِ الدُّنيا والآخِرَة. لأنَّ النبيَّ ﷺ يَقُولُ: «المرءُ معَ مَن أَحَبَّ»[٢] فَهُمْ مَعَ اللهِ.

فبِنزاهَةِ النَّفسِ وكمالِ التزكيَةِ يُستَعَدُّ لِلْمحَبَّة، والمحَبَّةُ موهِبَةٌ غيرُ معلَّلَةٍ بالتزكيَة، ولكِنْ سُنَّةُ اللهِ جارِيَةٌ أنْ يُزَكِّيَ نفوسَ أحبابِهِ بحُسْنِ توفيقِهِ

---

(١) سمنون بن حمزة: هو أبو الحسن الخواص، ويسمى (سمنوناً المحب)، وقد سمى هو نفسه سمنوناً الكذاب لكتمه عسر البول بلا تضرر، صحب سرياً السقطي ومحمد ابن علي القصّاب وأبا أحمد القلانسي، كان يتكلم في المحبة أحسن كلام، وتحدث ذات مرة في المحبة فتكسَّرت قناديل المسجد. توفي ــ رحمه الله ــ بعد الجنيد سنة ٢٩٨هـ، انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠: ١٨٩ ــ ٢١٢)، «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١: ٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»، كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله (رقم ٦١٦٨ ــ ٦١٦٩) من حديث ابن مسعود رضيَ اللّه عنه، وبعده (رقم ٦١٧٠) من حديث أبي موسىٰ رضيَ اللّه عنه، ومسلم في «الصحيح» كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (رقم ٢٦٤٠) من حديث ابن مسعود رضيَ اللّه عنه.

وتأييدِه، وإذا مُنِحَ نَزاهَةَ النَّفسِ وطهارَتَها، ثُمَّ جُذِبَ رُوحُه بجاذِبِ المَحبَّةِ خُلِعَ عَلَيْه خِلَعُ الصِّفاتِ والأخلاقِ، ويكونُ ذلكَ عندَهُ رتبةً في الوصُولِ، فتارةً ينبعِثُ الشَّوقُ مِن باطنِهِ إلىٰ ما وراءَ ذلكَ، لكونِ عظيمِ أمرِ اللهِ غيرَ مُتَناه، وتارةً يتسلَّىٰ بما مُنِح، فيكونُ ذلكَ وصولَهُ الَّذي يُسَكِّنُ نيرانَ شوقِهِ، وبباعثِ الشَّوقِ تَسْتَقِرُّ الصِّفاتُ الموهوبَةُ المُحقَّقَةُ رتْبَةَ الوُصولِ عندَ المحِبّ، ولولاَ باعثُ الشَّوقِ رجَعَ القَهْقَرىٰ، وظَهَرتْ صِفاتُ نفسِه الحائلة بينَ المَرْءِ وقَلْبِه.

ومَنْ ظَنَّ مِنَ الوُصولِ [غيرَ ما ذكرْناه] أو تخايَلَ لَهُ غيرُ هذَا القَدْرِ، فهُوَ متعرِّضٌ لمذهبِ النَّصارىٰ في اللاَّهوتِ والنَّاسُوت [٥٣/ب].

فصلٌ

[في الشَّوْق]

إشاراتُ المشايخِ في الاستغراقِ والفَناءِ كلُّها عائدةٌ إلىٰ تحقيقِ مقامِ المحبَّة، باستيلاءِ نورِ اليقينِ وخُلاصَةِ الذِّكْرِ علىٰ القَلْب، وتحقيقِ حقِّ اليقينِ بزوالِ اعوجاجِ البقايا، وأَمْتِ اللَّوْثِ الوُجُودِيِّ مِن بقايا صفاتِ النَّفس، وإذا صَحَّتِ المحُبَّةُ ترتَّبَتْ علَيها أحوالُها وتَبِعَتْها.

ولا يكونُ المُحِبُّ إلا مُشتاقاً أبداً؛ لأنَّ أمْرَ الحقِّ لا نِهايَةَ لَه، فما مِن حالٍ يبلُغُها المُحِبُّ إلا ويَعْلَمُ أنَّ [ما] وراءَ ذلكَ أوفىٰ مِنها وأتَمّ.

ولَيْسَ هذا الشَّوقُ [الحادثُ عندَه] كَسْبَه، وإنَّما هُو مَوهِبَةٌ خَصَّ اللهُ بِها المُحِبِّين.

والشَّوْقُ مِنَ المَحبَّة كالزُّهدِ مِنَ التَّوبَة، إذا استقرَّتِ التَّوبَةُ ظَهَرَ الزُّهْد، وإذا استَقَرَّتِ المحبَّةُ ظَهَرَ الشَّوْق.

وقالَ أبو عُثمان: الشَّوقُ ثَمَرةُ المحبَّة، مَن أحبَّ اللهَ اشتاقَ إلىٰ لِقائِه.

وقالَ ذُو النُّون: الشَّـوقُ أعلىٰ الدَّرجـاتِ وأعلىٰ المقامات، فإذا بَلَغَها الإنسانُ استَبْطَأَ المَوْتَ شوقاً إلىٰ ربِّه، والنَّظَرِ إليه.

وعِندي أنَّ الشَّوقَ الكائِنَ في المحبِّينَ إلىٰ رُتَبٍ يتوقَّعُونَها في الدُّنيا، غيرُ الشَّـوقِ الذي يكونُ يُتوَقَّـعُ ما بعـدَ المَـوت، واللهُ يُكاشِـفُ أهلَ ودِّهِ بعطـايا يَجِدُونَها عِلماً، ويَطْلُبونَها ذوقاً، فكذلكَ يكونُ [شوقُهم]، ليصيرَ العِلمُ ذوقاً، وليسَ مِن ضَرُورةِ مقامِ الشَّوقِ استِبطَاءُ المَوْت.

وربَّما الأصِحَّاءُ منَ المحبِّينَ يستلِذُّونَ بالحَياةِ [١/٥٤] للّهِ كما قالَ الجَليلُ لخليلِـه عليـهِ السَّـلام: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

فمَن كانَت حياتُـهُ للّهِ منَحَـهُ اللهُ الكـريمُ لـذَّةَ المناجَـاةِ والمحبَّـةِ للّه، [فـ] ـتمتلِيءُ عينُهُ مِنَ النَّـقْـد[١]، ثُم يُكاشِفُـهُ مِنَ المِنَـحِ والعَطـايَا في الدُّنيا مَا يتحقَّقُ بمقَامِ الشَّوقِ من غَيْرِ الشَّوقِ إلىٰ ما بَعدَ المَوْت.

وإذا كانَت أنصِبَـةُ القُـربِ منَ العطـايا والمِنَحِ غيرَ مُتناهِيَـة، كيفَ يُنكَرُ الشـوقُ منَ المحِـبِّ؟ فهُوَ غيرُ غائبٍ وغيرُ مُشتـاقٍ بالنِّسبةِ إلىٰ ما وَجَد، ولكن يكونُ مُشتاقاً لِما لَمْ يَجِد مِن أنصِبَةِ القُرب، فكيفَ يُمْنَعُ حالَ الشَّوقِ والأمْرُ هَكذا؟

والإنسانُ لا بُدَّ لَهُ مِن أمورٍ يَرُدُّها حُكمُ الحالِ لمَوضعِ بشَرِيَّتِهِ وطبيعتهِ، وعدمِ وقُوفهِ علىٰ حَدِّ العِلمِ الذي يَقتَضيهِ حُكْمُ الحَال، ووجودُ هذهِ الأمُورِ مُثيرٌ لِنارِ الشَّوق، ولا نعني بالشَّوْقِ إلا مُطالَبَةً تَنبعِثُ مِنَ الباطِنِ إلىٰ الأَوْلىٰ والأعلىٰ مِن أنصِبَةِ القُرب.

---

(١) لعله يعني به الأمرَ الحالَ الواقع، في مقابلة المستقبلِ بعدَ الموت.

وهذهِ المُطالَبةُ كائِنةٌ في المُحبِّين، فالشَّوقُ إذاً كائنٌ لا وجْهَ لإنْكارِه.

قالَ فارِس: قلوبُ المُشتَاقِينَ مُنوَّرةٌ بنورِ اللهِ، فإذا تحرّكَتِ اشتِياقاً أضاءَ النُّورُ ما بينَ المَشرِقِ والمَغرِب، فيَعرِضُهـم اللهُ علىٰ الملائِكَة، فيقولُ: هؤلاءِ المُشتاقُونَ إليَّ، أُشهِدُكُم أنّي إلَيهم أشوَق.

وقالَ ابنُ عطاء: الشَّوقُ: احتِراقُ الحَشا وتلهُّبُ القُلوب، وتَقَطُّعُ الأكبادِ مِنَ البُعدِ بَعْدَ القُرْب [٥٤/ب].

وقالَ النَّصْراباذِيُّ[١]: لِلْخَلْـقِ كلِّهِم مقامُ الشَّـوْقِ لا مَقامُ الاشتِياق، فمَن دخَلَ في حالِ الاشتياقِ هامَ فيهِ حتَّىٰ لا يُرىٰ لَهُ أثرٌ ولا قَرار.

فصلٌ

[في الأُنْس]

قالَ الواسِطـيّ: لا يَصِـلُ إلىٰ مقـامِ الأُنسِ مَن لَمْ يَسْتَوحِشْ مِنَ الأكوانِ كلِّها.

كتَبَ مُطَـرِّفُ بنُ الشِّخِّيـرِ[٢] إلىٰ عُمرَ بنِ عبـدِ العزيز: ليَكُنْ أُنْسُكَ باللهِ،

---

(١) النصراباذي: هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصراباذي، شيخ خراسان في وقته، صحب الشبلي، وأبا علي الروذباري والمرتعش، وجاور بمكة، حج سنة ٣٣٦هـ، ومات سنة ٣٦٧هـ، له أقوال مشهورة في الحقائق، منها قوله: «إذا بدا لك شيء من بَوادي الحق فلا تلتفت إلى جنة ولا نار، ولا تُخطِرْهما ببالك، وإذا رجعت عن ذلك الحال فعظِّم ما عظمه الله تعالى. انظر ترجمته في: «طبقات الصوفية» للسلمي ص ٤٨٤، «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١: ١٠٥).

(٢) مطرف بن الشخير: هو مطرف بن عبد الله بن الشخير، من الأئمة الأكابر، ومن حفاظ الحديث، كان يقول: لا يحتكم ورع إلا على أهله. توفي رضي الله عنه بعد =

وانقطاعُكَ إليْه، فإنَّ للّهِ عباداً استأْنسُوا باللّه، وكانوا في وحْدَتِهم أشدَّ استئناساً منَ النّـاس في كثْرَتِهم، وأوحشُ ما يكـونُ النّـاسُ آنَسُ ما يكـونُون، وآنسُ ما يكونُ النّاسُ، أوْحشُ ما يكونُون.

وقالَت رابِعَةُ[1]: كلُّ مطيعٍ مُستأنِس. وأنشَدَتْ: [كامل]

ولَقَدْ جَعَلْتُكَ في الفؤادِ مُحَدِّثِي ... وأبَحْتُ جِسْمِيَ مَن أرادَ جُلوسِي

فـالجِسْـمُ منّي للجليـسِ مُؤانِـسٌ ... وحَبيبُ قَلْبِيَ فـي الفُـؤادِ أنِيسِـي

وقـالَ مـالكُ بنُ دينـار[2]: مَن لَمْ يستأْنِسْ بمُحـادَثـةِ اللّـهِ عَن محادَثـةِ المَخلوقينَ فَقَدْ قَلَّ عِلمُه، وعمِيَ قَلْبُه، وضُيِّعَ عُمْرُه.

قيلَ لبَعضِهِم: مَن معَكَ في الدّار؟ فقـالَ: اللّهُ معِي، ولا يَسْتَوحِشُ مَن أنِسَ بِرَبِّـه. وقالَ الخرّاز: الأُنسُ محادَثـةُ الأرواحِ معَ المَحبُـوبِ في مجالس القُرب. ووصَفَ بعضُ العارفينَ صِفَةَ أهلِ المحبّـة [الواصلينَ] فقال: جَدَّدَ لهُمْ

= الطاعـون الجارف لما تولى الحجـاج العراق، سنـة سبـع وثمانين. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١: ٩٣).

(١) رابعة العدوية: كانت من أهل البصرة، ومولاة لآل عَتيك، وكثيراً ما كان سفيان الثوري يسألها عن مسائل، ويعتمد عليها ويرغب في موعظتها، كانت كثيرة البكاء، واشتهرت بالشعر الرقيق، وكانت تقول: لكل شيء ثمرة، وثمرة المعرفة الإقبال. انظر ترجمتها في: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٦: ١٩٢)، «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١: ٥٦).

(٢) مالك بن دينار: هو أبو يحيىٰ مالك بن دينار السامي الناجي. تابعي من البصرة. كان زاهداً معروفاً مشهوراً، روى عن أنس بن مالك وقدامى التابعين، كان يكسب قوت يومه من كتابة نُسَخ من القرآن الكريم، ويعتبر من مبكّري العلماء المسلمين الذين عرفوا بقراءة الكتب القديمة. توفي رحمه اللّه سنة ١٢٧هـ، كما في «البداية والنهاية» (١٣: ٢١٤ط. هجر). انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٢: ٣٥٧).

الوُدَّ في كلِّ طرْفَةِ عينٍ بدوام الاتِّصال، وآواهُم في كنَفِهِ بحقائقِ السُّكونِ إلَيْه، حتىٰ أنَّتْ قلُوبُهم، وحنَّتْ أرواحُهُم شوقاً، فكانَ الحُبُّ والشَّوقُ مِنهُم إشارةً منَ الحَقِّ إلَيْهِم عَن حقيقَةِ التَّوحيد [٥٤/أ] وهُوَ الوُجودُ باللّه، فذهبَتْ مُناهُم، وانقطَعَت آمالُهُم عِندَه، لِمَا بانَ [منهُ] لَهُم.

ولو أنَّ الحقَّ أمرَ جميعَ الأنبياءِ يسألونَ لَهُم، ما سألُوا بعضَ ما أعَدَّ لَهُم مِن قَديم وَحدانيَّتِه، ودوامِ أزليَّتِه وسابِق عِلمِه، فصارَ يَحْسُدُهُم مِن عبيدِه العُمومُ، إذ رَفَعَ عن قلوبِهِم جميعَ الهُموم.

وأُنْشِدَ في معنَاه: [بسيط]

كانَتْ لِقَلْبِيَ أهواءٌ مفرَّقَةٌ	فاستَجْمَعَتْ مُذْ رأتْكَ العينُ أهوَائِي
وصارَ يَحْسُدُنِي مَن كُنتُ أحْسُدُهُ	وصِرتُ مولَىٰ الورَىٰ إذْ كُنتَ مَولاَئِي
تركتُ للنَّاسِ دُنياهُمْ ودِينَهُمُ	شُغْلاً بذِكرِكَ يا دِينِي ودُنيائِي

وقَد يكونُ مِنَ الأُنس: الأُنسُ بطاعَةِ اللّهِ وذكرِهِ وتلاوةِ كلامِهِ وسائِرِ أبوابِ القُرُبات، وهذا القَدْرُ مِنَ الأُنس نعمَةٌ مِنَ اللّه، ومِنْحَةٌ ومِنَّة، ولكِن ليسَ هُوَ حالَ الأُنسِ الذي هُوَ يكونُ للمُحبِّين.

والأنسُ [حالٌ شريف، يكونُ عندَ طهارةِ الباطنِ وكَنْسِهِ] بصدقِ الزُّهد، وبكمالِ التَّقوىٰ، وقطعِ الأسباب والعَلائِق، ومحْوِ الخواطِرِ والهواجِس، وحقيقَتُهُ عندِي[1] كنْسُ الوجودِ [بثِقَلِ] لائِحِ العظَمَة، وانتشارُ الرُّوحِ في ميادِينِ الفُتوح.

ومِنَ الأُنس: خُضوعُ النَّفسِ المُطمَئِنَّة، [و] منَ الهَيْبَةِ: [خشوعُها، و] الخُشوعُ والخُضوعُ مُتقاربانِ، ويَفتَرِقانِ بِفَرقٍ لطيفٍ مُدْرَكٍ بإيماءِ الرُّوح.

---

(١) أي: عند السهروردي رحمه اللّه.

فصلٌ

[في القُرْبِ]

[مَن غابتْ نفْسُهُ في نورِ رُوحِهِ] إذا صَحا [وأفاق] تتخَلَّصُ الرُوحُ مِنَ النَّفس والنَّفسُ مِنَ الرُّوح، ويعودُ الكلُّ مِنَ العَبدِ إلىٰ محِلِّهِ ومقامِه، فيقولُ: (يا اللَّهُ، يا رَبِّ) بلسانِ النَّفسِ المُطْمئِنَّةِ العائِدَةِ إلىٰ مقامِ حاجتِها ومحلِّ عُبوديَّتِها. والرُوحُ [٥٥/ب] يستَقِلُّ بفتوحِه وبكمالِ الحالِ عَنِ الأقوال، وهذا أتمُّ وأقربُ [مِنَ الأول]؛ لأنَّهُ وفىٰ حقَّ القُرب، باستِقلالِ الرُّوح [بالفتوح]، وأقامَ رسمَ العبوديَّةِ بِعَوْد حُكْمِ النَّفْسِ إلىٰ محَلِّ الافتِقار، وحظُّ القُرْبِ لا يزَالُ يُصيبُ الرُّوحَ بإقامَةِ رَسْمِ العبوديَّةِ مِنَ النَّفس.

قالَ الجُنيد: إنَّ اللَّه يَقْرُبُ مِن قلوبِ عبادِهِ علىٰ حَسْبِ ما يَرىٰ مِن قُرْبِ قلوبِ عبادِهِ منه، فانظُرْ ماذَا يَقْرُبُ مِن قلبِك.

قالَ ذُو النُّون: ما ازدادَ أحدٌ مِنَ اللَّهِ قُرْبةً إلا ازدَادَ هَيْبَةً. وقالَ سَهْل: أدنىٰ مقامٍ مِن مقاماتِ القُرْبِ: الحَياء. وقالَ النَصْرآباذِي: باتِّباع السُّنَّةِ تُنالُ المَعرِفَة، وبأداءِ الفَرائِض تُنالُ القُرْبَة، وبالمُواظبَةِ علىٰ النَّوافِلِ تُنالُ المحبَّة.

فصلٌ

[في الحياء]

قال السَّرِي: احفَظْ [عنّي] مَا أقولُ لَك: إنَّ الحَياءَ والأُنسَ يَطوفَانِ بالقَلب، فإنْ وَجَدا فيهِ الزُّهْدَ والوَرَعَ حطَّا، وإلاَّ رحَلاَ.

والحياءُ: إطراقُ الرُّوح إجلالاً لعظيمِ الجَلال، والأُنسُ: التِذَاذُ الرُّوحِ بكمَالِ الجَمال، فإذا اجتَمعا فهُوَ الغايَةُ في المُنىٰ، والنِّهايَةُ في العَطاء.

وقالَ ابنُ عَطاء: العِلمُ الأكْبَرُ: الهَيْبَةُ والحَياء، فإذا ذَهبَ عَنْهُ الهَيبَةُ

والحَياءُ فلاَ خَيْرَ فِيه .

فصلٌ

[في مَراتبِ الوصُولِ إلىٰ اللّهِ تعالىٰ]

ومَن وصَـلَ إلىٰ صفْوِ اليقينِ بطـريقِ الذَّوقِ والوِجدَان، فهُوَ في رُتبَـةٍ منَ الوُصولِ، ثُمَّ يتفاوَتُون: فمِنهُم مَن يُجدُ اللّـهَ بطـريقِ الأفعَـال، وهُوَ رُتبَـةٌ في التجَلِّي، فيَفنىٰ فعلُهُ وفعلُ غيرِهِ لوقوفِهِ معَ فعلِ اللّه، ويخرُجُ في هذهِ [الحالةِ] مِن التَّدبيرِ والاختِيـار، وهـذهِ رُتبَـةٌ في الوصُـولِ. ومِنهُم مَن يوقَفُ في مقـامِ الهَيْبَـةِ [١/٥٦] والأُنسِ بما يُكاشَفُ بهِ قلبُهُ مِن مُطالَعَةِ الجَلالِ والجَمال، وهذهِ تجلِّي بطريقِ الصِّفاتِ، فهُوَ رتبَـةٌ في الوصُول.

ومِنهُم من يُرقَّـىٰ إلىٰ مَقـامِ الفَـنَاء، مشتمِـلاً علىٰ باطِنِـه أنوارُ اليقينِ والمُشـاهَدَة، مغيَّبـاً في شهُـودِهِ عَن وجُودِه، وهـذا ضَرْبٌ من تجـلِّي الذَّاتِ لخواصِّ المُقرَّبين، وهذهِ رُتبَـةٌ في الوصُول.

وفوقَ هذا: حقُّ اليقين، ويكونُ مِن ذلكَ لَمْحٌ في الدُّنيا للخَواصِّ، وهُوَ سَرَيانُ نورِ المُشاهَدَةِ في كُلِّيَـةِ العَبد، حتىٰ يحظَىٰ بِهِ رُوحُهُ وقلبُهُ ونفسُه، حتىٰ قالَبُهُ أيضاً، وهذا مِن أعلىٰ رُتَبِ الوُصول.

[فإذا تحقَّقَتِ الحقـائق، يَعلَمُ العبـدُ، معَ هـذه الأحـوالِ الشـريفة، أنه ــ بعدُ ــ في أولِ المنزل، فأينَ الوصُول؟].

هيهَـاتَ! منـازِلُ طريقِ الوصـلِ لا تنقَطِـعُ أبدَ الآباد في عُمْـرِ الآخـرَةِ الأبدِيِّ، فكيفَ في العُمرِ القصيرِ الدُّنـيَوِي؟

وإذا عادَ إلىٰ الوجودِ من الفَناءِ والبَـقاء، يعودُ إلىٰ الوجودِ النُّورانيِّ الذي هُوَ القَلْب، فيعودُ القَبْضُ والبَسْطُ إليهِ عندَ ذلِك، ومهمَا تخلَّصَ إلىٰ [الفناءِ و]

البَقاءِ فلا قَبْضَ ولا بَسْط.

ومَن عَدِمَ القَبْضَ والبَسْطَ وارتقىٰ مِنهُما، فنفسُهُ مُطمَئنَّـة، لا يَنْـقَدِحُ عَن جوهَرِها نارٌ تُوجِبُ القَبْض، ولا يتلاطَمُ بَحْرُ طَبْعِها من أهْوِيَـةِ الهَوىٰ، حتَّىٰ يظهَرَ منهُ البَسْط. ورُبَّما صارَ لمثلِ هذا القَبْضِ والبَسطِ في نفسِه، لا مِن نَفْسِه، بكونِ نفسِهِ المُطمئنَّـة، وما لِقلْبِـهِ قبضٌ ولا بَسْط؛ لأنَّ القَلْـبَ مُتحصِّنٌ بشُعاعِ نورِ الرُّوح، مستقِرٌّ في دَعَةِ القُـرْب، فلاَ قَبْضَ، ولا بَسْط. والفناءُ الظَّاهِرُ: أنْ لا يتجلَّىٰ الحَقُّ لَهُ بطريقِ الأفعَال، ويُسْلَبَ [٥٦/ب] العبدُ اختيارَه وإرادَتَه، فلا يَرىٰ لنفسِهِ ولا لغيرِهِ فعلاً إلا بالحَق، ثمّ يأخُذُهُ في المُعامَلةِ معَ اللّهِ بحَسْبِه.

والفناءُ الباطِنُ: أنْ يُـكاشَفَ تارَةً بالصِّفات، وتارَةً بمُشاهَدَةِ آثارِ عظَمةِ الذَّات، فيَستوليَ علىٰ باطِنِـهِ أمرُ الحَـق، حتىٰ لا يبقَىٰ لَهُ هاجِسٌ ولا وَسْواس. وليسَ مِن ضرورَةِ [الفناءِ] أن يَغِيبَ إحسَاسُه، وقَد [تتفقُ غيبةُ الإحساسِ لبعضِ الأشخاص]، وليْسَ ذلكَ مِن ضرُورَةِ الفَناءِ علىٰ الإطْلاَق.

فصلٌ

[في العِلم اللَّدُنّي]

عن النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ [مِن] معادِنِ التَّقوىٰ تَعَلُّمَكَ ــ إلىٰ ما قَدْ علِمْتَ ــ عِلْمَ مَا لا تَعْلَم، والنَّـقْصُ فيما عَلِمْـتَ قلَّـةُ الزِّيادَةِ فِيه وإنَّمـا يُزَهِّدُ الرَّجُـلَ في عِلمِ ما لَمْ يَعْلَمْ قِلَّةُ الانتفاعِ بما قَدْ عَلِم»[1].

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (رقم ٢٥١٣)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١ : ٩٥)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١ : ٨٥ ــ ٨٦) والخطيب في «تاريخ بغداد» (١ : ٤١٤) من حديث جابر رضيَ اللّه عنه، وفيه ياسين الزيات: منكر الحديث، قاله الهيثمي في «المجمع» (٢ : ١٣٦). وهو حديثٌ موضوع.

فَمشايِخُ الصُّوفيَّةِ أحكَمُوا أساسَ التَّقوىٰ، وتعلَّمُوا العِلمَ للّهِ تَعالىٰ، وعَمِلُوا بما عَلِمُوا [الموضع] تَقواهُم، فعلَّمَهمُ اللّهُ ما لَمْ يَعْلَمُوا مِن غرائِبِ العُلومِ ودقائِقِ الإشارات، واستَنبَطُوا مِن كلامِ اللّهِ غرائِبَ العُلوم، وعجائِبَ الأسْرارِ في العِلم.

قالَ أبو سَعيدٍ الخَرَّاز: أوَّلُ الفَهْمِ لكلامِ اللّهِ: العَمَلُ بهِ؛ لأنَّ فيهِ العِلْمَ والفَهْمَ والاستِنْباط، وأوَّلُ الفَهم إلقاءُ السَّمْعِ والمُشاهَدَة، لقولِه تَعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وقالَ الواسِطيّ: الرَّاسِخُونَ في العلم [همُ الذين] رسَخُوا بأرواحِهِم في غَيبِ الغَيب، وفي سِرِّ السِّرِّ، فعَرَّفَهُم ما عَرَّفَهُم، وأرادَ مِنهُم مِن مُقتَضىٰ الآياتِ ما لَمْ يُرِدْ مِن غَيرِهِم، وخَاضُوا [٥٧/أ] بحْرَ العِلمِ بالفَهمِ لِطلَبِ الزِّيادَاتِ؛ فانكشَفَ لَهُم مِن مَذْخُورِ الخزائِن، والمَخْزُونِ تحتَ كُلِّ حرفٍ وآيةٍ، منَ الفَهمِ وعجائِبِ النَّصّ، فاستَخْرَجُوا الدُّرَرَ والجَواهِر، ونطَقُوا بالحِكمَة.

عَن رسولِ اللّه ﷺ [أنه قال]: «إنَّ مِنَ العِلمِ كهَيْئَةِ المكنونِ لا يَعلَمُهُ إلا العُلماءُ باللّه، فإذا نَطَقُوا بهِ لا يُنكِرُهُ إلا أهلُ الغِرَّةِ باللّه»[١].

قالَ القُرشيّ: هيَ أسرارُ اللّهِ يُبْدِيها إلىٰ أُمناءِ أوليائِه وساداتِ النبلاء، مِنْ غيرِ سماعٍ ولا دراسة، وهيَ مِنَ الأسرارِ التي لا يطّلعُ عليها إلاّ الخواصّ.

وسُئِلَ بعضُهم عن حالِ موسىٰ في [وقت][٢] الكلام فقال: أُفنِيَ موسىٰ

---

(١) قال في «غُنية العارف» (٢: ٨٩٣ بهامش العوارف): أخرجه أبو عبد الرحمٰن السُّلَمي في «الأربعين»، والطيبي في «الترغيب»، والديلمي في «مسند الفردوس»، وجماعة، بسندٍ ضعيف.

(٢) في المخطوط: (حال)، والمثبَت من «العوارف» (٢: ٨٩٥).

عن موسىٰ، فلم يكن لموسىٰ خبرٌ عن موسىٰ، ثم كُلِّمَ فكان المكلِّمُ والمكلَّمُ هوَ، وكيف كان موسىٰ يُطيقُ حَمْلَ الخِطابِ وردَّ الجوابِ لولا بإيّاهُ سَمِع؟!

ومعنىٰ هذا أنّ اللّهَ تعالىٰ مَنَحَهُ قوةً، بتلكَ القوةِ سمع، ولولا تلكَ القُوّةُ ما قدرَ علىٰ السّمع. ثم أنشدَ قائلاً متمثّلاً: [كامل]

وبدا لهُ مِنْ بعدِ ما اندَمَلَ الهوىٰ	بَرْقٌ تألّقَ مَوْهِناً لَمَعانُهُ
يَبْدو كحاشِيةِ الرِّداءِ ودونَهُ	صَعْبُ الذُّرىٰ مُتمَنِّعٌ أركانُهُ
فبَدَا لِينظُرَ كيفَ لاحَ فلم يُطِقْ	نظراً إليهِ وردَّهُ أشجانُهُ
فالنارُ ما اشتمَلَتْ عليهِ ضُلُوعُهُ	والماءُ ما سَمَحَتْ بهِ أجفانُهُ

انتهىٰ.

[خاتمةُ المختَصرِ]

وهَذا آخرُ ما قَصَدْتُهُ مِن الاختِصارِ والالتقاطِ والانتِخاب، لهذهِ الفُصولِ والجُمَلِ المُهِمَّةِ ذاتِ الفوائِدِ الجَمَّةِ، والتأثيرِ والتّنوير، والخَيْرِ الكَثير. جَعلَ اللّهُ ذلِكَ خالِصاً [٥٧/ب] لوجهِهِ الكريم، ومُقَرِّباً إلىٰ رِضوانِه، إنَّهُ هُوَ الجَوادُ الكَريم، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا باللّهِ العَلِيِّ العَظيم، وما توفيقي إلاّ باللّهِ عَلَيْهِ توكّلْتُ وإلَيْهِ أُنِيب.

قالَ سيّدُنا الحبيبُ عبدُ اللّه بن علَوي الحدّاد[١] نفعَ اللّهُ بهِ: الطريقُ إلىٰ

---

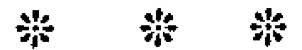
(١) الإمام العلاّمة الداعي إلىٰ اللّه، قطب الدعوة والإرشاد، ومجدِّد القرن الثاني عشر الهجري، شيخ الإسلام عبد اللّه بن علوي بن محمد الحدّاد باعلوي (١٠٤٤ ــ ١١٣٢هـ). مولده بالسُّبَير (من ضواحي تريم حضرموت). تربّىٰ في تريم، وكُفَّ بصره صغيراً. جدَّ في طلب العلوم وسلوك طريق الآخرة، حتىٰ أقامه اللّه مظهَراً للدعوة والهداية، فعمَّ نفعُه الأقطار وانتشرت دعوتُه. ألّف كتباً نافعةً مباركة قيل: إنها=

اللّه، ظاهِرُها عِلْم، وباطِنُهـا فَهْم، وحاصِلُهـا أسْرَار، وغايَـتُها ذهَابٌ في اللّه. انتهى[١].

❊ ❊ ❊

تمّ الكِتابُ، وكانَ الفراغُ مِن نساختِه عصرَ يومِ الاثنين ٢٢ شهر رجبِ الأصَبِّ مِن سنة ١٢٨٥، والحمدُ للّهِ الذي بنعمتِه تتِمُّ الصالحات، بقلم الفقيرِ إلىٰ مولاه: محمّدِ بْنِ عبدِ اللّه بنِ بُو بكرِ بْنِ عمرَ بنِ محمّد بايوسُف غفَرَ اللّهُ لهُ ولوالدَيْه وأحبابِه ولمَشايخِه ولجميعِ المسلمين. آمين.

وصلىٰ اللّهُ علىٰ سيِّدِنا محمّدٍ وآلِه وصَحبِه وسلَّم تسليماً كثيراً، والحمدُ للّهِ ربِّ العالمين.



= جمعَت زبدة كلام الإمام الغزالي رضيَ اللّه عنه. توفي بتريم ودُفِنَ بمقبرتها (زنبل)، رحمه اللّه تعالىٰ ورضيَ عنه.

(١) بهذه الكلمة النفيسـة النورانيـة الجامعـة للإمـام الحـدّاد؛ ختمَ المختَصِرُ العلاّمةُ ابنُ سُمَيط كتابَه هذا، ونعمّا فعل، فلقد لخَّصَ ــ بإيرادِه تلك الكلمة ــ أمرَ الطريق إلىٰ اللّه تعالىٰ، كلَّه. نسألُ اللّه تعالىٰ أنْ يرزقنا العلمَ والفهم، وينوِّرَ قلوبنا بنور معرفته، ويديم علينا عافيتَه وعفوَه، حتىٰ نلقاه تعالىٰ وهو عنّا ــ وعن سائرِ أحبابنا ــ راضٍ، والحمـد للّه الذي بنعمتـه تتم الصالحـات. (كتبه مراجعُه: العبدُ الضعيف إياد أحمد الغوج).

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

٭ ٭ ٭